

حسن تفسير القرآن الكريم في تاريخ الله
بمفيض من لذة عز وجل

مَعْنَى الْمَلِكِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

للمعز الحائس والعشرون

سورة البقرة (الآيات ١٤٣ - ١٤٩)

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل عطائي

أساتذة الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أفتح كل جزء من هذا التفسير الخالد بحمده والثناء عليه وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين، الحمد لله الذي تفضل وجعل هذا التفسير ثروة وثورة في العلوم المستنبطة من كنوز الآية القرآنية، فبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة على نزول القرآن يأتي هذا السفر بدرر ومسائل وأسرار عقائدية من ذات الآية القرآنية، مستقراً منها فضلاً منه تعالى تضاف إلى الجهود المباركة للعلماء ومؤلفاتهم الغنية في علم التفسير، وبمنهجية وإفاضات كريمة وأبواب مستحدثة منها باب سياق الآيات الذي ليس له إنتهاء ولا حد من طرف الكثرة بتولي العلماء في الأجيال القادمة تأليف المجلدات فيه.

وسنصدر إن شاء الله خمسين جزء خاصة بصلة آية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، بالآيات السابقة لها من سورة البقرة وآل عمران، وقد صدر منها ثمانية أجزاء لتكون نواة وبذرة لهذا العلم، وقد تجلت فيها علوم وقوانين وسنن مقتبسة من وجوه الصلة بين كل آيتين، أو ثلاث آيات من القرآن سواء كانت متجاورة أو في سورة واحدة أو في سور متعددة إلى جانب مباحث سياق الآيات في أول تفسير كل آية من آيات هذا التفسير.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

وقد ألف العلماء الماضون كتباً في إعجاز القرآن، وقد لا تتجاوز الموجود منها عدد الأصابع من الإنسان، وجعلتُ والحمد لله باباً خاصاً في تفسير كل آية إسمه (إعجاز الآية) إلى جانب المضامين الإعجازية في ثنايا تفسيرها .

ومنها باب الآية سلاح وكيف أنها خير محض ينتفع منها المسلم في النشاطين .

ومنها إفاضات الآية والآية لطف لبيان النعم التي تتجلى بيهاء في إشراقها على القلوب المنكسرة .

ويطل عليك في تفسير كل آية منه إن شاء الله علم مستحدث إسمه (الصلة بين أول وآخر الآية) يصدق عليه أنه تأسيس لهذا العلم لأن ما فيه من الذخائر أضعاف مضاعفة لما كتبه فيه .

وباب (التفسير الذاتي) و(من غايات الآية) وقيدته بحرف التبعية (من) لأن هذه الغايات أعظم وأكبر وأعم من أن تحيط أوهام البشر وهي في تجدد متصل .

وهذه هي المرة الثالثة التي أعيد فيها كتابة الأجزاء الأولى ومنها هذا الجزء للإفاضات والإضافات والتنقيح.

وقد صدر الجزء الخامس والتسعون منه في تفسير آية واحدة^(١) والحمد لله، لا ولم يساعدني فيه إلا الله عز وجل بمدد ولطف وإحسان منه سبحانه، إذ أقوم بالتأليف والمراجعة والتصحيح بمفردي إلى حين صدور الجزء وعرضه على الموقع، وينضد الحروف والكلمات ولدان لي صغيران رزقهما الله الصبر بإتصال عمل اليوم بليته ، ولو كانت هناك موارد وحقوق تأتي

(١) الآية ١٣٦ من سورة آل عمران.

لتعزيد التفسير ومؤلفاتي الأخرى الفقهية والأصولية والكلامية لكانت هناك مؤسسة وموظفون يعملون معي ولصدر جزءان أو ثلاثة أجزاء من التفسير بدل الجزء الواحد ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(١)، وهو الذي يعلم بالمصلحة وأسباب دفع المفسدة .

وتضمن هذا التفسير المئات من القوانين العقائدية والعلمية من فيوضات ذات الآية التي يأتي القانون ضمن تفسيرها في بينة ودلالة بتوفيق من الله عز وجل ، وهذه القوانين تترى مع السياحة في آيات القرآن .

وهو سبحانه يعمر الأفئدة بأنوار اليقين وينطق الألسنة بالحجة والبرهان، ويجري المداد بما يكشف حقائق الدين ويدفع ضلال أهل الإلحاد .

وهذا الجزء هو الجزء الخامس والعشرون من التفسير ويتضمن تفسير الآيات (١٤٣-١٥١)^(٢) من سورة البقرة .

ويبدأ بقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ في خطاب تشرifi ووعده وبشارة للمسلمين والمسلمات في أجيالهم المتعاقبة ، وحكم سماوي دائم لا يقبل النسخ مما يدل على العناية واللفظ الإلهي بالمسلمين وبقائهم في منازل الإيمان والتقوى، وفيه حجة على الناس في لزوم إكرام المسلمين ومعرفة الحاجة إليهم في الشهادة ، ومن مصاديقها في الدنيا الإقتداء بهم والعمل بسنن الإسلام التي تضيفي صفة العدالة على العامل بها .

ولم يرتق المسلمون لهذه المرتبة السامية من بين البشر إلا بالقرآن ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مما يملئ علينا تعاهد الصدور عن القرآن والسنة النبوية المباركة .

(١) سورة الذاريات ٥٨ .

(٢) كانت هذه الآيات في الطبعة الأولى لهذا التفسير ضمن الجزء الحادي عشر منه .

الحمد لله الذي أنعم علينا بأن بلغ علم تفسير القرآن بهذا السفر مرحلة سامية لم تطرأ على بال كثير من العلماء وتتجلى فيه بركات من شفاء الصدور في التأويل وإستظهار لآلئ التنزيل ، وسيأتي المزيد منها على أيدي العلماء في الأجيال القادمة.

والدراسات الأكاديمية بخصوص ذات التفاسير أضعاف مضاعفة لها موضوعاً وعدداً، وطوبى لهم جميعاً، ولمن غاص في كنوز ذات الآية تفسيراً وتأويلاً، مع قلة ما فيها من معاني تفسير الآية، وإنفتحت لأهل التحصيل وعشاق القرآن بهذا السفر خزائن من هذا العلم وكأنهم شهدوا التنزيل وكما أن كل آية في القرآن مدد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين في أمور الدين والدنيا، ومسائل العبادات والمعاملات، فقد كانت الآية التي أتناول تفسيرها وتأويلها مدد لي تضيء لي بالمعارف العالية والأسرار الربانية التي تنقح لأول مرة في التأريخ وعلى نحو دفعي ومتعدد في تفسير كل آية على نحو مستقل ومتداخل مع تفسير غيرها، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الآية ١٤٣.

الإعراب واللغة والقراءة

قرأ عمرو بن العلاء البصري (٦٨-١٥٤) هجرية وكذا حمزة والكسائي، وابو بكر عن عاصم (رؤف) مهموزاً من غير واو على وزن رَعَف (وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر، وحفص عن عاصم (لرؤف) على وزن رَعُوف) ^(١). وكذلك: الواو عاطفة ، الكاف: حرف جر ووظيفته التشبيه، واسم الإشارة في محل جر بالكاف.

جعلناكم: فعل وفاعل ومفعول به أول، أمة: مفعول به ثان. وسطاً: صفة لأمة منصوب مثله .

لتكونوا: اللام للتعليل، تكونوا: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مقدرة بعد لام التعليل، الواو: اسم تكون.

شهداء: خبر تكون منصوب بالفتحة، ولأنه على وزن فعلاء لم ينون. على الناس: جار ومجرور، ويكون الرسول: الواو: حرف عطف. يكون: فعل مضارع بأن مقدرة، الرسول: اسم يكون مرفوع. عليكم: حرف جر، وضمير في محل جر، شهيداً: خبر يكون منصوب.

وما جعلنا: الواو: حرف عطف، ما: نافية، القبلة: مفعول به منصوب، وقيل بحذف مفعول ثان تقديره قبلة لك، التي: اسم موصول في محل نصب صفة لقبلة.

كنت: فعل ماض ناقص مبني على السكون، التاء: اسم كان، عليها: جار ومجرور والمراج بيت المقدس كقبلة صرف الله عنها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل معنى كنت عليها اصرت عليها، كما في قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾^(١)، أي المراد البيت الحرام، والأول أرجح .

إلا: أداة حصر، لنعلم: اللام للتعليل ويعبر عنها بلام كي. نعلم: فعل مضارع منصوب بان مضمرة، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن.

من: اسم موصول في محل نصب مفعول به، يتبع: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، الرسول: مفعول به منصوب.

من: حرف جر، واسم موصول مبني في محل جر، ينقلب: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو).

على عقبه: جار ومجرور، وعقبى مضاف، والهاء: ضمير في محل جر مضاف إليه، وإن كانت: الواو إعتراضية، وقيل حالية.

إن: مخففة، كانت: فعل ماض ناقص، والتاء تاء التانيث الساكنة، واسم كان ضمير مستتر تقديره هي أي القبلة وإستقبال وتولي الكعبة.

كبيرة: اللام هي الفارقة وهي المرحلة نفسها التي تفيد التوكيد، وسميت فارقة لأنها تأتي بعد (ان) الثقيلة فتفرقها عن (ان) النافية.

كبيرة: خبر كان، إلا: أداة حصر، على الذين: جار ومجرور متعلق بكبيرة.

هدى: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف، الله: اسم الجلالة فاعل مرفوع.

وما كان: الواو حرف عطف، ما: نافية، كان: فعل ماض ناقص، الله: اسم كان مرفوع.

ليضيع: اللام للجحود، يضيع: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. إيمانكم: إيمان مفعول به منصوب، والضمير المتصل (كم) في محل مضاف إليه.

إن الله بالناس: إن: حرف مشبه بالفعل، الله: اسم الجلالة اسم إن منصوب، بالناس: جار ومجرور، لرؤوف رحيم: اللام: هي المرحلة، رؤوف: خبر إن مرفوع، رحيم: خبر ثان مرفوع.

وجعل من أفعال الشروع التي تدل على الإبتداء بالفعل وإنشائه ومن أشهرها جعل، أخذ، أنشأ، قام، وغيرها فعل مضارع مجرد من (ان) وجوباً لأن أفعال الشروع تعطي معنى الحال، وإذا جاءت (ان) مع الفعل المضارع فإنها تفيد معنى الزمان المستقبل فيحصل بينهما التعارض لأن المضارع الخالي من قرائن المستقبل يعطي معنى الحال.

والوسط من كل شيء أعدله، كالسخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، وفي الوسط إبتعاد عن طرفي التعدي والتفريط وما هو مذموم قال زهير: هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي العظام^(١).

في سياق الآيات

بعد ان بينت الآيات السابقة تخلف فريق ممن جاءتهم النبوة عن احكامها وتقصيرهم في عدم المحافظة عليها وتوجههم بالإحتجاج على المسلمين جاءت هذه الآية بالتفصيل في بيان الحكمة من القبلية السابقة وكيف انها والتحول منها موضوع ابتلاء وإكرام، والكاف في كذلك تدل على التشبيه ورجوعه على الظاهر الى مضامين الآيات السابقة.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى : صلة الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ

عَنْ قِبَلَتِهِمْ...﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تتعلق بداية الآية بأمر في المستقبل القريب وهو قول من أهل

الحسد (سيقول السفهاء) أما بداية هذه الآية ففيها إخبار عن أمر يتغشى أفراد

الزمان الطولية الماضي والحاضر والمستقبل بقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا﴾ بتقريب أن المسلمين في كل زمان هم أمة وسط عدل.

الثانية : من مفاهيم الأمة الوسط العلم بأحوال الناس، والتمييز فيما

بينهم، وهذا التمييز ليس بأهلية ذات الأمة الوسط بل بفضل وعون من الله

عز وجل إذ تنبئ هذه الآية عن وجود سفهاء بين الناس، ويعرفون بإنكارهم

إلتخاذ المسلمين البيت الحرام قبلة.

الثالثة : تكرار لفظ (الناس) في هذه الآية والآية السابقة وموقع كل منهما

اسم مجرور وجاء في الآية السابقة بلغة التبويض وأن السفهاء طائفة من

الناس.

وأخبرت هذه الآية بأنهم مشهود عليهم وأن المسلمين هم الذين يشهدون

على الناس .

وفي الجمع بين الآيتين بلحاظ لفظ الناس وجوه:

الأول : يشهد المسلمون على غيرهم من أهل الكتاب والكفار.

الثاني : قول وإنكار السفهاء إضرار بأنفسهم، لأن المسلمين سوف يشهدون عليهم.

الثالث : كل من الآيتين دعوة للمسلمين للشهادة على السفهاء بإنكارهم تحويل القبلة.

الرابع : إرادة الثواب للمسلمين، قال تعالى ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾^(١).

الخامس : بلحاظ شهادة المسلمين على الناس جميعاً، فأية البحث دعوة لهم لعدم الإنشغال بقول السفهاء في مواضيع شهادة المسلمين على الناس، وفيه بلحاظ الآية السابقة مسائل:

الأولى : الشهادة على الذين ينكرون تحول القبلة.

الثانية : الشهادة على الذين يؤذون المسلمين في دينهم وعباداتهم.

الثالثة : الشهادة لمن يسلمون بالملك المطلق لله عز وجل ، وأن له المشرق والمغرب.

الرابعة : الشهادة لأهل الهداية، والشهادة على الذين ينحرفون عن جادة الصراط، وهذه الشهادة لم تمنع من توسل وتضرع المسلمين لإستدامة ثباتهم على الإيمان لقوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢)، والذي يتلوه كل مسلم ومسلمة على نحو الوجوب العيني عدة مرات في اليوم وليشهد المسلمون بعضهم لبعض بما يرفع درجاتهم.

(١) سورة الحديد ١٩.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

الخامسة : تشترك هذه الآية والآية السابقة في موضوع القبلة ومن الإعجاز في نظم الآيات أن كلا منهما تذكر القبلة التي إنصرف عنها المسلمون بأمر من الله عز وجل وهو بيت المقدس.

السادسة : مع نعت الآية السابقة للذين ينكرون على المسلمين الإنتقال من إستقبال بيت المقدس بالسفهاء، فإن هذه الآية جاءت بالجواب عليهم، ودفع إشكالهم، من جهات:

الأولى : كان القبلة السابقة إمتحاناً وإختباراً بلزوم إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الأمر والنهي، والنسخ والتبيان.

الثانية : تدل الآية بالدلالة التضمنية على حقيقة وهي لزوم وحتمية التحول من بيت القدس إلى المسجد الحرام.

الثالثة : إن المسلمين مأمورون بإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتتزيل، والله عز وجل هو الذي أمره بترك إستقبال بيت المقدس، وليس للمسلمين إلا إتباعه.

الرابعة : في إتباع المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في التحول في القبلة خير الدنيا والآخرة، فكيف يلومهم بعض الناس على هذه النعمة الدائمة، والخير المتصل لذا جاء نعتهم بالسفهاء أي للومهم المسلمين على فعل عبادي مبارك.

الخامسة : الثواب العظيم للمسلمين لتحملهم أقوال السفهاء بخصوص تحول القبلة من بيت المقدس.

السادسة : نصرة الله عز وجل للمسلمين في إمتثالهم للوظائف العبادية بفضح وزجر الذين يؤاخذونهم على تبدل الفعل العبادي طاعة لله.

السابعة : التحول في القبلة من الهداية والرشاد لقوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ .

وفي الجمع بين الآيتين بيان لحقيقة بأن طاعة الله محفوفة بالأذى، الأمر

الذي يستلزم الصبر.

الثامنة : نعت أهل الإنكار بأنهم سفهاء دعوة للمسلمين لعدم البطش بهم، واجتناب الإضرار بهم، إنما هو جدال واحتجاج، وجاءت آية البحث دعوة للمسلمين للثبات على سنن الهداية والإيمان وعدم الإنشغال بأقوال الغير وإنكاره وفيه زيادة في إيذائه.

التاسعة : إختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ومن رحمته تعالى تحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام، وهل قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ منها الجواب نعم من جهات:

الأولى : تحذير الناس من قول السفهاء هذا.

الثانية : الزجر عن الإنكار على المسلمين أفعالهم العبادية.

الثالثة : من رافة الله الإخبار عن أمر غيبي لورود السين في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ للدلالة على أن القرآن كتاب نازل من عند الله عز وجل.

الرابعة : دعوة الذين ينكرون تحويل القبلة إلى الكف عن قولهم هذا، وهل في الآية أمر بالإمتناع أصلاً عن هذا القول، الجواب الإخبار عن وقوع الإنكار نوع تحد وإعجاز لأن الدنيا دار إمتحان وبلاء ولكن الآية جاءت الآية لمنع إفتتان الناس بهذا القول.

الثانية : صلة هذه الآية بالآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا....﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : الجمع بين الآيتين لفظاً على وجوه:

الأول : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً قد نرى تقلب وجهك في السماء.

الثاني : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً فلنولينك قبلة ترضاها.
الثالث : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً فولوا وجهك شطر المسجد الحرام.
الرابع : كذلك جعلناكم أمة وسطاً وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم.

الخامس : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً أنه الحق.
السادس : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.
السابع : قد نرى تقل وجهك في السماء لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

الثامنة : قد نرى تقلب وجهك في السماء وما كان الله ليضيع إيمانكم.
التاسعة : إن الله بالناس لرؤوف رحيم قد نرى تقلب وجهك في السماء.
العاشرة : فلنولينك قبلة ترضاها إن الله بالناس لرؤوف رحيم.
الحادية عشرة : فول وجهك شطر المسجد الحرام إن الله بالناس لرؤوف رحيم.

الثانية عشرة : إن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم إن الله بالناس لرؤوف رحيم.
الثالثة عشرة : وما الله بغافل عما يعلمون إن الله بالناس لرؤوف رحيم.
الرابعة عشرة : وما كان الله ليضيع إيمانكم وما الله بغافل عما يعلمون.
الثانية : أن الأمة الوسط هي التي لا بد أن تتخذ قبلة تستقبلها في العبادات والمناسك، وفيه وجوه:

الأول : قبلة الأمة الوسط هي البيت الحرام.
الثاني : تعيين القبلة بالتنزيل والوحي من عند الله عز وجل.
الثالث : بيان موضع القبلة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
الرابع : حسن إتباع الأمة الوسط للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في تعيين القبلة.

الثالثة : من شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين شوقه ورضاه بالقبلة الناسخة والتوجه إلى البيت الحرام، ليشهد لهم عند الله بحسن عملهم، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

الرابعة : ذكرت هذه الآية أن تحويل القبلة أمر ثقيل على الذين لم يؤمنوا، وجاءت الآية التالية بالأمر للمسلمين بالتوجه إلى البيت الحرام مما يدل على إيمانهم، وأنها ليست كبيرة عليهم، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الخامسة : تعلق كل من الآيتين بموضوع القبلة، وذكرت هذه التحول من البيت المقدس وإنقطاع إتخاذ المسلمين له قبلة وإلى يوم القيامة، أما الآية التالية فإنها تضمنت الأمر الإلهي للمسلمين لإستقبال البيت الحرام في الصلاة والعبادات.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَتَيْتُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ...﴾^(٣)، وفيها مسائل:

- الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:
- الأول : قد نرى تقلب وجهك في السماء لتكونوا شهداء على الناس.
- الثاني : قد نرى تقلب وجهك في السماء لتكونوا شهداء على الناس.
- الثالث : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً فلنولينك قبلة ترضاها.
- الرابع : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً فول وجهك شطر المسجد الحرام.
- الخامس : وحيث ما كنتم فول وجوهكم شطره وكذلك جعلناكم أمة وسطاً.

(١) سورة آل عمران ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) الآية ١٤٥.

السادس : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم.

السابع : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً وما الله بغافل عما يعملون.

الثامن : قد نرى تقلب وجهك في السماء وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه.

الثانية : إن جعل المسلمين أمة وسطاً عدلاً نعمة من عند الله عز وجل ومن خصائص الأمة الوسط إتخاذ البيت الحرام قبلة ويدل عليه في المقام أمور:

الأول : مجيء آية البحث بخصوص القبلة.

الثاني : إبتداء آية البحث بالإخبار عن كون المسلمين أمة وسطاً.

الثالث : مجيء آية السياق والآية التي قبلها بخصوص القبلة.

الثالثة : جاءت كل من آيتي البحث والسياق خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مرة ولللمسلمين مرة أخرى، مع التباين الموضوعي إذ بدأت آية السياق بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : أخبرت آية البحث عن نسخ القبلة ، أما آية السياق فتضمنت الأمر الإلهي للمسلمين بالتوجه إلى البيت الحرام، وهو من إعجاز القرآن وبيان موضوعية القبلة في عبادات الأمة الوسط، فلم تمر فريضة واحدة على المسلمين إلا وهم مستقبلون القبلة وليس من فترة بيت المنسوخ والناسخ.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَكُلِّ وَجْهٌ هُوَ مَوْلَاهَا فَاَسْتَبَقُوا

الْخَيْرَاتِ...﴾^(١) وفيها مسائل :

الأولى : المسلمون أمة وسط حتى بخصوص القبلة، وهل من ملازمة بين التعدد في قبلة الأمم ومنازلها وسنتها، الجواب نعم ليكون إختصاص المسلمين باستقبال المسلمين للبيت الحرام شاهداً على أنهم أمة وسط. ولو

حاكاهم فريق من الناس باستقبال البيت الحرام فهل يلحق بصفة الأمة الوسط، الجواب لا، لأن هذه الصفة تتقوم بالإسلام .

الثانية : تضمنت آية السياق الأمر الصريح للمسلمين باستباق الخيرات وتدل آية البحث بالدلالة التضمنية على هذا الأمر من وجوه :

الأول : وظائف الآية الوسط العبادية .

الثاني : شهادة المسلمين على الناس .

الثالث : شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين ولزوم مسارعتهم في الخيرات.

الرابع : إخبار الآية عن إيمان المسلمين وأن الله عز وجل يشيهم عليه .

الثانية : إكرام المسلمين بجعل الخطاب في كل من آتي البحث والسباق موجه إليهم وبما يفيد إصلاهم وهدايهم لسنن التقوى .

الثالثة : من شهادة المسلمين على الناس التمييز بينهم في الملة والعقيدة بلحاظ جهة القبلة التي يستقبلون ، ومع أن القبلة خاصة بالموحدين من اليهود والنصارى والمسلمين فإن شهادة المسلمين عامة تشمل الناس جميعاً، كما أنها تتصف بالإطلاق الموضوعي من غير تقييد بخصوص القبلة لأصالة الإطلاق في الشهادة .

الرابعة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

وأختتمت آية البحث سياق بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ليكون من قدرة الله عز وجل رأفته بالناس وتقريبهم إلى منازل الطاعة، والعفو عنهم والتجاوز عن سيئاتهم إن شاء وبما يشاء ، قال تعالى ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١).

إعجاز الآية

تعتبر الآية الكريمة وثيقة دائمة في تحديد عظيم المسؤولية للمسلمين وسيادتهم على الأمم والعقائد وفيها بشارة بالثواب الجزيل لحسن إمثال المسلمين مما يؤكد أن تحويل القبلة لم يكن أمراً سهلاً وكان إمتحاناً خصوصاً مع إختيار أهل الكتاب الإستتكار والإستخفاف.

وختمت الآية بالرافة وتغشي الرحمة للناس جميعاً مما يعني ان الأمر بتحويل القبلة فيه نفع للجميع ومن غير ان ينحصر بالمسلمين وان كانوا وحدهم الذين تلقوا الأمر وإستجابوا له، وفي الآية رد سماوي على السفهاء.

ويتجلى فضل الله عز وجل على المسلمين في منطوق الآية من وجوه:
الأول : إن الله عز وجل هو الذي جعل المسلمين الأمة الوسط، وهل هذا الجعل دفعي ومرة واحدة، الجواب إنه متجدد في كل يوم وكل ساعة حيث يقرب الله عز وجل المسلمين إلى مرتبة العدل والوسط، ويهديهم إليها ويمنع من مفارقتهم لها، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾^(١).

والآية وثيقة سماوية تنبأ عن نيل المسلمين مرتبة (أمة وسطاً) ويحتمل الأمر وجهين:

الأول : إنفراد المسلمين بصفة الأمة الوسط، فليس من أمة غيرهم نالت هذه المرتبة.

الثاني : جاءت الآية بصيغة التنكير، وهو لا يمنع من التعدد في هذه المنزلة والمرتبة الرفيعة، وإثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره.
والصحيح هو الأول وتقدير الآية: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً بين

الناس) لبيان أن مقام الوسط لا يصلح إلا للمتحد.

ويمكن تسمية الآية آية (أمة وسطاً) ولم يرد لفظ وسط في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة.

الآية سلاح

من وجوه الإعجاز في الآية الكريمة أنها تساعد المسلمين في التسليم بالقبلة الجديدة والإعراض عن أهل الحسد ، قال تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١)، وتجعلهم يبادرون بوعي إلى الالتزام بالقبلة الجديدة وهو أمر يحتاجه الإسلام بان تكون أفعالهم عن تدبر ونظر وإمثال .

فعندما يأمر الله النبي والمسلمين يقيض أسباباً وأحوالاً ومجهودات لأداء متعلق الأمر والثبات عليه وهو مصداق للرحمة وتمام الحجة . ومن أسرار الآيتين جعل أهل الإنكار يقفون عنده وينشغلون في أنفسهم، ويتدبرون في نعتهم بالسفاهة، وهو من مصاديق قانون (الآية مدد) فكل آية عون ومدد للمسلمين، ومنها هذه الآية، فبينما يتلقى أهل الجدل والإنكار الذم واللوم في الآية السابقة يتوجه المسلمون إلى الكعبة الشريفة ويتعاهدون هذا الإستقبال كل يوم في الصلاة وغيرها فلا يضرهم قول غيرهم بعده على فرض تجددته وإستدامته.

وتتضمن الآية دعوة المسلمين للقيام بوظائف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالهداية إلى الصلاة وأداء الوظائف العبادية بلحاظ أن القبلة شرط للصلاة وأن أصل نزول الآية هو توجه المسلمين إلى البيت الحرام في الصلاة ويبعث إخبار الآية عن شهادة المسلمين على الناس الثقة في نفوس المسلمين،

وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

لقد ابتدأت وأختتمت الآية بخطاب ثناء على المسلمين إذ تضمنت خاتمتها الشهادة للمسلمين بالإيمان وأن الله عز وجل يثيبهم عليه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وفيه مدد للمسلمين بتعاهد الإيمان ومنه إستدامة إستقبالهم للبيت الحرام.

مفهوم الآية

الآية مدح وثناء للمسلمين وعدم ميلهم إلى ملة أخرى أو أهواء قوم آخرين، وهي بشارة إستدامة حكم العدل والإنصاف في الأرض سواء بلفظ (كذلك) وما يدل عليه من الإستمرار والتجدد، أو بمضامين فلسفة الوسط وما ترمز إليه من العدل والإستقامة.

والآية تزكية لأحكام الإسلام سواء نسخ القبلية وتحويلها أو الفرائض الأخرى، فمن مفاهيم الآية الإعجازية أنها تثبت نسخ القبلية وتدفع أذى السفهاء وقول السوء وتكون مقدمة علمية وتأديبية لنزول الأحكام والسنن، وكان مسألة القبلية وهي شرط في الصلاة تمرين عبادي لتثبيت الفرائض الأخرى كالصيام والزكاة بل الصلاة نفسها.

ومن مفاهيم الآية أنها تحبر عن مواصلة أعداء الإسلام التعدي بالقول أو غيره على المسلمين في شعائرهم ومناسك دينهم، وتحث المسلمين على الصبر عليها لأنها طريق الهداية والصراط المستقيم، ونعت منكري إستقبال البيت الحرام بالسفهاء في الآية السابقة من عمومات قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٢).

(١) سورة المنافقون ٨.

(٢) سورة آل عمران ١١١.

وجاءت هذه الآية لتؤكد دفع ضرر الكفار وأهل الشك والريب في موضوع القبلة، فمتى ما تيقن الإنسان انه على جادة النجاة التي تخلصه من المفازة فانه يحرص على التمسك بها وعدم الانحراف عنها إبتداء وإستدامة وليؤدها في فرح وغبطة من غير خوف او وجل، وهذه الآية دليل قرآني يضيء مسالك الحياة لأنها تعلن ان الحق مع المسلمين في عباداتهم.

والعدل والوسط الذي إختص به المسلمون لم يكن مطلوباً للذات فقط بل للذات والغير وهذه المنزلة الرفيعة تجعل المسلمين مؤهلين لخلافة الأرض وورثة الأنبياء بشهادتهم على الناس والتقاءهم مع الأنبياء يوم القيامة بان يشهدوا على الخلق كما سيأتي في الحديث ويتغشاهم أيضاً التشريف الذي يستقرأ من عمومات قوله تعالى ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١).

إن تحمل الشهادة يعني بالدلالة الإلتزامية عدم إشتراك الشهود في الجناية والواقعة التي يشهدون عليها مما يعني ان الوسطية رفعة وتشريف من خصائصه عدم الدخول والإشتراك في الخلافات والخصومات التي تحدث بين الفرق المختلفة لأن المسلمين إختاروا الحق والهدى فما عداهم يكون على ضلالة ولو كانت هذه الضلالة على مراتب تشكيكية متفاوتة، فالكافر الوثني أشد من غيره ضلالة.

ونعت المسلمين بالشهداء يعني أهليتهم للشهادة وإتصافهم بأمور وشروط لا بد من إعتبارها في الشاهد لاسيما وأن الشهادة في الآية أرقى مراتب الشهادة وأكثرها أهمية وأشرفها وأسنها فما من عبد إلا ويرجو ان يكون شاهداً يوم القيامة لما فيها من التزكية والإكرام، ولكن تلك المرتبة الرفيعة لم يفز بها إلا الأنبياء والمسلمون، وهذه النعمة يجب أن يلتفت إليها

في الدراسات العقائدية والكلامية والأخلاقية فعلى كل مسلم أن يصلح نفسه للشهادة يوم القيامة بالعمل الصالح.

وتدل الآية على إمتلاك المسلمين للبصيرة وقدرتهم على التمييز بين الحق والباطل، وتعني الشهادة الحضور والشهود، (وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد سئل عن الشهادة أنه قال: هل ترى الشمس؟ على مثلها فاشهد أو دع)^(١).

وتبين الآية خلو ساحة المسلمين من موانع قبول الشهادة ومنها:

الأول : درأ التهمة.

الثاني : جر النفع.

الثالث : دفع الضرر عن النفس.

الرابع : العداوة الدنيوية.

والمسلمون ليسوا متبرعين بالشهادة بل الله عز وجل هو الذي يكرمهم ويأذن لهم بالشهادة، قال تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

ويعتبر في الشهادة حصول اليقين والقطع وعدم الشك مما يعني إستبانة الأمور للمسلمين ومعرفتهم أعمال الملل الأخرى، وتلك المعرفة لم تتأتى إلا بالقرآن وما فيه من الدروس والعبر والأمثال.

وتبين الآية فرداً من وجوه تغيير القبلة مما يتعلق بالإمثال وذكره هنا جاء للبيان والتعليل وحث المسلمين على حسن الطاعة إذ أن الآية لم تجعل برزخاً بين الطاعة والمعصية، ومن يجحد بالقبلة يبقى على حاله من التوجه الى القبلة المنسوخة، ولكن الآية تنعته بالإرتداد، مما يدل على حرمة البقاء على حال القبلة السابقة وأنه نوع إرتداد.

(١) البيهقي / شعب الإيمان ٤٥٥/٧.

(٢) سورة آل عمران ٦٤.

ويمكن أن تستقرأ قاعدة كلية من هذه الآية وهي أن عدم الإمتثال للتغيير والنسخ النازل من السماء بالقرآن والوحي إرتداد ونكوص، وإن كانت معاني (ينقلب على عقبيه) أعم من موضوع القبلة ومن صفات المسلم إذا جاءه الأمر بالتغيير الإمتثال والإستجابة للأمر الإلهي لذلك لم ترد الآية إلا بصفة (الرسول) لتوكيد أن النبي لا يأمرهم إلا بما يأتيه من الوحي والتنزيل. ومن مفاهيم الآية مدح المسلمين على مبادرتهم للإستجابة، ومنحهم صفة الهداية وأن الإمتثال في القبلة تم بتوفيق ولطف من الله تعالى، فهو الذي أعانهم على حسن الإستجابة التي تتصف بالفورية والإستدامة وإجتنب الإشكال، والإعراض عن الشبهات التي أثارها السفهاء والمجاهدون.

وتحث الآية على الصالحات والتزام الطاعة لله ورسوله لما فيها من الإخبار عن الثواب وجعل الحياة الدنيا مناسبة لإغتنام الصالحات وإظهار معالم العبودية ونيل الثواب.

وجاءت خاتمة الآية بلفظ (الناس) مما يعني الإطلاق وشمول رحمة الله تعالى للناس جميعاً في نزول الأحكام سواء المطلق والمقيد، او العام والخاص، او الناسخ والمنسوخ.

ولفظ الناس أعم من المسلمين، وبينهما عموم وخصوص مطلق، فكل مسلم هو انسان وليس العكس، ففي عموم الآية توكيد لعظيم فضل الله تعالى وأن رحمته سبحانه تتغشى الناس جميعاً من إهتدى، ومن إرتد، ومن أثار الشبهات على أمر مولوي وجوي، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ

رَحِيمٌ﴾.

الآية لطف

ليس من حصر لنعم الله عز وجل على الناس عموماً وعلى المسلمين خاصة، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١)، وجاءت آية البحث هبة وثواباً للمسلمين لإمتثالهم لأمر الله بالتحول إلى البيت الحرام وإتخاذه قبلة لهم في عباداتهم بأن جعلهم الله عز وجل شهداء على الناس، وتحتمل الشهادة في الآخرة وجوهاً:

الأول : شهادة المسلمين على الناس.

الثاني : شهادة الناس على المسلمين.

الثالث : شهادة الناس بعضهم على بعض.

الرابع : شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين بين الناس في الآخرة لأن الأفعال كلها مدونة من قبل الملائكة وحاضرة عند الله قال سبحانه ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^(٢).

والصحيح هو الأول والرابع والخامس، إذ يشهد المسلمون على أمم الأنبياء وفيه غاية الإكرام للمسلمين، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لِيِنَّكَ وَسَعْدِيكَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ هَلْ بَلَغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيَقَالُ لِأُمَّتِهِ هَلْ بَلَغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ (وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) ^(٣).

(١) سورة إبراهيم ٣٤.

(٢) سورة ق ٢١.

(٣) سورة ق ٢١.

ويدل الحديث على أن الآية لطف ورحمة بالمسلمين وإتباع الأنبياء يوم القيامة، وهل ترقى الشهادة في المقام إلى مرتبة الشفاعة الجواب لا، للتباين الموضوعي بينهما.

إفادات الآية

لا يشهد يوم القيامة إلا الذي يتصف بالعدالة، وجاء القرآن بشهادة المسلمين على الناس لإتصافهم بالعدالة تلك الخصلة التي فازوا بها بفيض وفضل من الله عز وجل كما يتجلى في آية البحث ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ فإن الله عز وجل أصلح المسلمين لهذه المنزلة، وفيه دعوة لهم للشكر والثناء على الله عز وجل على هذه النعمة العظيمة ذات الصبغة الدنيوية والأخروية الشرعية والعقلية، إذ تدل بالدلالة التضمنية على تنزه المسلمين عن الغلو بالأنبياء وعو التفريط بالأحكام والسنن. وتبين الآية السمو الأخلاقي الذي بلغه المسلمون بلحاظ أنه نوع شرط وطريق للعدالة وأداء الشهادة على أتم وجه وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، من جهات:

الأولى : صيرورة المسلمين أمة وسطاً من مصاديق (خير أمة).

الثانية : إن الله عز وجل هو الذي أخرج المسلمين للناس وأصلحهم لمنزلة العدل والوسط.

الثالثة : من وجوه خروج المسلمين للناس شهادتهم عليهم.

الرابعة : من خصائص (خير أمة) شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم بالإيمان والتسليم بالتحول إلى البيت الحرام قبله لهم في عباداتهم.

الخامسة : يدل قوله تعالى (جعلناكم أمة وسطاً) على أن لفظ كان في (كنتم خير أمة) لا ينحصر بالزمن الماضي بل يشمل الأزمنة الطولية الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل من الجعل والتصيير.

ومن خصائص العدل عدم جعله موضوعية لغضبه في الشهادة، وتجافيه عن الهوى وأسباب الغواية، ويأتي الوسط بمعنى العدل.

وتدعو الآية إلى الإسلام والفوز بالمرتبة الرفيعة التي عليها المسلمون من الحصانة من الشطط ومن ظلم النفس والغير، وحضورهم يوم القيامة في موازن الميزان والحكم بين الناس لتكون شهادتهم على الناس من عمومات قوله تعالى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

بلحاظ التباين بين الشاهد والمتهم، إلا أن هذا لا يعني أن المسلمين لا يقفون للحساب والآية من مصاديق قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِبَيِّنَةٍ﴾ فسوف يحاسب حساباً يسيراً^(٢)، فجاءت آية البحث بذكر حقيقة وهي شهادة النبي على المسلمين، ومن الإعجاز إتصال هذه الشهادة بصيرورة المسلمين أمة وسطاً مما يدل على أن شهادته صلى الله عليه وآله وسلم لهم ولمنفعتهم وفيها تأكيد للمنزلة التي جعلهم الله عز وجل بها من الوسطية والعدل والإستقامة وعدم الزيغ أو الميل عن جادة الهدى.

(١) سورة البقرة ٦٢.

(٢) سورة الإنشقاق ٧-٨.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت هذه الآية بأداة التشبيه والإشارة إلى فضل الله عز وجل على المسلمين والناس وهو إجتباء المسلمين لمرتبة الأمة الوسط، ومن إعجاز القرآن أنه لم ترد تسمية أمة أو جماعة أو فرد إلا المسلمين على نحو العموم الإستغراقي إذ أن الخطاب في الآية إنحلالي يستغرق وينسب على كل مسلم. ومن بديع صنع الله وعظيم قدرته جعل أمة عظيمة ذات شأن أصلحها له ووظيفة متحدة فكل فرد من المسلمين ذكراً أو أنثى هو شاهد على الناس مع إختلاف مللهم وأجناسهم، ليكون أهل الأرض يوم القيامة على قسمين لا ثالث لهما:

الأول : الشهداء.

الثاني : المشهود عليهم.

وجاء لفظ (الرسول) في الآية بالآلف واللام العهدية التي تنصرف إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع ورودها بذات الصيغة لأنبياء آخرين كما في موسى عليه السلام ﴿فَقَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ﴾^(١)، وورد في عيسى عليه السلام، وجاء في الملك ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾^(٢)، وورد بالشخص المرسل من الملك إلى النبي يوسف عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾^(٣)، وأكثر ما ورد لفظ الرسول في القرآن للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويمكن تشريع قاعدة كلية وهي إذا ورد لفظ الرسول على نحو الإطلاق والخالٍ من القرائن فإنه ينصرف إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة المزمّل ١٥.

(٢) سورة طه ٩٦.

(٣) سورة يوسف ٥٠.

وكذا وروده مع القرآن والأمارات التي تدل على إرادته ويدل عليه قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(١).

وجاء لفظ (الرسول) مرتين في هذه الآية، وكذا في خمس آيات ثلاث منها في النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وواحدة فيه وعامة الأنبياء، وواحدة فيه وفي عيسى عليه السلام وخطابه لبني إسرائيل ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٢)، وجاء ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آية البحث على

قسمين:

الأول : في الآخرة بالشهادة على المسلمين.

الثاني : في الدنيا بإتباع المسلمين له في القبلة والتوجه إلى المسجد الحرام. وقد قدمت الآية موضوع الشهادة وهو خاص بالآخرة على إتباع القبلة، وفيه مسائل:

الأولى : ماهية العطف بين هذه الآية والآية السابقة.

الثانية : جاءت الآية لبيان فضل الله على المسلمين بأن جعلهم الأمة الوسط بين الناس السالمة من الغلو والظلم، والممتنعة عن الإفراط والتفريط.

الثالثة : الإخبار عن كون إتباع المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إتجاه القبلة وتحويلها إنما هو من خصائص الأمة الوسط لتذكر الآية الأصل ثم الفرع.

الرابعة : بعث السكينة والأمن في نفوس المسلمين بأن تبدأ الآية بالبشارة لهم بالشهادة على الناس، وما تدل عليه من الإقتراب من الجنة واللبث الدائم فيها.

(١) سورة النساء ٤١.

(٢) سورة الصف ٦.

الخامسة : جعل أولى القبليتين قد نسخ وتوجه المسلمون إلى الكعبة، أما جعلهم أمة وسطاً فهو باق إلى يوم القيامة، فقدم الجعل الدائم على المنصرم.

السادسة : التحول في القبلة إمتحان وإختبار فرزق الله المسلمين رتبة الأمة الوسط والعدل ومرتبة الصلاح ثم أمرهم بالتحول فجاء منهم الإمتثال سريعاً، وليس ثمة فترة أو وقت فريضة صلاة يومية بين نزول آية القبلة.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : الثناء على المسلمين بالرفعة وعظيم المنزلة بين أهل الأرض بجعلهم أمة وسطاً.

الثانية : لا تستطيع أمة الفوز بمنزلة سامية بين أهل الملل والنحل إلا بفضل ولطف ومدد من الله عز وجل لذا قالت الآية (وكذلك جعلناكم).

الثالثة : دعوة المسلمين لشكر الله تعالى على فوزهم بنعمة الأمة الوسط، وفي الدنيا تكون الجائزة والمرتبة الأولى دورية بلحاظ الإبداع وسنخية الفن وقد تعود للأول بعد سنوات أو لا تعود، أو يكون غير موجود أو أنه فاقد للشرائط.

أما رحمة الله فهي دائمة لأنه تعالى إذا أنعم بنعمة فإنه سبحانه أكرم من أن يرفعها فالمسلمون هم الأمة العدل وأهل الخير والصلاح في كل زمان، فإن قلت قد أكرم الله بني إسرائيل بقوله تعالى ﴿وَأَنبِئْ فَضَلَكُمُ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١)، والجواب نسخ الإسلام الشرائع ولم ينسخ التفضيل ولكنه جعله بإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتصديق به، فلذا ترى أكثر الأمم تخاطب في القرآن بعد المسلمين هم بنو إسرائيل، وفيه ترغيب لهم ودعوة لتعاهد التفضيل بالإسلام.

وهو من الأسرار إخبار القرآن عن تفضيلهم، ترى بماذا يكون شكر المسلمين لله، الجواب ليس من حصر لمصاديق هذا الشكر القولية والفعلية، الشخصية والعامة، ويتجلى بأداء العبادات والفرائض، ومنها التحول في القبلة إلى البيت الحرام حالما نزلت آية نسخ القبلة، قال تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾^(١).

الرابعة : بيان منافع الأمة الوسط وما تترشح عنها من البركات عليها وعلى الناس، إذ صار المسلمون شهداء على الناس وكأن الآية تقول بشرط العدالة للشهادة على الناس، فأصلح الله عز وجل المسلمين لهذه الرتبة والشرط.

الخامسة : تأكيد مقام النبوة وحاجة الناس جميعاً والمسلمين خاصة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالأمة الوسط ليست مطلقة في فعلها وشهادتها، فالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما آتاه الله من الوحي والمنزلة في الدنيا والآخرة هو الشهيد على الأمة الوسط وهم المسلمون، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٢)، فمن المقام المحمود له الشهادة على الأمة التي أراد الله لها الشهادة على الناس، (وعن ابن عباس: هو الشفاعة)^(٣)، وهي إحدى مصاديقه.

السادسة : لا بد من ملازمة وصلة في الموضوع والحكم بين صيرورة المسلمين الأمة الوسط والعدل وبين تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وكان منزلة الأمة العدل لأتمم إلا باستقبال ما كان الأنبياء يستقبلونه

(١) الآية ١٤٤.

(٢) سورة الإسراء ٧٩.

(٣) الدر المنثور ٦/٣٠٧.

في صلاتهم ألا وهو البيت الحرام، ليخرج من إستحقاقها من يمتنع عن الإمتثال في المقام.

ومن الإعجاز في الآية إبتدائها الآية بالخطاب للمسلمين وبعده جاء الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعله وموضوع تحويل القبلة. السابعة : الترغيب بطاعة الله في أداء الصلاة وبيان أن هذه الطاعة لا تتحقق إلا بهداية وتوفيق من الله عز وجل لقوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

الثامنة : بيان حقائق وإقتباس علوم بخصوص تحويل القبلة منها: الأول : تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام بأمر من الله عز وجل.

الثاني : تأهيل المسلمين لمرتبة الإمتثال لتحويل القبلة يجعلهم الأمة الوسط.

الثالث : شهادة المسلمين على الناس في تحويل القبلة إمتثالاً وإمتناعاً.

الرابع : الثواب العظيم للمسلمين على إستقبالهم البيت الحرام .

التفسير

ويمكن تسمية هذه الآيات العشرة ١٤٢-١٥١ آيات القبلة فكما جاءت خمس آيات في فريضة الصيام وتعيينها موضوعاً وزماناً وحكماً وموارد الإستثناء منها من المرض والسفر^(١)، فإن هذه الآيات بينت نسخ القبلة وتعيين جهتها وجاءت بعدها آيتان متعاقبتان في تثبيت قبلة المسلمين على نحو التأييد قال تعالى ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢)، وحتى في فريضة الصيام كان هناك صيام لأيام مخصوصة فنسخها صيام شهر رمضان

(١)أنظر سورة البقرة ١٨٣-١٨٧.

(٢)الآية ١٤٨.

ليكون من إعجاز القرآن مجيء الفريضة والحكم في بضع آيات متصلة ومتجاورة وبينها ترابط في الموضوع بما يحدد معالم الفريضة ويمنع من الخلاف والخصومة فيها وما يكون سبباً في تضييعها فقد تختلف أمة من الأمم في حكم مخصوص ويتسع الخلاف بينهم فجاءت الآيات المتجاورة في بيان حكم الفريضة لمنع أصل هذا الخلاف كما يدل عليه واقع وحال المسلمين فمن فضل الله على المسلمين أن يأمرهم بشئ ويمدهم بأسباب الأمثال، قال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١)، وجاءت آيات القبلة من مصاديق القبلة من مصاديق هذا الإعتصام والتمسك، وهي واقية من الفرقة والنزاع فيها.

فمع مرور أكثر من ألف وأربعمائة ألف سنة على البعثة النبوية ترى المسلمين يؤدون الفرائض بذات الكيفية والشرائط التي أداها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

ترى هل من صلة بين تحويل القبلة إلى البيت الحرام وأداء فريضة الحج، وقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٣)، الجواب نعم من وجوه:

الأول : كل من إستقبال البيت الحرام، وفريضة الحج واجب وفريضة من عند الله.

الثاني : تحويل القبلة مقدمة وتثبيت لفريضة الحج.

الثالث : جاء الأمر باستقبال البيت مطلقاً وعماماً غير مقيد بالإستطاعة

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ٩٧.

لأنه شرط لعبادة بدنية هي الصلاة، أما الحج فمقيد بالإستطاعة.

الرابع : بين الحج وإستقبال البيت عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء من جهات:

الأولى : البيت الحرام موضوع كل من الحكمين.

الثانية : كل منهما فيه قرآن.

الثالثة : كان الإمام في الإستقبال والحج هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: خذوا عني مناسككم).

الرابعة : كل من الحج والإستقبال من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾^(١).

أما مادة الإفتراق فمن وجوه:

الأول : إستقبال البيت الحرام كل يوم خمس مرات، والحج في موسم مخصوص، قال تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾^(٢).

الثاني : إستقبال البيت فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وحج البيت فرض المستطيع القادر عليه، وعن ابن مسعود في قوله تعالى ﴿لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٣) قيل يا رسول الله ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة^(٤).

الثالث : في الحج أداء مناسك مع الإستقبال في الصلاة، أما النسبة للإستقبال في الأمصار فإنه خاص بأداء الصلاة وبعض الأعمال كالتذكية وإستحضار ساعة الموت.

(١) سورة آل عمران ٩٦.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

(٣) سورة آل عمران ٩٧.

(٤) الدر المنثور ٢ / ٣٩١.

الرابع : من شرائط مناسك الحج أداؤها في البلد الحرام في مكة ومنى وعرفات، أما إستقبال البيت في الصلاة فانه شرط في الصلاة للقريب والبعيد ولأهل المغرب والمشرق.

عن حبان بن أبي جبلة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا جمع الله عباده يوم القيامة كان أول من يدعى إسماعيل عليه السلام فيقول له ربه : ما فعلت في عهدي هل بلغت عهدي ؟ فيقول : نعم قد بلغت جبريل فيدعى جبريل عليه السلام فيقول : هل بلغك إسماعيل عهدي ؟ فيقول : نعم يا رب قد بلغني فيخلى عن إسماعيل ويقال لجبريل هل بلغت عهدي ؟ فيقول جبريل : نعم قد بلغت الرسل فيدعي الرسل فيقول : هل بلغكم جبريل عهدي ؟ فيقولون : نعم فيخلى عن جبريل ثم يقال للرسل هل بلغكم عهدي؟

فيقولون : قد بلغنا أمنا فتدعى الأمم فيقال لهم : هل بلغكم الرسل عهدي ؟ فمنهم المصدق ومنهم المكذب فتقول الرسل : إن لنا عليهم شهودا يشهدون أن قد بلغنا مع شهادتك فيقول : من يشهد لكم ؟ فيقولون محمد و أمته فتدعى أمة محمد فيقول : تشهدون أن رسلي هؤلاء قد بلغوا عهدي إلى من أرسلوا إليه ؟ فيقولون : نعم رب شهدنا أن قد بلغوا فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا فيقول لهم الرب : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولا وأنزلت إلينا عهدك و كتابك وقصصك علينا إنهم قد بلغوا فشهدنا بما عهدت إلينا فيقول الرب : صدقوا^(١).

ترى ما هي مادة وموضوع شهادة المسلمين على الناس ، الجواب من وجوه:

الأول : آيات القرآن الكريم، وما فيها من قصص الأنبياء والأمم

(١)التذكرة/ القرطبي ١/٣٣٣.

السابقة، قال تعالى ﴿نَحْنُ نُقْصِدُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١).

ليكون من مصاديق الحسن والأحسن في الآية أعلاه أنها موضوع الشهادة يوم القيامة لما فيها من البيان والتفصيل عن جهاد الأنبياء وأخبار الأمم.

الثاني : ذكر القرآن للوظائف العبادية للناس ووجوب تصديقهم بالنبوة والتنزيل، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(٢).

الثالث : السنة القولية والفعلية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما فيها من الإخبار عن أحوال الأمم.

الرابع : سيرة ومنهج المسلمين في العبادة ومقارنة أعمال الناس بلحاظ الإيمان والتقوى.

وإبتدأت الآية بأداة التشبيه (كذلك) وفيه وجوه:

الأول : النظر إلى نظم الآيات وإيجاد وجوه الصلة والشبه بين موضوع الأمة الوسط وما في الآية أو الآيات السابقة.

الثاني : لما أختتمت الآية السابقة بالإخبار عن هداية الله من يشاء إلى طريق الحق والهدى، أخبرت هذه الآية عن جعل المسلمين أمة وسطاً لتأكيد حقيقة وهي أن المسلمين هداهم الله إلى صراط مستقيم وأنعم عليهم بأن صيرهم أمة وسطاً.

وجاء الخطاب الإلهي للناس جميعاً بوجوب عبادته، وهذه العبادة هي جادة الحق والهدى، قال تعالى ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٣)، أما نعت الأمة الوسط فلم يرد في القرآن إلا للمسلمين وهو من عمومات ﴿كُنْتُمْ

(١) سورة يوسف ٣.

(٢) سورة الذريات ٥٦.

(٣) سورة يس ٦١.

خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١﴾.

الثالث : المراد من التشبيه تعدد النعم الإلهية على المسلمين وذكر نعمة الأمة الوسط بعد نعمة إستقبال البيت الحرام.

الرابع : إبتدأت الآية بحرف العطف الواو، والمراد أنه مع نعمة الهداية فإن الله أنعم على المسلمين بجعلهم أمة وسطاً.

قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

إبتدأت الآية بحرف العطف (الواو) مما يدل على إتصال موضوع هذه الآية بالآية السابقة، وفيه وجوه:

الأول : إتحاد موضوع القبلة في الآيتين.

الثاني : الرد على الذين أنكروا توجه المسلمين لإستقبال البيت الحرام، فمن خصال الأمة الوسط التحول إلى البيت الحرام في قبلتهم.

الثالث : مواساة المسلمين ، وبعث الصبر في نفوسهم وتثبيت أقدامهم في منازل الإيمان، وإعانتهم في الإعراض عن قول السفهاء.

الرابع : من إعجاز لغة العطف في هذه الآية وتداخل موضوعها مع الآية السابقة منع صدور التعدي من أعداء الإسلام بخصوص القبلة وعدم التمادي في الإنكار.

الخامس : لما أختتمت الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

الخطاب في الآية للمسلمين لبيان عظيم مسؤولياتهم في الأرض والتشريف الإلهي لهم وهو تأديب وتعليم وتزكية وإعداد للخلافة في الأرض ومنع الإفراط والتفريط في العقائد.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة يونس ٢٥.

في الآية مسائل:

الأولى : تدل الآية على تكامل الشريعة الإسلامية وإبتعاد أحكامها عما هو مذموم من صيغ الإفراط والتفريط ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(١).

الثانية : جعل القرآن والنبوة من المسلمين أمة تتفوق على غيرها عقائدياً وأخلاقياً واجتماعياً، وتعتمد العقل والبصيرة في الأفعال، وعندها إمام حاضر يقودها إلى الهدى.

الثالثة : في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أنه سئل عن ﴿وَسَطًا﴾ قال: عدلاً أي لا يميل إلى جانب دون جانب ولا ينحاز الى غير الحق.

الرابعة : تحويل القبلة مصداق من مصاديق التوفيق والرشاد والعدل عند المسلمين.

الخامسة : الكاف تفيد التشبيه وتطابق الأفراد المقصودة كما لو قلت هي كتلك، وقد ترد (كذلك) بمعنى أيضاً، ويبقى اسم الإشارة على هيئة الأفراد والتذكير فيقول: أديت الصلاة والزكاة كذلك، ولا تقول كتلك.

السادسة : الأصل في الكاف التشبيه، فما المقصود من التشبيه في الآية، الظاهر أن المشبه به التحول إلى القبلة الجديدة وعموم الهداية، فالتوجه إلى البيت الحرام لم يكن مجرداً بل إنه جزء من نعم متتالية.

السابعة : هذه الآية هي الوحيدة التي تصف المسلمين ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ ولم يأت هذا التشريف لغيرهم من الأمم الملل، وبالإمكان معرفة بعض جوانب هذا النعت بلحاظ اللام في ﴿لِتَكُونُوا﴾ وهي لام التعليل وأيضاً تصلح للصيرورة والعاقبة.

الثامنة : الآية مدح وثناء على المسلمين وتنزيه لأحكام الإسلام

ومناهجه.

التاسعة : في الآية إخبار سماوي عن المنزلة العظيمة التي نالها المسلمون من بين الأمم والملل.

العاشرة : من معاني الوسط البعد المكاني، وأنت ترى خارطة العالم وكيف ان المسلمين منتشرون في وسطها إلى جانب وجودهم في مختلف البلدان لأنه سبحانه يعطي بالأوفى ويسر أسباب النعم وأستدامتها.

الحادية عشرة : الآية دعوة سماوية للمسلمين لتحمل مسؤولياتهم العامة في حث جميع الناس على الهداية والرشاد .

وتبين الآية موضوعية التحلي بأخلاق الإسلام ، والتقيد بأحكامه والإلتزام بفرائضه في موازين الدعوة إلى الله ، قال تعالى ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾^(١).

الثانية عشرة : لا ينحصر الخطاب في الآية وموضوعها بالموجودين من المسلمين أيام التنزيل، بل يشمل الموجود والمعدوم الذي لم يولد منهم بعد لعمومات الخطاب القرآني لتبدو بجلاء عظمة هذا التشريف.

إبتدأت الآية بالخطاب ذي صبغة البشارة للمسلمين بأن الله عز وجل جعلهم الأمة العدل والوسط ، وفي هذه البشارة وجوه:

الأول : إرادة المسلمين على نحو التعيين، وأن البشارة خاصة بهم.
الثاني : شمول البشارة لأهل الكتاب بلحاظ أن إختيار المسلمين لهذه المرتبة ورحمة بأهل الكتاب كما إستبشر المسلمون بنصر الروم كأهل كتاب على كسرى وجنوده، قال تعالى ﴿وَيَوْمَذِيْقَرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ♦ ﴿بَنَصْرِ اللَّهِ﴾^(٢).

الثالث : عدم خلو الأرض من أمة وسط تتصف بالصلاح والعدل

(١)سورة آل عمران ١٠٤.

(٢)سورة الروم ٤-٥.

والتوجه إلى البيت الحرام في صلاتها.

الرابع : بعث السكينة في نفوس الناس جميعاً بوجود أمة عدل بين ظهرائهم وهو من أسرار تسمية المسلمين أمة وسطاً، أي أن الله عز وجل أرادها قرية من الناس جميعاً وسبباً في إصلاحهم وهدايتهم، ثم الشهادة عليهم، فصحيح أن معنى الأمة الوسط العدل إلا أن اللفظ يحمل أيضاً على معناه اللغوي الظاهر، ومن علامات الحقيقة التبادر، ومنه في المقام أن المسلمين أمة قرية من أمم أهل الأرض ليدل بالدلالة التضمنية على إطلاع أهل الأرض على عقائد الإسلام ومعرفتهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن.

قوله تعالى ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

تدل الآية على النظام التكويني والتشريعي في الأرض وهي شهادة وزعامة بعض الأمم لأهل الأرض من خلال منظار وملاك عقائدي وتلك الشهادة لا تنحصر بالآخرة بل تشمل الحياة الدنيا أيضاً، لذا ترى القرآن يستعرض الأديان والملل الأخرى ويبين ما فيها ويذكر مساوئ الأمم الأخرى التي تتصدى للإسلام.

وعند دوران الأمر بين الإطلاق والتقييد والشك في إرادة القيد وإحتمال وجوده فتعتبر أصالة الإطلاق، وهي حجة على المتكلم والسامع ولكن بخصوص كلام الخالق نقول هي حجة على القارئ والسامع والناس جميعاً، لأن الباري عز وجل منزّه عن القبيح و﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١).

ولتعلق الموضوع بتكاليف العباد، أي أن الحجية لا تكون إلا على طرف واحد وهم العباد.

وعن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (مما أعطى الله امتي وفضلهم به على سائر الامم أعطاهم ثلاث خصال لم

يعطها إلا نبي وذلك أن الله تبارك وتعالى كان إذا بعث نبيا قال له اجتهد في دينك ولا حرج عليك وأن الله تبارك وتعالى أعطى امتي ذلك حيث يقول وما جعل عليكم في الدين من حرج يقول من ضيق قال وكان إذا بعث نبيا جعله شهيدا على قومه وأن الله تبارك وتعالى جعل امتي شهداء على الخلق حيث يقول ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس.

ومنهم من ربط بين الوسط في الآية وما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم بأن خير الأمور أوسطها، والمعنى صحيح ولكن التباين بلحاظ الماهية والجنس والموضوع، فالوسط حينما يتعلق بالإجسام والأعداد يعني الفصل والوسط بين الأشياء.

وحينما يتعلق بالأمور المعنوية والمجردات يعني العدل والاستقامة ومدار الملاك.

وتتضمن الآية إكراماً للمسلمين لما تدل عليه في مفهومها من أهليتهم لإقامة شعائر الله في الأرض فيرجع لهم التالي، ويلحق بهم المتخلف وتظهر عيوب ومساوئ الكفرة وأهل الضلالة بقدر مخالفتهم للمسلمين.

وفي الشهادة وجوه:

الأول : تحملها في الدنيا وأداؤها في الآخرة.

الثاني : تحملها في الدنيا وأداؤها في الدنيا والآخرة.

الثالث : موضوع الشهادة ، وهل ينحصر بالحواس أم يتعدى الى

غيرها.

الظاهر ان الشهادة عامة ومطلقة ولا ينحصر اداؤها بالآخرة، بل انها أعم من ان تتعلق بالشهادة بمعناها الإصطلاحي الفقهي، ولها معان أخرى، فهي الإستقامة والكمال العقائدي الذي تعرض عليه الأفكار والأفعال جميعاً فيبدو صلاحها أو فسادها بالمقارنة وبالعرض على مبادئ الاسلام.

ويستشهد في علم الأصول بأحاديث العرض منها ما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم: ان على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه^(١)، وفي الخبر عنه عليه السلام قال: (كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)^(٢)، وغيره من الاحاديث التي تأمر بعرض السنة على الكتاب مما يعني في مفهومه عدم حصول التحريف في القرآن، وان السنة لا تنسخ القرآن اذ انه لا يصح عقلاً وشرعاً العرض على ما تعدت عليه يد التحريف وما كان منسوخاً، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣).

ويمكن تسمية هذه الآية بآية (العرض العقائدي)، أي تعرض الملل والمبادئ والافعال على الاسلام والقرآن، ويقوم المسلمون بالبيان للناس ما يجب عليهم وما يلزمهم تركه واجتنابه، فما خالفهما لا يؤخذ به لتكون مبادئ الإسلام حجة على الناس، فلا غرابة ان ترى المسلمين واحكام الشريعة الاسلامية ظاهرة في جميع البلدان، وانها تبلغ أسماع الناس لإتمام الحجة وتحقق أسباب الشهادة ومن أفراد العرض، عرض القبلة وجهتها. إنها الريادة العقائدية والمنار الروحي والزعامة الدينية للقرآن ومبادئ الإسلام فلا بد أن تقترن بالعزة والمنعة، فالآية تدل بالدلالة الالتزامية على قوة الاسلام وقدرته على صد التعدي والإفتاء الموجه إليه.

وتتضمن الشهادة الواردة في الآية معنى الشهادة بالمفهوم الإصطلاحي ليؤدها المسلمون يوم القيامة بما رزقهم الله من الإستقامة في الدنيا وإقامتهم الحجة على الغير سواء كان بالأسوة والدعوة الصامتة أو بالدعوة العلنية ومنها إقامة الفرائض، وحتى الأذان الذي يتكرر كل يوم يعتبر من أفراد ومصاديق تلك الشهادة.

(١) البحار ٢/ ٢٢٧.

(٢) الكافي الكليني ١/ ٩٢.

(٣) سورة الحجر ٩.

ويمكن إستقراء هذه المعاني الجديدة والمتشعبة للشهادة في الآية من شهادة الرسول على الأمة، وفي الآخرة سيكون للمسلمين شفعاً بعد ان كان في الدنيا إماماً، مع القول بالتباين الموضوعي بين الشهادة والشفاعة ، فالنبي يشهد للمسلمين جميعاً بإتباعه وتصديقه ويشفع لصاحب المعصية منهم. وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: إدخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي^(١).

فمن مصاديق شهادته صلى الله عليه وآله وسلم الأسوة والقُدوة والرياسة العامة في أمور الدين والدنيا، وجعل المسلمين شهداء على غيرهم تأهيل يتضمن الدلالة على وجود مضامين أخرى للشهادة عليهم، ويعتبر إيمان المسلمين وجماعتهم بينة وحجة على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ الرسالة عن الله عز وجل.

إن التزام المسلمين بأحكام الشريعة وإتيان الأفعال العبادية عن تسليم وإقرار وخضوع تام شاهد وبينة وحجة يومية على الناس جميعاً، ودليل على صدق سرائرهم وسلامة أعمالهم، وفيه تأكيد عملي لسماوية ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله عز وجل.

لقد أناطت الآية بالمسلمين مسؤولية تعاهد أحكام الشريعة في الأرض وجاءت لتخبرهم بأن مسؤوليتهم مركبة من تعاهد الشريعة وحفظ الملة والنوع وإقامة الحجة على الناس، ومن مصاديقها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمراتبه المتعددة بالإضافة إلى صيغ الجهاد وفق الممكن وقاعدة الميسور.

والآية إعلان عن تولي المسلمين مسؤولية الأمانة في الأرض بتعاهد الإسلام وأحكامه ودعوة الناس بسيرتهم وتقيدهم بالفرائض إلى الإسلام، وفي الآية مدح للمسلمين لإختيارهم للشهادة على الأمم واشتراط

العدالة في الشاهد، فاهليتهم للشهادة تزكية لهم من عند الله ومن الناس يوم القيامة، اذ يحق للمدعى عليه ان يجرح الشاهد ويبين عدم عدالته وأهليته للشهادة، فاتخاذ المسلمين شهوداً يدل على قبول الناس جميعاً بشهادتهم وانهم يعترفون ويقرون بعدالة المسلمين وأهليتهم للشهادة على الأمم وما يتصفون به من الصدق والفضيلة.

وهل يمكن القول أن إختيار المسلمين للشهادة يعني عدم وقوفهم للحساب والمساءلة الحق ولو بخصوص ذلك الموطن وأوان الشهادة الجواب لا، لعمومات الحساب ، قال تعالى ﴿قُوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١)، وتفيد الآية شهادة الرسول عليهم، فيشهد المسلمون على الناس في إقامة الحجة عليهم، ويشهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإقامة المسلمين لشعائر الله وحسن إتباعهم له، من وجوه :

الأولى : الشهادة على الناس بتبليغهم ودعوتهم للإسلام والإعراض والصدود الذي واجهوهم به.

الثانية : تكذيب الأنبياء من قبل الشطر الأكبر من أمهم إذ يطالب الله الأنبياء بالشهود فيؤتى بالمسلمين ليشهدوا بما في كتاب الله وما جاء على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(٢).

الثالثة : الحرف (على) في قوله تعالى ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يفيد الإستعلاء مما يعني نيل المسلمين العزة والرفعة يوم القيامة وبلوغ الدرجات العلى.

الرابعة : تدل الآية بالدلالة الإلتزامية على حاجة الناس للمسلمين يوم

(١) سورة الصافات ٢٤.

(٢) سورة النجم ٤.

القيامة للشهادة بالحق ومدى تقيد الأمم بأحكام الرسالات السماوية، وتبين الآية موضوعية الشهادة ومقام الشاهد وقدرته على تحمل الشهادة في الدنيا وأدائها في الآخرة.

الخامسة : تنفي الآية شهادة الأمم الأخرى على المسلمين، والعقل يؤيد ذلك لأن المسلمين آخر الأمم وشريعتهم أتم الشرائع. وفي الحديث عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها^(١).

وتبين الآية وعظيم قدرة الله في جعل الناس أمم وتفضيل بعضها على بعض، ورزق المسلمين ما يصلحهم لأمر الدين والدنيا ويجعلهم أئمة وأسوة للناس، إذ أن خصائص ووظائف الأمة الوسط أعم من الشهادة على الناس، وإثبات شيء لشيء لا يدل على نفي غيره عنه ، فالوسط هو الإستقامة في الدنيا، وفعل الصالحات، وفيه ترغيب للناس بالإسلام، وتتجلى في المقام أفضلية وفضل الشاهد والأمة التي تعدى بإكرام للشهادة بلحاظ أن شهادتها من الثواب لها على حسن سمتها ومنه الإمثال في تحويل القبله . سواء كان المشهود عليه فاضلا أو لا ، سعيدا أو شقيا .

فكيف وأن الله عز وجل هو الذي يصلح المسلمين للشهادة بالتقوى والعمل الصالح، وفيه نكتة وهي أنه ليس للناس أن يحتجوا على شهادة المسلمين عليهم، أو يحاولوا الجرح والطعن بشهادتهم ويمكن إستقراء حقيقة من الآية وهي أن المؤمنين لهم عمل يوم القيامة وهو دعوتهم للشهادة على الناس في أفعالهم ليكون إكرام المسلمين متعدداً من وجوه:

الأول : شهادة المسلمين على الناس.

الثاني : إشتراك المسلمين مع الملائكة في شهادة يوم القيامة.

الثالث : تفقه المسلمين في الدين ، بما يجعلهم يميزون العمل الصالح وما

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٣٣.

هو ضده من القبيح والمنكر ، ويمدحون الحسنة ويذمون السيئة.

الرابع : إطلاع المسلمين على أعمال الأمم الأمم الأخرى.

الخامس : شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين يوم القيامة.

السادس : إستماع الله عز وجل والملائكة والناس للمسلمين وهم يدلون بشهادتهم على الناس.

السابع : شهادة الأنبياء على أممهم ، وتضاف لها شهادة المسلمين لأنهم ورثة الأرض ، قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(١).

ومن خصائص الأمة الوسط الدعوة إلى الله ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٢) ، وأن الأمة الوسط قامت بالتبليغ وتعاهدت وتوارثت أجيالهم أداء الوظائف العبادية ، لتكون أهلية وحجة وفرداً من أفراد الشهادة وأنهم بذلوا وسعهم في الدعوة إلى الإسلام والحرب على الكفر والشرك ومفاهيم الضلالة.

وهل يشهد المسلمون على أنفسهم أم يكتفى بشهادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم الجواب هو الأول لإرادة الإطلاق من لفظ الناس وشموله بالمسلمين إنطباقاً .

وفي أحكام الشهادة يشترط أن يكون الشاهد عدلاً وجاءت آية البحث لتزكي المسلمين وتشهد لهم بالعدالة بما هم أمة ولا تقبل شهادة الشريك ومن له نصيب ولا شهادة السيد لعبده المأذون ، ولا شهادة الوصي فيما وصى به

(١) سورة النساء ٤١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

ولا شهادة من يريد دفع الضرر عن نفسه، أما يوم القيامة فتقبل الشهادة مطلقاً لأن الله عز وجل يعلم بالوقائع وهي حاضرة عنده، ويتعذر الكذب والإفتراء يوم القيامة، وتأتي الشهادة للحجة والبينة وتشارك أعضاء المشهود والمدعى عليه في الشهادة، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

وفي شهادة المسلمين على أنفسهم إلى جانب شهادتهم على غيرهم مسائل:

الأولى : إنها رشحة من رشحات فوزهم بمرتبة الأمة الوسط والعدل.
الثانية : يشهد المسلم بالإيمان والصلاة لذا تضمنت أكثر العبادات صبغة الأداء الجماعي، مثل الاجتماع في موسم الحج وعند أداء مناسكه، والإتحاد والتشابه في قول (ليكن اللهم ليكن، ليكن لا شريك لك ليكن) على نحو الوجوب، وإستحباب أداء الصلاة جماعة على نحو مؤكد وغيرها من موضوعات الشهادة.

الثالثة : البشارة للمسلمين بشهادة بعضهم لبعض، وإستحضار هذه الشهادة في الدنيا عند أداء العبادات والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتبين الآية حقيقة وهي عدم خلو الأرض من أمة وسط تتصف بالعدل والحكمة التي تتجلى بأداء المسلمين للفرائض والعبادات خصوصاً الوقوف بين يدي الله خمس مرات في اليوم، فإن إنقطعت النبوة يانتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى فإن الإمة الوسط باقية إلى يوم القيامة تدعو الناس للإيمان وهو من مصاديق، قوله تعالى ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

قال أبو إسحق الزجاج: جاء في التفسير أن أمم الأنبياء تكذب في الآخرة من أرسل إليهم فيجحدون أنبياءهم، هذا فيمن جحد في الدنيا منهم أمر الرسل، فتشهد أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصدق الأنبياء، وتشهد بتكذيبهم ويشهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذه بصدقهم^(١).

والآية أعم في شقيها، شهادة المسلمين، وشهادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقول الزجاج (وجاء في التفسير) على نحو الحكاية وعدم رفعه إلى النبي يدل على الورع والتحرز من القول في كتاب الله، لكنه يدل أيضاً على ضعف الخبر.

ونعت الآية النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالشاهد يدل على الصدق يوم القيامة وعدم الكذب وانتفائه عن المسلمين أيضاً في شهادتهم. وكما سأل الأعرابي النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم: (يا رسول الله هل الله يحاسبنا بنفسه ام الملائكة؟ فقال: بل الله نفسه، فقال: فزنا إذن، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: تفقه الإعرابي)^(٢).

إن تفضل الله تعالى يجعل النبي نفسه شهيداً علينا يوم القيامة رحمة منه سبحانه وبشارة، قال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) وتأتي الشهادة بمعنى الحضور والأمانة، وباستحضار شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة يكون موضوع شهادته التخفيف عن المسلمين بالتوسل إلى الله تعالى بسؤال العفو والمغفرة لهم وشمولهم بعفوه ورحمته تعالى، بالإضافة إلى شهادته صلى الله عليه وآله وسلم بنصرتهم وإتباعه وهذا من أهم أسباب العون يوم الفاقة.

(١) لسان العرب ٣/٢٤٢.

(٢) أنظر الكشف ١/٣١٧.

(٣) سورة التوبة ١٢٨.

قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ

نَقْلِبُ عَلَيْهِ﴾

في الآية دلالة على إرادة تحويل القبلة وأنها في علم الله ليست بدائمة إلى بيت المقدس وهذا مما يرجح إنتظار النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأمر بها، بتقريب ان الله عز وجل أخبره بذلك، وعمومات قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْلُ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١) والآية فضل من الباري عز وجل لدفع الوهم ومنع تأثير الإفتراء وتشكيك وتساؤل السفهاء.

ويمكن ان تنبثق من هذه الآية قاعدة قرآنية كلية وهي تضمن الحكم الإلهي للإختبار والإمتحان والإبتلاء، فالذي يرتد على عقبيه في مسألة القبلة يفتضح ويخزى وتتكشف حقيقته، وفي ذلك نفع عظيم للإسلام والمسلمين، أي ان إفتضاحه في مسألة القبلة خير من إرتداده فيما بعد وفي أوان الحاجة والمواجهة اذ يكون حينئذ خطراً وثغرة على الإسلام، ويسبب إرتداده نوع قنوط ويأس.

لقد أبطلت المسلمون بمسألة تحويل القبلة لتكون إمتحاناً أولياً ومناسبة للتزهد من النفاق.

وتعتبر عند الله تعالى جهاداً، لذا يمكن حمل إتباع الرسول في الآية وكذا الانقلاب والإرتداد على المعنى الأعم والأشمل غير المنحصر بموضوع القبلة، وهذا لا يمنع من المصداق الشخصي في الآية والقول بأن قوماً إرتدوا عن الإسلام لما حولت القبلة ولكن إثباته يحتاج إلى دليل، وإطلاق الآية كما يظهر لا يدل عليه ويكون من الشبهة المصداقية.

وعلى فرض حصول إرتداد على نحو القضية الشخصية والفردية فانه لا

يضر بإنصياع المسلمين التام وتقيدهم بحكم التحول النوعي إلى القبلة الجديدة، فلم يحدثنا التاريخ عن جماعة أو نفر من المسلمين أصرّوا على البقاء على القبلة المنسوخة ووود خبر غير مرفوع، فقد روى الفضال عن ابن جريج انه قال: بلغني أن أناساً من الذين أسلموا رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا^(١).

وابن جريج (٨٠-١٥٠) للهجرة رومي الأصل له مصنفات، ولد ومات في مكة والخبر ضعيف سنداً وجهة صدور، لأن كلمة بلغني نكرة ومهملة ولم ترفع ظاهراً إلى أحد الصحابة أو أهل البيت، وظاهر الآية ان الإستفهام الإنكاري ﴿مَا وَالَهُمْ﴾ صادر من غير المسلمين، وإرادة عموم المسلمين. وقال السدي: لما توجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو المسجد الحرام اختلف الناس .

فقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلة ثم تركوها. وقال المسلمون: لسنا نعلم حال اخواننا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس، وقال آخرون: اشتاق الى بلد ابيه ومولده، وقال المشركون: تحير في دينه^(٢).

وهذا القول لا يخرج عن منطوق الآية وتأويلها ويؤكد ان المسلمين استجابوا لأمر تحويل القبلة ورضوا بحكمها على نحو الإطلاق، وجماعة او جماعات وهم السفهاء اثاروا الشكوك وتساءلوا إستغراباً أو مكرأ. ولعل القول بارتداد بعض المسلمين مستقراً من قوله تعالى ﴿مَنْ يَتَقَلَّبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ ولكنها أعم في موضوعها من أن تتعلق بالقبلة والارتداد بل تشمل الكفار الذين يولون ادبارهم عند دعوتهم إلى الإسلام ورؤية الآيات، ومنها تحويل الإستقبال في الصلاة الى قبلة ابراهيم

(١) الدر المنثور ١/٢٨٧.

(٢) تفسير الرازي ٢/٣٩٧.

الذي يدل على عدم وجود البرزخية والوسطية بين الإيمان والكفر اللذين ظهرا في هذه الآية بقوله تعالى ﴿لَنَعْلَمَنَّ مَنِ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ فإتباع الرسول هو الإيمان، وعدمه هو الكفر، والإنقلاب على العقب عنوان وإستعارة عن الجحود.

إن الملازمة بين القبلة الجديدة وإتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدل على أهمية موضوع القبلة في الشريعة الإسلامية وأحكامها، وبينما جاءت الآية بلغة الخطاب للأمة ثم للنبي أعطت قاعدة كلية وجاءت بلفظ الرسول وفيه حث على إتباعه وتصديقه ومحاكاة فعله العبادي ولا بد له من دلالات منها:

الأول : تحويل القبلة من الله تعالى وليس من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : إنه مناسبة للاختبار والإمتحان.

الثالث : التوجه للبيت الحرام مقدمة لما هو أكبر كالتوجه إلى ميادين القتال.

الرابع : انه مصداق من مصاديق الصبر في جنب الله.

الخامس : بعث الرعب والفرع في قلوب الكافرين برؤيتهم إستجابة المسلمين لأمر تحويل القبلة.

السادس : إنه مقدمة إختيار أمراء السرايا والقواد ممن يظهر الإمثال والإتقياد التام لما يأتي به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله.

وتدل الآية على موضوعية القبلة في أصل التشريع وتبليغ الأحكام والإمتحان وفروع الدين، وهي دعوة لتعاهد أمرها في الصلاة وغيرها من الأعمال التي يشترط فيها الإستقبال.

ونقل الرازي عن أبي مسلم قوله: لولا الروايات لم تدل الآية على قبلة

قبل الرسول عليه الصلاة والسلام عليها، لأنه قد يقال: كنت بمعنى صرت كقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) وقد يقال: كان في معنى لم يزل كقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٢) فلا يمتنع ان يرد بقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي التي لم تنزل عليها وهي الكعبة إلا كذا وكذا^(٣).

ولكن الأصل في كان إرادة الزمن الماضي إلا مع القرينة التي تفيد الإستدامة وإرادة الحاضر والمستقبل، كما تتجلى هذه القرينة بالآية أعلاه من سورة آل عمران ولكن آيات القرآن تدل على وجود قبلة سابقة من وجوه:

الأول: قوله تعالى في الآية السابقة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(٤)، وقد ذكر الفعل الماضي (كان) في الآيتين، أي في هذه الآية والآية السابقة المذكورة أعلاه.

الثاني: مجيء الآية أعلاه بصيغة الإحتجاج، ونعت الذين أنكروا تحول المسلمين في قبلتهم وترك القبلة السابقة بالسفه وخفة العقل.

الثالث: آيات القبلة هذه مدنية، ولم تنزل في بداية أيام الهجرة وإقامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة وصاحبت الصلاة المسلمين من أيام الدعوة الأولى، مما يدل على أن الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام جاء متأخراً زماناً عن أول الهجرة النبوية الشريفة، وأن المسلمين كانوا يستقبلون بيت المقدس.

ومن إعجاز القرآن تعلق الإمتحان والإبتلاء بالآية المنسوخة، وإستقبال

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة الفتح ٧.

(٣) مفاتيح الغيب ١٠٣/٤.

(٤) سورة البقرة ١٤٢.

النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم البيت المقدس، فلم تقل الآية (وما جعلنا القبلة التي وليت وجهك لها)، مما يدل على أن إستقبال البيت الحرام هو الأصل، وأن توجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى بيت المقدس أمر طارئ ومؤقت، ومعلوم طرو التغيير والتبديل عليه.

والآية خطاب للمسلمين بصيغة الجمع الإستغراقي المتضمن الإكرام وصيرورتهم الأمة الوسط بين أهل الأرض، وهو من مصاديق العز والرفعة للمسلمين في الدنيا والآخرة، ومن فضل الله تعالى أنه لا يعطي النعمة منفردة ومتحدة بل تتصف بخصائص مباركة منها تعدد النعم التي تأتي معها، وفي المقام جاءت مع نعمة الأمة الوسط نعم كثيرة تدل عليها ذات الآية منها:

الأولى : أهلية المسلمين للشهادة على الناس لتكون من مصاديق وراثتهم للأنبياء الذين يشهدون على أمهم ، وفيه دلالة على نسخ الشريعة برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الشريعة التي جاء بها، لأن شهادة الأنبياء إنقضت من مصاديق ما تقدم قبل آيتين ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾^(١)، الواردة بخصوص الأنبياء السابقين ولابد من شهادة على الناس من البشر يكونون معهم في الدنيا وينطبق الأمر على المسلمين لأنهم ورثة الأنبياء وحملة لواء الشريعة الناسخة وإلى يوم القيامة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، أي يخرجون على الناس بالشهادة عليهم، وفيه بشارة للناس بحسن شهادة المسلمين وعدالتهم ورأفتهم بالناس وهو من وجوه الخير واسم التفضيل.

الثانية : شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين وبشارة شفاعته لهم.

(١) سورة البقرة ١٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١١٠ .

الثالثة : نسخ القبلة وفوز المسلمين بحسن الإمثال.

الرابعة : إستجابة المسلمين بالتوجه إلى القبلة الجديدة ، وهي البيت الحرام من مصاديق الهداية في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لَكِيْرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

الخامسة : الشهادة من الله عز وجل للمسلمين بأن توجههم للقبلة الجديدة من الإيمان لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ، فلما ذكرت الآية شهادة المسلمين على الناس ، وشهادة النبي على المسلمين ، ذكرت شهادة الله على المسلمين بصدق الإيمان والتحول في القبلة إلى البيت الحرام بقصد القربة إلى الله عز وجل .

وفيه إشارة بأن شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين بصدق الإيمان وحسن الإمثال لقاعدة يمكن أن تؤسسها وهي الإتحاد بين شهادة الله وشهادة رسوله ، وعدم التعارض بينهما أبداً وفي الدنيا والآخرة.

السادسة : البشارة للمسلمين بالثواب العظيم على إستقبال البيت الحرام وتعاهده والصبر على الأذى الذي يأتي من أهل الإنكار كما جاء في الآية السابقة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ﴾ .

ومن الإعجاز في الآية أعلاه أن السين تفيد المستقبل القريب ويدل بالدلالة التضمنية على كفاية الله عز وجل للمسلمين وأن القول أعلاه وما يترشح عنه من الضرر لن يستمر .

وهل من موضوعية لهذه الآيات بقطع قوله وإنكارهم هذا ، الجواب نعم.

وتشمل شهادة المسلمين على غيرهم في المقام شهادة النساء المسلمات بعرض واحد مع الرجال من المسلمين يوم القيامة لإطلاق الآية ولأنها

وردت بلحاظ صفة الإسلام، وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية، وقد وردت شهادة شهادة النساء في المعاملات في الدنيا، قال تعالى ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ نَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾^(١).

ومن الإعجاز في الآية أنها جاءت بصيغة الجمع للمسلمين في شهادتهم وفيه وجوه:

الأول : شهادة المسلمين مجتمعين على كل واقعة وحادثة.

الثاني : الآية إنحلالية فكل مسلم يدلي بشهادته.

الثالث : تعدد صدور الشهادة من المسلمين، فلا بد من عدد مناسب في كل شهادة . وأنهم يشهدون بما هم مسلمون.

وفي حين جاء الخطاب للمسلمين بالشهادة بلغة الجمع، فإن شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم منفردة فهو الذي يشهد على الأمة وفيه غاية الإكرام له، وهل من صلة بين الشهادة والشفاعة في المقام الجواب نعم.

وفي شهادة المسلمين على الغير تنزيه لهم وإخبار عن أهليتهم للشهادة، وإتصافهم بخصال العدالة والتقوى، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ

عَلَى النَّاسِ﴾ إرادة العموم الإستغراقي للناس والشامل لأجيال بني آدم إلى يوم القيامة لتكون هذه الآية دليلاً على بقاء الإسلام ومبادئه وأحكامه مع وجود أمة تتعاهده، فالشهود على الناس في مشارق الأرض ومغاربها لا يكونون قلة وطائفة بل أمة عظيمة وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

(١) الآية ٢٨٢.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

وجاء قبل ثلاث آيات قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾^(١)، وجاءت هذه الآية لتؤكد بأن الذي يخفي الشهادة لن يضر إلا نفسه، وأن ذات الشهادة موثقة ومحفوظة وأن المسلمين يحضرون ليدلوا بشهادتهم وهي في المقام من جهتين:

الأولى : الشهادة على الذي يخفي شهادته.

الثانية : بيان الموضوع والحكم الذي أريد إخفاؤه.

بحث لغوي

مما هو مشهور في اللغة العربية وعلم النحو وجود أفعال تسمى أفعالاً ناقصة وأشهرها كان، ظل، أصبح، أمسى، بات، وسميت ناقصة لتجردها عن عنصر الحدث وإنحصار موضوعها في الزمن، ومنهم من قال: انها سميت ناقصة بلحاظ إفتقارها إلى خبرها المنصوب وعدم اكتفائها باسمها المرفوع.

وتأتي كان للماضي المنقطع وهو الإستعمال الغالب والمتعارف لها، وهو على قسمين:

الأول: التلبس الثابت بالحدث في الزمان الماضي كما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ ابُوهَا صَالِحًا﴾^(٢).

الثاني: الحدوث مرة واحدة من غير إستدامة كما في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾^(٣).
وتأتي كان للماضي المستمر ولإحتمال الحدوث في الزمان الماضي كما في

(١) الآية ١٤٠.

(٢) سورة الكهف ٨٢.

(٣) سورة الاعراف ٨٢.

قولك كان الهلال سيهل البارحة، نعم قد يأتي كان للدوام والإتصال أي بمعنى (لم يزل).

كما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾^(١) ومنهم من أنكر هذا المعنى لـ(كان)، قال الرضي: وذهب بعضهم الى ان (كان) تدل على استمرار مضمون الخبر في جميع زمن الماضي وشبهته قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٢).

لكن يمكن إستفادة الإستمرار من قرينة وجوب كون الله سمياً بصيراً، وقولك كان زيد نائماً نصف ساعة فاستيقظ ، يتضمن القرينة على إرادة الزمن الماضي واذا قلت كان زيد ضارباً لم يستفد منه الإستمرار الا مع القرينة.

والظاهر هو البرزخ والوسط بينهما فكان بمعناها المجرد من القرينة تدل على الزمن الماضي وهي مع القرينة الدالة على الدوام تفيد معنى الإستمرار من غير ان يكون هذا المعنى الطارئ ناسخاً ودليلاً على انصرافها عن معناها الأول، وهو الماضي بل للقرينة والحكومة وتوسعة معنى كان، وبهذا المفهوم تعطى للكلمة العربية استقلاليتها وموضوعيتها في اللغة العربية وقابليتها على تعدد وجوه المعنى من غير تناف او تعارض بين معانيها، وهو وجه من وجوه الإعجاز القرآني واهلية اللغة العربية لإحتوائها للمعاني المتعددة للفظ القرآني ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

(١) سورة الأحزاب ٢٥.

(٢) سورة النساء ٣٤.

(٣) سورة يوسف ٢.

وليس من قرينة في الآية الكريمة تفيد ان المراد من (كان) افادة الدوام والإستمرار على ذات القبلة، والنصوص والروايات الواردة في المقام لا ينحصر موضوعها بالقرينة بالمعنى الاصطلاحي بل هي بيان وتفسير وعون على فهم معنى اللفظ العربي ، والأخبار متواترة على تحويل القبلة، والقرآن يدل عليه بالدلالة التضمنية كما في قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...﴾^(١).

قوله تعالى ﴿إِلَّا نَعْلَمَ﴾

مما هو ثابت عند الفلاسفة والمتكلمين أن الله تعالى عالم وإن اختلفوا في الخصوصيات والزوائد الإعتبارية، وعلمه تعالى إنكشاف الأشياء لديه على نحو الإستدامة وعدم الغياب وان كانت معدومة في الخارج لا بمعنى انها لم تكن ظاهرة له ثم ظهرت.

وليس من حصر لأقسام علم الله عز وجل لإطلاقه وشموله الموجود والمعدوم، والذات الإلهية لا تقبل التعدد او التجزئة فمن باب اولى ان يكون علمه متحداً سواء كان العلم بالذات الإلهية المقدسة او المخلوقات مجردة كانت او مادية.

وإنعدام الماديات قبل حصولها او بعده لا يضر في علم الله تعالى لها، وحضورها عنده لأن علمه تعالى حضوري ومنبسط على كل المخلوقات ومنها أعمال الناس، خاصة وأن تحويل القبلة إبتلاء وإختبار وإمتحان، فمعنى علم الله هنا ظهور الفعل إلى الخارج، والتمييز بين المستجيب والجاحد.

ولفظ (لنعلم) وثيقة سماوية ويتضمن إظهار عنصر الإختيار الشخصي، وعدم تعارضه مع العلم الأزلي وفيض الوجود.

قوله تعالى ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ يَسْجُدْ لَهُمْ فِي الْغُيُوبِ وَمِنْ الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَنَّهُ يَزِيدُ الْفَرِيقَ الْكَافِرَ لَئِيْلَ مَا يَصِفُونَ﴾

تشريف لعمل الجوارح وصيرورة موضوعية له فمن يلتزم بحكم القبلة الجديدة ويؤدي الصلاة مستقبلاً البيت الحرام يصدق عليه أنه إتبع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن يدل دليل آخر على التخصيص أو التخصص.

وفي الآية حث على محاكاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أفعاله وأعماله وإتباع سنته ونيل الدرجات العلى بذلك، وهو باب يستطيع كل مسلم إدراكه وبلوغ مقاصده لعدم حاجة الإستقبال وأداء الصلاة إلى كبير مشقة أو جهد عقلي وتحصيل علمي.

فمن آيات الإسلام أن عامة الناس وعلى مختلف مداركهم العقلية ومستوياتهم الإجتماعية والمعاشية يستطيعون بلوغ درجات التقوى.

ولا تدل الآية على حصر التمييز بين المؤمنين وغيرهم بموضوع القبلة وتغييرها فائبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره ولكنها تؤكد مراتب الإختبار والإمتحان العقائدي في الإسلام وانه لا ينحصر بدخوله والنطق بالشهادتين بل هو مستديم ويتجلى في كل عصر وكل يوم بأداء الفرائض، وما تعرض له الصحابة من الإمتحان بالقبلة والتوفيق النوعي العام في الإستجابة والإمتثال يتجدد كل يوم بتوجه المسلمين إلى البيت الحرام، صحيح أنه قياس مع الفارق، لأن الجهاد والإمتثال إبتداء أشق في مراتب التكليف من المحاكاة وتلقي الأمر بالتوارث العقائدي.

ولكن المثلية في الثواب إفاضة وفضل من الله تعالى من غير تضييع لحق السبق بالإستجابة والإمتثال.

قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾

ذكرت أقوال في الضمير في ﴿كَانَتْ﴾ وهي:

الأولى : القبلة ، بأن كانت القبلة كموضوع وحكم كبيرة أي ثقيلة.

الثانية : التحويل وتبديل القبلة، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

الثالثة : الصلاة، عن ابن زيد.

وقد يعود الضمير إلى ﴿الْقِبْلَةِ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي ان العرب والمسلمين يعلمون ضمناً ان القبلة هي البيت الحرام بدليل الآيات التي تؤكد على بناء البيت الحرام وموضوعيته في جهاد ابراهيم عليه السلام، قال تعالى ﴿وَإِذْ يُرَفِّعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾.

ولبقاء أحكام الخيفية وحج العرب للبيت وهلاك إبرهة وجنوده حينما أراد هدم الكعبة، وان استقبال بيت المقدس كان تكليفاً مؤقتاً ومقدراً بزمان محدد اجمالاً ويكفي في معرفتهم ذلك إخبار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كان الإخبار مقدمة وتمهيداً وهو لطف، وتحويل القبلة وقبوله مناسبة كريمة لإظهار حسن الإمثال.

فالصبر على القبلة المؤقتة والتسليم به إختص به المهتدون وأتباع الحق لأنه تكليف، ولشرف بيت المقدس ثاني القبلتين وثالث الحرمين، أي كما أن تحويل القبلة إبتلاء وإختبار فان التوجه إلى بيت المقدس كان إبتلاء وإمتحاناً. ويمكن المساعدة على هذا التأويل بالشواهد التاريخية وتلقي المسلمين تحويل القبلة بالرضا والقبول، وبعد ان صلى النبي صلى الله عليه وآله ركعتين من صلاة الظهر متوجهاً الى بيت المقدس، نزل جبرئيل عليه السلام ليأخذ بعضديه ويحوله الى الكعبة.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: إن بني عبد الأشهل أتوهم وهم في الصلاة وقد صلوا ركعتين الى بيت المقدس، ف قيل لهم: ان نبيكم قد صرف

الى الكعبة فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء وصلوا الركعتين الباقيتين الى الكعبة، فصلوا صلاة واحدة الى قبلتين، ولذلك سمي مسجدهم مسجد القبلتين^(١).

والظاهر أن مسجد القبلتين غير الذي نزل به جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتحويل القبلة، ولعل الفعل العبادي هذا لم ينحصر بمسجد بني عبد الاشهل كما تقدم في رواية مسجد بني حارثة او مسجد قباء او مسجد بني سالم، وفيه نوع إكرام وثناء لهم لأنهم إكتفوا بالخبر وتحولوا في الحال من غير تردد او شك.

إن مبادرة المسلمين بالتحول والإستدارة الى القبلة الجديدة يدل بالدلالة التضمنية على إحتمال إنتظارهم لتحويل القبلة ونزول الوحي به، وهو أمانة حسن الإمثال وسرعة الإستجابة وانهم من الذين هدى الله، أي أن نتائج الإختبار الإلهي تظهر في الحال لعدم وجود امهال في التوجه صوب البيت الحرام، وتلك الفورية في إستقبال البيت الحرام لابد أن تكون لها فلسفة خاصة ووجوه من الحكمة تستحق معها التدبر وإمعان النظر، وفيها دروس ومسائل:

الأولى: قطع الطريق على أهل الشك والريب.

الثانية: منع التردد والتسويق في تغيير القبلة.

الثالثة: الحيلولة دون الاختلاف بين المسلمين في أمر عبادي هام.

الرابعة: إبتداء التكليف بالتوجه الى البيت الحرام على نحو العموم الإستغراقي، وإنحلال الخطاب بعدد المسلمين مما يلزم كل مكلف العمل به، ومن رأفة الله تعالى انه يرشدهم ويوفقهم لأداء التكاليف وهو مقتضى قاعدة اللطف.

الخامسة: عدم إتاحة الفرصة للتساؤل والرد والتمني والتوقف.

السادسة : منع تأثر المسلمين بأقاويل غيرهم في خصوص تحويل القبلة.
السابعة : إسقاط ما في أيدي المنافقين بمفاجئتهم بالأمر والإمثال الفعلي لتحويل القبلة في وقت واحد.

الثامنة : التخفيف عن المسلمين في دروب الجهاد، فغلق باب الإفتتان والتردد في هذا الباب يجعلهم يوجهون جهودهم مجتمعة ومتظافرة نحو غايات عقائدية ذات شأن في تاريخ الاسلام.

التاسعة : لقد كان الاسلام في تلك الايام في مراحل البناء والتنظيم وسن الشرائع والأحكام، فالانشغال الدائم بموضوع القبلة ايام تشريعها وسماع الكلام والآراء فيه يضعف أسس هذه البناء ويحدث ارباكاً مع الكفار بين المسلمين، فجاء الأمر الإلهي لغلق هذا الباب.

العاشرة : تأديب المسلمين وتعليمهم سرعة الاستجابة وحسن الامثال من غير تردد كدليل على التصديق بالتنزيل والوحي وما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله ليصبح ملكة نفسانية نوعية وشخصية ثابتة ومتوارثة عند الموجود منهم والمعدوم، وتكون دليلاً، وبرهاناً عقائدياً.

الحادية عشرة : إقامة الحجة على الناس في حسن إتيان المسلمين وانصياعهم للأمر الإلهي وكيف انهم لم يجادلوا أو يخالفوا، وفيه بيان لاستحقاق المسلمين لخلافة الارض.

الثانية عشرة : إصابة اعداء الاسلام باليأس والخيبة بما اظهره المسلمون من العزم والاستجابة، وان التوجه الى المسجد الحرام هو الحق.

الثالثة عشرة : المبادرة الى الكمال بحسن الامثال واجتناب الافراط والتفريط.

الرابعة عشرة : البشارة والسعادة والثواب وتمام الأجر في سرعة الاستجابة.

الخامسة عشرة : نصره الله تعالى للمسلمين فقد كان بعض أهل الكتاب يعيرونهم باتباعهم في قبلتهم، فجاء الأمر الإلهي ليرفع الحزن عن المسلمين

ويكشف ما بهم من الغم.

السادسة عشرة : صيغة القطع في تحويل القبلة الى الكعبة كتشريع مستقر الى يوم القيامة.

السابعة عشرة : مع ما في التكليف من المشقة والكلفة فانه يتضمن التخفيف والعون الإلهي، والأمر بالاداء الأتم والفوري الذي جعله يسيراً خالياً من المشقة والافتتان.

الثامنة عشرة : إنتهاء الملاك والمصلحة في استقبال بيت المقدس فيرجع الى الاصل.

التاسعة عشرة : فيه دلالة على نهاية مرحلة من الجهاد وانحسار تأثير أعداء الدين على المسلمين.

العشرون : تبديل القبلة اثناء الصلاة فيه مسائل واسرار لم تستقرأ بعد، ويتجلى فيه جهاد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وجانب من الأذى الذي لاقاه فهو أول من يبادر إلى الإمتثال، وان الأمر في تلك الصلاة كان مركباً من أمور:

الأول: أداء الفريضة.

الثاني: تحويل القبلة.

الثالث: إستجابة المسلمين لأمر الله.

الرابع: محاكاة وإتباع المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في العبادة والنسك، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

الخامس: الثقة والتصديق برواية المسلم، فحالما أخبرهم أحد المسلمين بتبديل القبلة بنوا على صدقه وعدالته وإستداروا إلى جهة البيت الحرام.

الحادية والعشرون: توكيد حقيقة تأريخية خالدة وهي ان المسلمين يبادرون الى الامتثال السريع ومحاكاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أهم

مسائل العبادة من غير تردد فلا يمكن قهرهم او النفاذ والتعدي على ما يؤمنون به.

الثانية والعشرون: تحويل القبلة منقبة للمسلمين ودرس تاريخي يزجر كل من يعتدي عليهم ويظن تخلفهم عن وظائفهم الشرعية.

قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾

في الآية مسائل:

الأولى: ورد في الآية عن ابن عباس: (أن أناساً قالوا: كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله عز وجل قوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(١).

الثانية: تساءل المسلمون عندما تحولت القبلة عن اخوانهم الذين ماتوا قبل تحويلها مثل سعد بن زرارة، والبراء بن معرور وكانا من النقباء، وان الإيمان المقصود في الآية هو صلاتهم إلى بيت المقدس وفيه شاهد على أن أسباب النزول أعم من أن تتعلق بالآية كلها، فقد تأتي أسباب خاصة بشطر وجزء من الآية.

الثالثة: الآية الكريمة أعم وتشمل الإستجابة السريعة لتحويل القبلة.

الرابعة: تحت الآية على إظهار حسن الطاعة والإلتزام في موضوع القبلة وعدم الإلتفات لغير الحكم الشرعي بتحويلها.

الخامسة: في الآية وجه آخر إذ أنها تتضمن الثواب والبشارة بحسن الجزاء وأن المبادرة إلى إستقبال البيت الحرام من مصاديق الإيمان، ويستحق عليه المسلم الثواب.

السادسة: عدم تضييع الإيمان الوارد في الآية يتضمن الإشارة إلى إعتبار الإستجابة في تحويل القبلة نوع جهاد وعبادة.

السابعة : في الآية وعد ودعوة للإستمرار في حسن الإمتثال.
الثامنة : من الإيمان الإنصياع للحكم الناسخ، والتكليف اللاحق،
 والتشريع الجديد.

التاسعة : تؤكد الآية إنتقال المسلمين إلى منزلة متقدمة وأنهم اجتازوا
 مراتب من الجهاد وتحملوا المشاق، فمع الأمر بالحكم الجديد جاءت
 البشارة بالوعد والإخبار عن إحساب عملهم وسعيهم وعدم تضييعه.
العاشرة : كانت الصلاة إلى بيت المقدس تامة الأركان والشرائط وتنطبق
 عليها خصائص الإيمان.

الحادية عشرة : إن الله عز وجل يحفظ الأعمال الصالحة ويضاعفها
 وينمّيها.

الثانية عشرة : لعل في الإلتزام بالقبلة الأولى وبلوغ درجة من حسن
 الإنصياع وإتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسباباً لتحويل القبلة إلى
 البيت الحرام، لأنه تشريف عظيم لم ينله المسلمون إلا بالجهاد والصبر
 والطاعة.

بحث بلاغي

إعتبر أهل البلاغة الآية من المجاز قسم إيقاع السبب موقع المسبب أي أن
 الإيمان أطلق على ما ترشح عنه وجوه الطاعة، وأرسل ذلك إرسال
 المسلمات، ولكن الأصل هو الحقيقة ولا بد من النظر للآية القرآنية بالمعنى
 الأعم والأكثر نفعاً، والمعنى الحقيقي هو الأقرب إلى رحمة الله وعظيم
 إحسانه سبحانه وتعالى.

وصدر الآية وإن جاء بخصوص الإنقياد للأوامر الإلهية بتحويل القبلة
 إلا أن الآية القرآنية مطلقاً قد يكون صدرها في شيء وآخرها في شيء آخر.
 وكثيراً ما تأتي أواخر الآيات قواعد كلية، وهذه الآية منها فهي تتحدث
 عن الإيمان كاختيار عقائدي وعمل جهادي نفسي، أي ان الإيمان بصيغته

المجردة البسيطة غير المركبة من الأعمال الجهادية، وله أجر عند الله ويحتسبه الله سبحانه للعبد ويرزقه عليه في الدارين، فيكون المسبب والفعل الخارجي له أجر آخر وثواب إضافي وفيه بيان ورتبة في علوم القرآن ولا تضيع المنافع العظيمة في كل كنز من كنوز الآيات القرآنية بعد أن بشرنا بهذه الآية وأخبرنا بالأجر والجزاء الحسن على الإيمان وحده قبل ترجمه إلى الخارج بحسن الإمثال للأوامر الإلهية.

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

الأول : خاتمة الآية إخبار عن المقاصد السامية في القبلة موضوعاً وتحويلاً، وما قبل التحويل.

الثاني : إن الملاك الرحمة الإلهية مما يعني وجود دروس ومواعظ في تحويل القبلة.

الثالث : الرأفة تتعلق بالمبتلى، والرحمة أوسع منها.

الرابع : ان الله لم يترك المسلمين بلا قبلة ولم يجعلهم يتفرقون او يختلفون في مسألة القبلة بل جاء تعيين القبلة بالقرآن، وفيه شاهد على سلامة القرآن من التحريف لأن فيه آيات الأحكام وأسباب نزولها.

الخامس : يظهر سياق الآية ان تحويل القبلة من رأفته تعالى، وبها تؤدي الصلاة بآتم وجوها وأكمل شروطها بالإضافة إلى ما يترشح من إستقبال البيت الحرام على الفرائض والأعمال الأخرى من إفاضات بادائها والتقيد بأحكامه وسننه .

(وقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: صلوا كما رأيتموني أصلي)^(١)، ومن أجزاء الصلاة التوجه للكعبة على نحو التعيين.

السادس : من رأفة الله تعالى أن أعان المسلمين على أداء ما يجعلهم مستعدين لتلقي أمر تحويل القبلة إلى البيت الحرام، وتوفيقهم إلى الإمثال

السريع في التحول ولقد تلقى المسلمون هذا الأمر بالإستبشار والسعادة والغبطة.

السابع : ورود لفظ ﴿بِالنَّاسِ﴾ في الآية كمحل لتلقي الرأفة والرحمة، يعني ان تحويل القبلة لمنفعة الناس جميعاً بما في ذلك الذين إستهزءوا أو أحزنهم هذا التحويل.

الثامن : بإتيان المسلمين الفرائض وتقيدهم بأحكام الحلال والحرام وشرائط الفعل العبادي يوجهون رسالة إلى الناس جميعاً يدعونهم فيها إلى الإسلام ونبد العناد والخصومة.

التاسع : بين الناس والمسلمين عموم وخصوص مطلق، فكل مسلم هو انسان وليس العكس، فالرأفة والرحمة هنا تنبسط على الجميع مع التباين والإختلاف بالدرجة والكيفية والزمان، فمن رحمة الله بالناس ان جعل المسلمين لهم مثلاً يقتدى ومدرسة وعبرة وموعظة حاضرة وحجة دائمة، وتبين الآية ان تحويل القبلة رحمة بالجميع وإن إنحصر الإنتفاع منها بالمسلمين.

العاشر : تقتضي قاعدة الإشتغال الإمثال التام بأحكام القبلة إذ أن الإشتغال اليقيني يقتضي الفراغ اليقيني، فلا تبرأ ذمة المكلف إلا بالتوجه إلى القبلة في صلاته.

وفي إستقبال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين معه بيت المقدس أقوال:

الأول : إنه مما أوجب الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي ، ونسخه بالقرآن.

الثاني : كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مخيراً بين الكعبة وبيت المقدس للألفة مع اليهود قاله الحسن وعكرمة.

الثالث : إستقبال بيت المقدس بإجتهد من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابع : التباين بلحاظ الوطن ودار الإقامة، فعندما كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة المكرمة توجه إلى الكعبة وعندما هاجر إلى المدينة إستقبل بيت المقدس.

والصحيح هو الأول لقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾^(١)
ولعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢).

ومثلما تزجر الآية السابقة عن إنكار التحول من إستقبال بيت المقدس، فإن الآية أعلاه تمنع من الإشكال في تعدد القبلة، لذا لم تجد أحداً من المسلمين يقول لماذا لم يكون التوجه في الصلاة إلى الكعبة من الأصل فتلقى المسلمون تعدد القبلة والنسخ فيها بالقبول والرضا والفخر والعز، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَحُزِّنْ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) الآية ١٣٣.

قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ الآية ١٤٤.

القراءة

قرأ عبد الله بن عامر وحمة والكسائي (تعلمون) بالتأويل بصيغة الخطاب وكأن المراد به المسلمون وفيه بشارة لهم، وقرأ الباقون (بالياء) وعليه رسم المصاحف ، وهو راجع إلى أهل الكتاب.

الإعراب واللغة

تأتي (قد) إسماً بمعنى حسب، واسم فعل مضارع بمعنى يكفي مثل قد التعقيب تسيحة، وتأتي حرفاً وحيث لا تدخل إلا على الفعل المجرد من الناصب والجازم وحرف الإستقبال، مثل "قد قامت الصلاة" وتعتبر مع الفعل كالكلمة الواحدة، وقد يفصل بينهما بالقسم، ولـ(قد) خمسة معان:

الأولى : التوقع ولا يكون إلا مع المضارع مثل "قد تمطر السماء".

الثانية : تقريب الماضي من الحال.

الثالثة : التقليل مثل قد يصدق الكذاب.

الرابعة : التحقيق كما في المثل أعلاه في إقامة الصلاة.

الخامسة : التكثير ، وهو المراد في الآية الكريمة إشارة إلى عناية النبي صلى الله عليه وآله وسلم بموضوع القبلة فيرفع بصره إلى السماء متطلعاً منتظراً باستقراء ويفيد التحقيق أيضاً كما في قوله تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ

الَّذِي يَقُولُ ﴿١﴾.

نرى: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر تقديره (نحن) يعود الى الباري عز وجل، ولغة الجمع عنوان لعظيم سلطانه، وأهمية الأمر بتحويل القبلة.

تقلب: مفعول به وهو مضاف.

وجهك: وجه مضاف إليه، وهو مضاف ، والكاف : مضاف إليه.

في السماء: جار ومجرور متعلق بـ(تقلب).

فلنولينك: الفاء: عاطفة جاءت للتعليل.

وفي اللام: يقول النحويون: إنها موطئة للقسم والظاهر أنها لام العاقبة والصيرورة ، لأن القسم إصطلاح شرعي تتفرع عنه عدة مسائل، وتترتب عليه آثار شرعية ، ويحتاج إثباته إلى دليل ، والأصل عدمه، نولين: فعل مضارع مبني على الفتح في محل رفع(النون) نون التوكيد، الكاف: مفعول به أول.

قبلة: مفعول به ثان.

ترضاها: ترضى فعل مضارع مرفوع بالفتحة المقدرة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (ها) ضمير في محل مفعول به.

قول: الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، ول: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت.

وجهك: مفعول به منصوب، وهو مضاف ، والكاف: مضاف إليه.

شطر: ظرف مكان مبني على الفتح في محل نصب، المسجد: مضاف إليه مجرور بالكسرة، الحرام: صفة للمسجد مجرور مثله .

وحيث ما كنتم : الواو : حرف عطف، حيثما: اسم شرط جازم في محل نصب ظرف مكان، كنتم: فعل ماض تام في محل جزم، والضمير فاعل كان.

فولوا وجوهكم: الفاء: رابطة لجواب الشرط، ولوا: فعل أمر مبني على حذف النون، الواو: فاعل، وجوهكم: وجوه: مفعول به منصوب، وهو مضاف، والضمير الكاف مضاف إليه.

شطره: ظرف مكان مبني على الفتح في محل نصب، والضمير الهاء مضاف إليه .

وأن الذين أوتوا الكتاب: الواو: إستثنائية، أن: حرف مشبه بالفعل للتوكيد، الذين: اسم موصول مبني على الضم، الواو: نائب فاعل، الكتاب: مفعول به.

ليعلمون أنه الحق : اللام: هي المرحلة وتفيد التوكيد، يعلمون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ، الواو: فاعل. أن : حرف مشبه بالفعل، الهاء: ضمير اسم أن.

الحق: خبر(أن) مرفوع، من ربهم: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الحق، والضمير (هم) : مضاف إليه.

وما الله: الواو: إستثنائية، ما : نافية تعمل عمل ليس، واسم الجلالة: اسم ما، بغافل: الباء حرف جر زائد، غافل: اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً خيراً(ما) .

عما يعملون: عن: حرف جر: ما: اسم موصول في محل جر متعلق بغافل ، يعملون: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون، الواو: فاعل.

والجملة الفعلية (يعملون) لا محل لها لأنها صلة ما.

حيث: ظرف مكان وقد تأتي أحياناً ظرف زمان، وهي مبنية على الضم، وقد تبنى على الفتح او على الكسر، وإذا دخلت عليها (ما) كما في الآية الكريمة وأصبحت حيثما فإنها تكفها عن الإضافة وتجعلها تتضمن معنى الشرط وتجزم فعلين.

والشطر: نصف الشيء، يقال شطرته: جعلته نصفين، قال السدي:

ولاح لنا الهلال كشطر طوق

على لبات زرقاء اللباس

وشطر الشيء: ناحيته وجهته وقصده، وقال ابو اسحق: الشطر الذي لا اختلاف فيه بين اهل اللغة، والإتيان بلفظ الشطر اعجاز قرآني لما يتضمنه من التخفيف والتيسير وعدم اشتراط الدقة العقلية.

وتقلب الشيء: تحوله ونعت الوجه بالقلب لنظره وبحشه، ولأنه خلاف الحال الإعتيادية في النظر فقد يكثر الإنسان النظر الى امامه او يساره او يمينه او الى الأرض، اما النظر الى السماء فلا بد ان يكون عن علة ولا يخلو من حكمة وتأمل.

والوجه معروف، ووجه كل شيء: مستقبله، وورد عن رسول الله صلى اله عليه وآله وسلم: أقيموا صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم^(١)، فتولية المسلمين الى جهة واحدة يعني اتحادهم ومنع الاختلاف والشقاق بينهم، والمراد من الوجه في الآية ذات الإنسان ومقاديم بدنه وهي الوجه والصدر والبطن والركبتان.

في سياق الآيات

بعد ان جاءت الآيات السابقة ببيان اشكال اهل الكتاب على تحويل المسلمين لقبلتهم من بيت المقدس الى مكة المكرمة ونعت اصحاب هذا الإشكال بانهم سفهاء جاءت هذه الآية ليعلم الناس أن التحويل تم من عند الله تعالى وليس للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين فيه امر في دعوة للتسليم به ونبد التعدي على المسلمين بسببه.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

(١)الكشف والبيان ٣٣/٥.

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(١)، وفيها

مسائل:

الأولى : إبتدأت الآية السابقة بالخطاب للمسلمين والمسلمات وأن الله جعلهم أمة وسطا، وإبتدأت هذه الآية بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن الله عز وجل يرى تقلب وجهه في السماء.

الثانية : أخبرت الآية السابقة عن شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين فهل تقلب وجهه في السماء بانتظار تحويل القبلة من أفراد الشهادة هذه ، الجواب نعم ، فهي من مقدماتها ولقد تبعه المسلمون حالما أمره الله بالتحول إلى البيت الحرام فتكون شهادة لهم وبما فيه خيرهم ونفعهم في الدارين.

الثالثة : ذكرت الآية السابقة قبلة المسلمين السابقة التي تحولوا عنها، وذكرت هذه الآية القبلة الجديدة التي تحول إليها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون.

الرابعة : لم تذكر الآية السابقة اسم بيت المقدس إنما اشارت إليه كغاية في القبلة المنسوخة أما هذه الآية فذكرت اسم البيت الحرام كقبلة جديدة لأن حكمها ثابت إلى يوم القيامة، وفيه بيان ومنع للجهالة والغرر.

ولما جاءت الآية قبل السابقة بالإخبار عن إنكار فريق من الناس لتحول المسلمين عن استقبال بيت المقدس جاءت هذه الآية بذكر البيت الحرام كقبلة للمسلمين ليكون ذكره بالاسم برزخا دون الإفتراء وقول السفهاء وتعدي الظالمين.

الثاني : صلة هذه الآية بالآية قبل السابقة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : بيان علة وكيفية تحول المسلمين من أولى القبلتين وهو بيت المقدس وأنه تم بأمر من الله عز وجل، وفيه رد على الذين ينكرون هذا التحول.

الثانية : من معاني السفه في إنكار التحول في القبلة أنه لم يتم إلا بأمر من الله عز وجل، وتجلت مقدماته بتطلع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السماء إنتظاراً للأمر وإستعداداً للإمتهال.

الثالثة : إن قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢)، يدل على التحول إلى البيت الحرام على نحو دائم وثابت وهو الذي تجلّى بانقطاع الوحي والتنزيل عند إنتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ولم ينزل نسخ لآية إستقبال البيت الحرام.

الرابعة : تأكيد الأذى الذي لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الناس في دعوته إلى الله عز وجل، فمع أن الله هو الذي أمره باستقبال البيت الحرام أنكر فريق من الناس تركه إستقبال بيت المقدس.

الخامسة : تضمنت آية البحث الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتحول إلى المسجد الحرام في الصلاة، وتضمنت آية السياق الأمر له بالإحتجاج والرد على جدال الذين يحتجون على تحويل القبلة بقوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(٣).

(١) الآية ١٤٢.

(٢) سورة البقرة ١٤٤.

(٣) سورة البقرة ١٤٢.

ففي آية أمر بالفعل العبادي متوجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين وهو التحول إلى القبلة، وآية أمر بالقول رداً ودفاعاً عن الإسلام وترغيباً به.

ترى لماذا تقدم إنكار الغير على تحول المسلمين في قبلتهم بقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنَّا قِبَلَتُهُمْ﴾ على الأمر الإلهي بتحول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى إستقبال البيت الحرام. الجواب من وجوه:

الأول : التقدم الزماني لنزول قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ...﴾ على آية البحث وما فيها من الأمر بالتحول إلى إستقبال البيت الحرام، والتقدير: إذا أمرناكم بتولية وجوهكم شطر المسجد الحرام فإن السفهاء من الناس سيقولون....). الثاني : تهيئة أذهان المسلمين للصبر والإحتراز من أهل الشك عند التحول إلى إستقبال البيت الحرام.

الثالث : بيان مقدمة جهادية لإستقبال البيت بأن المسلمين سيسمعون الإحتجاج والإنكار على إستقبال البيت الحرام، وتأكيد حقيقة وهي أن الله عز وجل يعلم بأن المسلمين سيتحولون إلى إستقبال البيت الحرام كقبلة عندما ينزل الأمر الإلهي به.

الرابع : لا موضوعية للتقديم والتأخير في ترتيب الآيات في المقام لتجلي المعنى.

الخامس : تقدم قوله تعالى (سيقول السفهاء...) في نظم الآيات مع أن نزوله متأخر زماناً على آية البحث لأنها جاءت ضمن نظم آيات الإحتجاج العام في سنن الأنبياء ولزوم التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن إعجاز نظم الآيات أن أهل النفاق والشك لم يوجهوا اللوم والإنكار إلى فعل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع أنه الإمام في التحول في القبلية ولكنهم أنكروا على المسلمين عامة وإن دخل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيه بالدلالة التضمنية.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ...﴾^(١)، وفيها

مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : تلك أمة قد خلت وجعلناكم أمة وسطاً.

الثاني : تلك أمة قد خلت لتكونوا شهداء على الناس.

الثالث : جعلناكم أمة وسطاً ولكم ما كسبتم.

الرابع : ويكون الرسول عليكم شهيداً تلك أمة قد خلت.

الخامس : ويكون الرسول عليكم شهيداً ولكم ما كسبتم.

السادس : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ولا تسألون عما كانوا يعملون.

السابع : لتكونوا شهداء على الناس ولا تسألون عما كانوا يعملون.

الثامن : وما جعلنا القبلية التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه تلك أمة قد خلت.

التاسع : ويكون الرسول عليكم شهيداً ولا تسألون عما كانوا يعملون.

العاشر : تلك أمة قد خلت وما كان الله ليضيع إيمانكم.

الحادي عشر : ولكم ما كسبتم وما كان الله ليضيع إيمانكم.

الثاني عشر : تلك أمة قد خلت إن الله بالناس لرؤوف رحيم.

الثالث عشر : لها ما كسبت ولكم ما كسبتم إن الله بالناس لرؤوف رحيم.

الرابع عشر : ولا تستلون عما كانوا يعملون إن الله بالناس لرؤوف رحيم.
الثانية : بينما أخبرت آية السياق عن إنقضاء أيام الأنبياء السابقين جاءت آية البحث بالإخبار عن حضور النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبيان أحكام شريعته مما يدل على أن الناس مأمورون بالعبادة وأن غياب وانقضاء أيام الأنبياء الذين يرجع إليهم الناس لا صلة له بوجوب استمرار العبادة في الأرض بما يشاء الله ، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

الثالثة : تضمنت آية السياق قانوناً كلياً وهو ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ وفيه دلالة على حضور أعمال الإنسان معه في الدنيا والآخرة وملازمتها له ، لذا جاء الأمر الإلهي للمسلمين بالصلوات اليومية الخمسة لتكون كفارة للذنوب بينها وسبباً لزيادة الحسنات (وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات)^(٢).
الرابعة : لن يكلف الله الناس بعد البعثة النبوية المباركة بالسؤال عن ملة الأجيال المتفرقة من الناس ، ومنهج الأنبياء السابقين ، بل يسألون عن أمر الله تعالى بالتوجه إلى القبلة وما يدل عليه بالدلالة التضمنية بلزوم إقامة الصلاة بلحاظ أن إستقبال البيت الحرام شرط وجزء واجب في الصلاة.

الخامسة : يدل قوله تعالى ﴿فَوَكَّلُوا بِحُكْمِ شَطْرِهِ﴾ على عدم الإنشغال بمাহية ملل الأمم السابقة وتقديمه على الوظيفة العبادية ولزوم تقوى الله.

السادسة : أختتمت كل من آية البحث والسياق بخصوص عمل الإنسان وعلم الله به وموضوعيته في الحساب ، فاختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ومن

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) الدر المنثور ٣٥٦/٥.

وجوه الجمع بينهما، أن عدم سؤال الحاضر عن الغائب، واللاحق عن السابق لا يعني عدم سؤاله وحسابه عن عمله، وجاء قوله تعالى ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١)، على نحو العموم الشامل للناس جميعاً.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات التالية وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿وَلَنْ أَتَّبِعَ الَّذِينَ أَلْفَتْهُمُ أَوتُوا الْكِتَابَ﴾^(٢)،

وفيها مسائل:

الأولى : تعلق موضوع آية البحث والسياق بموضوع القبلة والإستقبال في الصلاة مما يدل على أن القبلة جامع مشترك بين المليين والموحدين وأن الأنبياء جاءوا بلزوم توجه العبادة إلى قبلة مخصوصة، وهل من معاني قصد القربة إلى الله الجواب نعم وتلك مسألة يدركها الإنسان بالوجدان بأن تكون جهة معينة لها شأن ومنزلة في عبادات الأمة وفي قرارة نفس الإنسان ويتوجه لها في عبادته، ويفزع لها في حاجاته وفيها ترغيب بسماع الله عز وجل له من تلك الجهة، قال تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمُوجْهُ اللَّهُ﴾^(٣).

الثانية : تبين الآية السياق الإختصاص والفصل في القبلة، وأن المسلمين لهم قبلتهم وأهل الكتاب لهم قبلتهم ، ولم يذكر الكفار والمشركون فليس لهم قبلة، كما في كفار قريش، لتبين أن التباين والتضاد بين المسلمين وأهل الكتاب من جهة وبين الكفار والمشركين من جهة أخرى مع الإقرار بوجود الخلاف في القبلة بين المسلمين وأهل الكتاب.

(١) سورة الصافات ٢٤.

(٢) الآية ١٤٥.

(٣) سورة البقرة ١١٥.

الثالثة : لئن ذكرت آية البحث لفظ (القبلة) مرة واحدة فإن آية السياق ذكرتها ثلاث مرات.

الرابعة : لما جاءت آية البحث بالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتوجه إلى البيت الحرام تضمنت آية السياق ما يدل على تسليمه وإمثاله للأمر بالقبلة الجديدة، وأن الناس جميعاً يعلمون أنها قبلته.

الخامسة : بيان حقيقة وهي أن إستقبال البيت الحرام ليس من الهوى، بل هو وحي وتنزيل ، وفيه الفلاح والصلاح.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ مُّوَكَّلٌهَا﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تأديب المسلمين وأهل الكتاب في القرآن بهدايتهم إلى ترك الإكراه في القبلة لقوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٢).

الثانية : دعوة المسلمين إلى عدم الإنشغال بالخلاف في موضوع القبلة مع أهل الكتاب للزوم إعطاء الأولوية للمسارعة في فعل الصالحات وهو من عمومات قاعدة تقديم الأهم على المهم بالإضافة إلى دخول إستقبال البيت الحرام في مصاديق الخيرات الذي تضمنت آية السياق الأمر بالمسارعة فيها.

الثالثة : لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من تطلعه إلى السماء فأخبرت آية السياق بأنه ينتظر من الله التوجه إلى القبلة الخاصة بالمسلمين لقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ مُّوَكَّلٌهَا﴾ لما تدل عليه الآية أعلاه على أن توجهه إلى قبلة اليهود في الأشهر الأولى من وجوده في المدينة ليس على نحو الدوام والثبات، فلا بد من التحول إلى البيت الحرام.

(١) الآية ١٤٨.

(٢) سورة البقرة ٢٥٦.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : جاءت هذه الآية خطاباً متعدداً إذ ابتدأت بتوجيه الخطاب والأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم توجهت بالخطاب والأمر إلى المسلمين مع إتحاد موضوع الأمر فيهما ويتعلق بإستقبال البيت الحرام في الصلاة، وجاءت آية السياق خطاباً للمسلمين والمسلمات خطاباً للمسلمين وعلى نحو الجملة الخبرية التي تتضمن أوامر كثيرة تتعلق بلزوم تصديق وإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما ينزل عليه من عند الله.

الثانية : تضمنت آية البحث الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بإستقبال البيت الحرام، وهو من مصاديق آية السياق من وجوه:

الأول : إنه من رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعمومات قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ لأن تحويل القبلة لم يأت إلا بالوحي والتنزيل ومن الإعجاز في نظم الآيات أن تحويل القبلة من خصائص الرسالة وليس النبوة وحدها لأن النبي يعمل بشريعة الرسول السابق، أما الرسول فيأتي بشريعة مبتدأة وهو من مصاديق التشبيه في أول آية السياق بالكاف في قوله تعالى (كما أرسلنا).

الثاني : وصفت آية السياق النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأنه يتلو آيات الله على المسلمين، ومنها آية البحث وما فيها من مضامين التحول إلى إستقبال البيت الحرام، لبيان قانون كلي في الآيات التي يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنها تتضمن العمل العبادي وتأسيس سنن الشريعة.

الثالث : ورد في آية السياق قوله تعالى (ويزكيكم) والتحول إلى البيت الحرام من مصاديق التزكية والتطهير وأسباب الصلاح.

الرابع : ورد في آية السياق قوله تعالى في وصف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ والأمر بإستقبال البيت الحرام من الكتاب لأنه نص قرآني قاطع لا يقبل التعدد في المعنى والتأويل بالتحول إلى البيت الحرام قبله يرضاها الله عز وجل لبنيه والمسلمين.

الخامس : إتخاذ البيت الحرام قبله وإمامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين في التحويل إليه من الحكمة التي يعلمها لهم.

السادس : أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ والتحول إلى البيت الحرام من العلم الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مما يدل على الحاجة إلى بعثته.

إعجاز الآية

الأول : تقطع الآية موضوع الجدال والإحتجاج في موضوع القبلة.
الثاني : انها وثيقة سماوية تبين ان تحويل القبلة ليس حكماً تكليفاً شاقاً انما هو رحمة وعفو وتخفيف.

الثالث : في اخبار الآية عن معرفة وعلم اهل الكتاب بأمر تحويل القبلة اسقاط لما في ايديهم وحجة عليهم وإبطال لمقالة السفهاء في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ﴾^(١).

الرابع : في ظاهر الآية دعوة لجعل يوم تبديل القبلة عيداً.

الخامس : الأولى ان يكون هذا اليوم بعد ضبطه وتحديد يوم عيد تنظم فيه البرامج والمناهج العلمية وما يتعلق بالقبلة وليكون مناسبة لمعرفة الدروس والعبر وما يستنبط من الأحكام وفروع المسائل في باب القبلة والدروس الميدانية لتعيين جهة القبلة في كل بلدة وقرية.

السادس : قال الواقدي صرفت القبلة يوم الإثنين النصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً (قال ابن إسحاق: ويقال: صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر) من مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة^(١).

السابع : إن وحدة الإستقبال من أهم عناوين الوحدة الإسلامية ويستحق موضوعها من التحقيق والدراسات والمسائل المستنبطة.

الثامن : تحت الآية على البحث عن صيغ الإحتجاج مع أهل الكتاب.
التاسع : من إعجاز الآية رؤية تحويل القبلة وكأنه حاصل في هذا الزمان.

العاشر : في الآية بيان تأريخي لبدايات تحويل القبلة يحكي أسراراً عقائدية.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (قد نرى) لوجه:

الأول: ابتداء الآية بهذا اللفظ.

الثاني: لم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة.

الثالث: جاء لفظ (نرى) ست مرات في القرآن، إثنين منها بنسبة الفعل إلى الله عز وجل، وجاءت الآية الثانية^(٢)، بخصوص عالم الآخرة وتوبيخ وذم أهل النار، بينما جاءت هذه الآية في الثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الحياة الدنيا، وإمثاله للأمر الإلهي عز وجل إلتزام كمال.

(١) السيرة النبوية ٢/٢١٦.

(٢) سورة الأنعام ٩٤ .

الآية سلاح

الأولى : الآية عنوان الوحدة الإسلامية وإلتقاء المسلمين على أمر عبادي يومي جامع.

الثانية : في الآية تخفيف عن المسلمين بدرء الافتراءات وردّها بالتصريح والإخبار عن علم أهل الكتاب بالقبلة.

الثالثة : تتضمن الآية تحديداً دقيقاً للقبلة إلى يوم القيامة، وقطعاً للتردد المحتمل في التوجه إلى القبلة الجديدة.

الرابعة : ترتب الآية أحكاماً جديدة بخصوص الإستقبال.

لقد أراد الله عز وجل بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجهاده وصبره في سبيل الله الخير والنفع وأسباب الهداية للمسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة فالنبي يقلب وجهه في السماء، ويتنظر نزول بالوحي والتنزيل العام والخاص، ويتعلق الخاص بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، ومن إعجاز آية البحث أنها إبتدأت بالجملة الخبرية وتعقبها الأمر مباشرة من غير فاصلة بينهما وإن الخبر فيها يدل في ظاهره على تعدد قلب وجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السماء، فجاء الأمر (فلنولينك) بمعنى تحقيق الأمل والرجاء في الدعاء بمحاجات في أمور الدين والدنيا.

ولم تكتف الآية بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بل تضمنت الأمر للمسلمين والمسلمات فلا يقول بعض المنافقين أن الأمر خاص بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتكون الآية سلاحاً ومدداً للمسلمين وبرزخاً دون الجدال والتشكيك في إطلاق الأمر بإستقبال البيت الحرام ويستقرأ معنى السلاح والمدد في آية البحث من قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ﴾^(١)، أي أن المنافقين أسقط ما في أيديهم

وسلموا بأن المسلمين تحولوا إلى إستقبال البيت الحرام على نحو العموم الإستغراقي وأنهم تلقوا أمر هذا التحول بالقبول والإمثال.

مفهوم الآية

تبين الآية العناية الإلهية بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإعانتة في عباداته وتأديبه، فصلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسماء لا تنحصر بالوحي مع أنه أشرف صلة بين السماء والأرض بل تشمل توجيه أفعاله وتنظيم شؤونه بالوحي والتنزيل.

وتظهر الآية إنشغال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمور الأمة وإنقطاعه إلى الوحي تلقياً أو إستعداداً وقبولاً، وتدلل على اللطف الإلهي وعظيم رحمته تعالى فمع تطلع النبي تأتي الإستجابة والنسخ والحكم الذي يتضمن الرضا والقبول والغبطة.

وقوله تعالى ﴿ثَلَاثَ رُضَاهَا﴾ يدل في مفهومه على إدراك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعدم الضرر النوعي في نسخ القبلة وعدم تأثير السفهاء وأهل الجحود في أقوالهم وإفترائهم، وأن إستهزاءهم لن يؤثر سلباً على الأحكام الشرعية وعلى المسلمين في عباداتهم .

ومن اعجاز القرآن بعث المسلمين على العمل بآياته على نحو العموم الإستغراقي المتجدد في كل زمان ومكان، فأية واحدة من القرآن ترشح عنها عمل عموم المسلمين وإلى يوم القيامة بانضباط ودقة وتعيين لجهة القبلة في الصلاة من غير أن يخرج واحد منهم عن مضمونها فالقبلة عنوان الإسلام وشاهد عدل على الإلتواء للعقيدة الإسلامية في أحكامها وسننها.

وهذه الآية دليل على وحدة المسلمين وتوارثهم للعلم وتفقههم في الدين ومن اعجازها أنها تأتي بالنسخ والتغيير الذي يؤذي الكافرين ويضع للمسلمين منهجاً مستقلاً في القبلة ومع هذا فإنها تقيم الحجة بأن هذا التغيير

حق وانه لابد وأن يحصل ، وتنذر من التصدي له ومحاولة إيذاء المسلمين في عباداتهم كما تخبر الآية في خاتمها على أن التوجه للبيت الحرام لا ينسخ.

إفاضات الآية

يدرك المليون جميعاً أن الله عز وجل يبصر كل شيء من غير آلة باصرة فتكون الأشياء كلها حاضرة عند الله تعالى الموجود والمعدوم، وأخبر سبحانه أنه يرى النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقلب وجهه في السماء وفيه غاية الإكرام له لأن الله عز وجل يرى سكناته وحركاته وأنها في مرضاة الله ورجاء نزول شآبيب رحمته ونزول الوحي بما ينفع المسلمين في أجيالهم المتعاقبة .

يبصر الله عز وجل سعي نبيه الكريم في تثبيت دعائم وسنن الشريعة متطلعاً متلهفاً لنزول الوحي بتحويل القبلة ، فتفضل عليه بإجابته لما يتطلع إليه من غير تأخير لمقام الفاء في (فلنولينك) التي تفيد التعقب من غير فترة أو إبطاء، ومن مفاهيم رؤية الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الآية (قد نرى) أنه في عين الله، قال تعالى في موسى ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(١).

لقد جعل الله عز وجل القبلة مدرسة عبادية مستقلة، تنمي ملكة الأخلاق الحميدة عند المسلمين، وتؤدبهم على الإقامة على المناسك بهيئة وكيفية ثابتة، وغاية قرينة كشرط للتعبد تتضمن التقديس لمقام الربوبية بطاعته، ومن الآيات أن الله عز وجل نسب البيت الحرام إلى نفسه، قال تعالى ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٢).

ومع شرطية إستقبال البيت الحرام في الصلاة فإن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أظهر العناية بجهة القبلة روى أنس أن النبي محمد صلى الله

(١) سورة الطور ٤٨.

(٢) سورة الحج ٢٦.

عليه وآله وسلم رأى نخامة في القبلة فشق ذلك عليه حتى رئي في وجهه فقام فحكه بيده وقال إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنما يناجي ربه وإن ربه بينه وبين القبلة فلا ييزق أحدكم قبل قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدمه ثم أخذ طرف رداءه فبصق فيه ورد بعضه على بعض فقال أو يفعل هكذا^(١).

وفي آداب الدعاء : التطهر والجلوس وإستقبال القبلة والصلاة على محمد وآله والأنبياء والمرسلين، (وعن الشافعي أربعة تقوي البصر لبس نظيف الثياب والنظر إلى الحضرة والجلوس مستقبل القبلة والكحل عند النوم من حجر يعني بالأثمد، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عليكم بالأثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر)^(٢).

وذكر في علته وإختصاص الأثمد بهذا النفع أنه من الجبل الذي ورد فيه قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾^(٣).

الآية لطف

كان المسلمون في بداية الدعوة الإسلامية في مكة يستقبلون البيت الحرام في صلاتهم، وورد بالإسناد (عن يحيى بن عفيف عن عفيف قال جئت في الجاهلية إلى مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب قال فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة أقبل شاب فرمى بيصره إلى السماء ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه قال فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام والمرأة فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة فخر الشاب ساجدا فسجدا معه فقلت يا عباس أمر عظيم

(١) الجمع بين الصحيحين ٢/٤٢٨.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٤/٢٦١.

(٣) سورة الأعراف ١٤٣.

فقال أمر عظيم أتدرى من هذا فقلت لا قال هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن أخى أتدرى من هذا معه قلت لا قال هذا علي بن أبى طالب بن عبد المطلب ابن أخى أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما قلت لا قال هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخى وهذا حدثنى إن ربك رب السماء أمرهم بهذا الذى تراهم عليه وأيم الله ما أعلم على ظهر الارض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة^(١).

وفي رواية قال له العباس: (هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبى طالب آمن به قال عفيف فليتني كنت آمنت يومئذ فكنت أكون ثالثا)^(٢).

وعندما هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة توجه المسلمون في قبلتهم إلى بيت المقدس حيث يتوجه اليهود، وتلك آية في السعة والمندوحة في الإسلام ، وصيغ التخفيف في بداية الإسلام إلى أن نزل بعد الهجرة النبوية بثمانية عشر شهراً التحويل إلى المسجد الحرام بآية البحث ليقى إلى يوم القيامة ، وهذا البقاء من أسرار ذكر الناسخ في القبله بالنص في القرآن دون المنسوخ، فلم تذكر الآيات إستقبال المسلمين لبيت المقدس.

ولم يكن توجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إليه عند بدايات الهجرة بآية قرآنية، مما يدل على أنه أمر مؤقت ، لقد ترتبت أحكام إضافية على الأمر الإلهي في القرآن بإستقبال المسلمين البيت الحرام يتجلى فيها تعظيم البيت منها مثلا النهي عن وطأ الرجل لإمرأته مستقبلا القبله والذي يحمل على الكراهة.

(١) تاريخ الطبري ٥٦/٢.

(٢) تاريخ الطبري ٥٧/٢.

لقد أراد الله عز وجل بتعيين القبلة بالبيت الحرام إستقبال نفوس المسلمين لأمر الله ، وإتحادهم في طاعته وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١).

فالقبلة من حبل ودين الله الذي تذكره الآية، وقد فاز المسلمون في الإمثال بهذا المصداق وأن الدلالات والغايات العقائدية والأخلاقية في حصر إستقبال المسلمين بالبيت الحرام أكثر من أن تحصى لذا فليس بتام قول ابن عربي بأنه (اتفق المسلمون على أن التوجه إلى القبلة أعني الكعبة شرط من شروط صحة الصلاة لولا أن الإجماع سبقني في هذه المسئلة لم أقل به أنه شرط فإن قوله تعالى فأينما تولوا فثم وجه الله نزلت بعده وهي آية محكمة غير منسوخة ولكن انعقد الإجماع على هذا)^(٢).

لقد أراد الله عز وجل التخفيف عن المسلمين بتعيين القبلة والإنتفاع الأمثل من إستقبال البيت الحرام ، والكل يعلم أنه من بين أسباب وحدة المسلمين، ومنع إستمرار الفرقة والخلاف بينهم خصوصاً وأنهم يتوجهون إليها خمس مرات في اليوم من كل أمصار الأرض لذا فمن أسرار قوله تعالى في الإحتجاج على أهل إنكار تحويل القبلة ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(٣)، بأن المسلمين في كل مكان ومن كل جهة يعلنون توحيد الله ورص صفوفهم بإستقبال البيت الحرام.

وجعلت الشريعة موضوعية للقبلة، عند إحتضار الميت بأن يستقبل القبلة برجليه أي لو قعد فإنه يكون مستقبلاً للقبلة، وحتى في الدفن فإن يوضع على جنبه ليكون مستقبلاً للكعبة بوجهه ومقاديم بدنه، لتتجلى رحمة الله في البيت الحرام ، ويكون آخر عهد المسلم بالدنيا.

(١)سورة آل عمران ١٠٣.

(٢)الفتوحات المكية ٤٧٦/١.

(٣)الآية ١٤٢.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بتأكيد علم الله عز وجل بقيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإجالة بصره في السماء تطلعاً للوحي، والبحث عن جهة إستقبال البيت الحرام في حال تحويل القبلة، ثم أخبرت عن الأمر الإلهي بتحويل القبلة مما يدل على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يتصرف في العبادات والأحكام من عند نفسه وإن كان الفعل يرضاه للمسلمين ويعلم أنه ذو نفع بل أقصى ما كان يفعل هو تقليب وجهه في السماء.

ومن الإعجاز والدلالات العقائدية في آية القبلة أنها تبدأ بخطاب من الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتضمن الإكرام واللفظ فجاءت الإستجابة وتحقيق الأمانى العقائدية بتحويل القبلة

ومن الإعجاز والدلالات العقائدية في آية القبلة أنها تبدأ بخطاب من الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتضمن الإكرام واللفظ فجاءت الإستجابة وتحقيق الأمانى العقائدية بتحويل القبلة ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ﴾ وهذا التعقيب والسرعة في الأمر من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)، مع تجلي قانون كلي وهو أن الأمر الإلهي الفوري فيه نفع ومصلحة المؤمنين وفيه دعوة لهم للتوجه بالدعاء والتطلع إلى السماء فان نزل الملك جبرئيل بالأمر وآية القبلة فان الله عز وجل ينزل الأمر بالمصلحة ودفع المفسدة وكشف الغمة .

وهل تقلب وجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السماء مستقل بذاته أم أنه فرع الدعاء، وأمانة عليه الجواب هو الثاني، قال تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢)، وحتى على هذا القول فان الآية تدل على

(١) سورة يس ٨٢.

(٢) سورة غافر ٦٠.

خصوصية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي أن تقلب وجهه وحده يجزي عن الدعاء ويكفي في تلقي الإستجابة من عند الله، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١)، فكما أن من مختصات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عديدة منها الزواج بأكثر من أربع، وصوم الوصال باتصال صيام يومين مع الليلة التي بينهما، وثلاثة أيام مع الليلتين اللتين بينهما وتفضل ونهى المسلمين عنه.

ومنها تحقق الطلاق من النبي بتخيير أزواجه بين البقاء أو المفارقة، ومنها تحريم أزواجه على الغير بعد إنتقاله إلى الرفيق الأعلى، ومنها وجوب التهجد في الليل لقوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾^(٢).

فكذا فمن مختصات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ أمور :

الأول : أن يستجيب له الله عز وجل بتقلب وجهه.

الثاني : الإخبار عن رؤية الله عز وجل له وهو يقلب وجهه في السماء، ولم يرد لفظ (نرى) عائداً إلى الله عز وجل في القرآن على نحو الإيجاب إلا في هذه الآية، إذ أن قوله تعالى ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾^(٣)، مع أنه يتعلق بالدار الآخرة وحال البؤس والشدة التي عليها الكفار فانها جاء بنفي رؤية وجود الشفعاء لإنعدامهم .

(١) سورة الزمر ٣٦.

(٢) سورة الأسراء ٧٩.

(٣) سورة الأنعام ٩٤.

أما آية البحث فان الله أخبر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حركاته وسكناته، والله سبحانه يرى كل شئ (فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض)^(١).

الثالث : تقلب وجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كاف لنزول الأمر الإلهي والاستجابة منه تعالى، وفيه إنذار للناس بلزوم إجتنب إيذاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه في أمن وحرز من عند الله ، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢)، وتجلّى هذا المعنى بهزيمة قريش وجيوشها والقبائل المتحالفة معها التي أرادت النيل منه ومن الإسلام والمهاجرين والأنصار .

ولم تذكر الآية جهة القبلة أولاً بل تقدمت إستجابة الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرضاه ويحبه ويشتاق إليه لتكون هذه المقدمة تعريفاً وترغيباً بالقبلة الجديدة وخصائصها وفيه دعوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بالشكر لله عز وجل والثناء عليه، وبعدها جاء قوله تعالى (فول وجهك).

لتكون وظيفة الفاء وتكرارها في الآية وذات الفعل وصيغة الأمر ثلاث مرات هي (فلنولينك) (فول وجهك) (فولوا وجوهكم) تأكيداً للحقيقة وهي التابع وإنعدام الفترة والمدة بين كل فرد منها والآخر، وتلك آية في رحمة الله عز وجل بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في أمور دينهم، ويدل ذكر (البيت الحرام) بالاسم على معرفة المسلمين به بهذا الاسم وما يفيد من القدسية، وورد لفظ (المسجد الحرام) خمس عشرة مرة في القرآن، وفيه بيان لعظيم منزلته في الأحكام وحياة المسلمين والناس.

(١) تفسير ابن كثير ٥٢٧/٦.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

وورد مرة بلفظ الكعبة والبيت بقوله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾^(١)، وورد لفظ (شطر) خمس مرات في القرآن كلها بخصوص إستقبال البيت الحرام مرتين في هذه الآية وكذا في الآية التالية، والخامسة في قوله تعالى ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢)، ويدل هذا التعدد والبيان على موضوعية مسألة القبلة ولزوم إتقياد المسلمين لأوامر الله عز وجل ومنع الإختلاف فيها.

ومن الإعجاز في نظم هذه الآية أنه بعد الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإستقبال البيت الحرام توجه ذات الأمر إلى المسلمين والمسلمات، ومنه أن النصوص وردت بتحول المسلمين والمسلمات في القبلة وأن الخطاب توجه للمسلمات أيضاً بعرض واحد مع المسلمين وأنهن إشتراك بالامثال لتحويل القبلة حال نزول الآية.

وعن مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين^(٣).

ثم تضمنت الآية الحجة والإحتجاج على أهل الكتاب بأنهم يعلمون بأن إستقبال البيت الحرام حق وصدق وتنزيل من عند الله عز وجل، لتختتم الآية بالإندار والتحذير من إيذاء المسلمين في موضوع القبلة.

وبين الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأمر للمسلمين بالتحول إلى البيت الحرام قبله نسبة العموم والخصوص المطلق لفظاً، ونسبة

(١) سورة المائدة ٩٧.

(٢) الآية ١٤٩.

(٣) الكشف والبيان ٢٦١/١.

التساوي في المعنى والدلالة، فجاء الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فول وجهك، بلا شرط، بينما جاء الأمر إلى المسلمين في تفصيل وإطلاق مكاني ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ وفيه بشارة تعدد أمصار المسلمين، وخروج المهاجرين والأنصار إلى الأمصار فاتحين ومقيمين وكان النبي يعدهم به وكأن هذا الوعد تفسير لآيات القبلية هذه، وفي قوله تعالى ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾^(١)، في واقعة الأحزاب قال محمد بن إسحاق: ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير -أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يَعدُّنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط^(٢).

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : بيان إكرام الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإخبار القرآن عن رؤية الله عز وجل لتقلب وجهه في السماء.

الثانية : إنقطاع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للوحي والتنزيل في أمور العبادات، قال تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٣).

الثالثة : توثيق الآية لتحويل قبلة المسلمين بأمر من الله عز وجل.

الرابعة : بيان حقيقة وهي أن الإستقبال يعني التوجه في الصلاة والمناسك إلى البيت الحرام.

الخامسة : بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى

(١) سورة الأحزاب ١٠.

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) سورة طه ١١٤.

المبادرة الفورية لإستقبال البيت الحرام، وفيه دعوة لعدم تفويت الثواب من وجوه:

الأول : ثواب الإمتثال الفوري للأمر الإلهي.

الثاني : ظهور المسلمين بصبغة الطاعة لله عز وجل.

الثالث : إتباع المسلمين لما يأتي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي، وأن تصديقهم بنبوته إبتداءً واستدامة وعلى نحو التجدد في كل واقعة وعند نزول كل أمر أو نهى نعمة ومناسبة للأجر خاصة في مسألة القبلة وهي عامة الإبتلاء والأختبار ومتجددة خمس مرات في اليوم بالصلاة إلى جانب المندوبات الأخرى، التي للقبلة والإستقبال موضوعية فيها.

الرابع : بعث اليأس في قلوب الكفار من إرتداد بعض المسلمين.

السادسة : إتحاد ماهية الأمر والإمتثال بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، والجامع في الإستقبال هو شطر المسجد الحرام، فلا يخالف أي جيل من المسلمين وجوب إستقبالهم البيت الحرام.

السابعة : صيرورة موضوع القبلة مناسبة وسبباً لوحدة المسلمين.

الثامنة : إقتران الحجة مع الأمر بإستقبال البيت الحرام بالإخبار عن علم أهل الكتاب بأن إستقبال البيت الحرام حق وتنزيل .

التاسعة : إبتداء الآية بالشارة للمسلمين والقطع والتعيين للقبلة، وإختتامها بالإندار والوعيد الذين يؤذون المسلمين بأن ينكروا إستقبالهم للبيت الحرام في صلاتهم ومناجاتهم.

التفسير

قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾

تخبر الآية عن حالة ترقب وشوق عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبلحاظ القرائن، والكبرى الكلية وهي ان النبي معصوم قبل النبوة وبعدها، وانه مؤيد بالوحي والتنزيل وأن النبوة منزهة من أسباب الحيرة والتردد،

ومن مصاديقه إنتظار الأمر الإلهي والتوثب والإستعداد للإمثال النوعي من المسلمين كافة، وان النبي يعلم بأن أوانه قد حان لتجلي أسباب وعلة هذا التطلع على وجوه:

الأول : إستحضار القرائن والأمارات الكونية فبالملازمة بين ما يحدث في الأرض وما يرى في السماء وعلم الهيئة أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم حلول أوان تحويل القبلة.

الثاني : ترتيب نزول الآيات والتدرج في الأحكام.

الثالث : الإخبار الإلهي عن طريق جبرئيل بقرب تحويل القبلة لتهيئة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأمر تخفيفاً وتأدياً.

الرابع : ظهور دلالات وعلامات على قرب تغيير القبلة، كما لو كان الإستعداد للأمر الإلهي ظاهراً في حركة وإتجاه الملائكة والإستعداد المملوكوتي لهذا الفيض الإلهي المبارك.

الخامس : الإطلاق في تقلب وجه النبي في السماء وأنه أعم من أن يتعلق بالقبلة إذ أنه ينتظر أمراً ما ينزل به جبرئيل فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوقع حادثاً وأمراً خطيراً سيحدث في الكون وعالم السماء أو التنزيل وأحكام القرآن، فجاءت الآية لتخبر عن الأمر المنتظر والمتوقع وهو تحويل القبلة وتغييرها.

السادس : ما كان يعانيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بعضهم وتغييرهم للمسلمين بانهم يتخذون ذات قبلتهم فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرجو حل هذا الموضوع والتخلص من التعريض سواء أمر الله عز وجل بالتبديل أو بالرد وإقامة الحجة عليهم، وعلى هذا الفرض يكون موضوع تطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السماء غير منحصر بمسألة تحويل القبلة بل هو التفويض واللجوء الى الله.

السابع : تطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للسماء يفيد الرجاء ونزول الفضل الإلهي والوحي وانه ينتظر إطلالة إنتصار الإسلام وسيادته في

الأرض، وهذا القول يفتح آفاقاً من الدراسة ويظهر كنوزاً مدخرة في الآية الكريمة أي ان تحويل القبلة فيه إنتصار للإسلام وعزة للمؤمنين وأن للقبلة منزلة في إنتصار وسيادة الإسلام.

الثامن : لم يكن اتصال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسماء بالوحي او القرآن وحده بل بما هو اعم فيشمل الوحي مطلقاً، والحديث القدسي، وتحديث الملائكة، والسنة، لذا نقول بان السنة ايضاً من عند الله تعالى ولكنها ليست منزلة باللفظ انما بالمعنى ويدل عليه اطلاق قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَىٰ﴾ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ^(١).

التاسع : تقلب وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السماء نوع تسليم لأمره تعالى واقرار بالعبودية والرضا بما قسم.

العاشر : انه نوع شكاية والتجاء اليه تعالى أي اعم من ان يتعلق بالقبلة وحدها، وهو فرع الى الباري عز وجل للنجاة من كيد الكافرين ومحاربة الظالمين.

الحادي عشر : يعتبر موضوع تغيير القبلة أمراً وتحدياً عقائدياً بالغ التأثير والأثر، وفي بعض الأخبار أن من أهم أسباب التحريض في قتل عيسى عليه السلام أنه أبدل قبلة موسى بخلاف جهتها.

الثاني عشر : تعدد مضامين الإكرام الإلهي في مسألة تقلب بصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آفاق السماء والإستعداد المتقدم لتلقي الحكم الشرعي والإمثال الأحسن للأمر الإلهي.

الثالث عشر : ورد موضوع القبلة من باب المثال وليس الحصر فيما يتعلق بالمقدمات والتهيئة للتشريع الجديد وان كثيراً من الأحكام سبقتها أمارات وعلامات موطئة لنزولها والعمل بها.

الرابع عشر : لعل تقلب الوجه في السماء كناية عن الدعاء والتضرع الى

الباري عز وجل، وقد روي عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل: (وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها؟ فقال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك، ولا أملك لك شيئاً إلا ما أمرت، فادع ربك وسله، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي سأل)^(١).

الخامس عشر: من المفسرين من فهم تقلب وجهه صلى الله عليه وآله وسلم انه ما كان يتكلم بتحويل القبلة وان كان يحبه وينتظره صحيح، قد يكون جموداً على النص، والآية القرآنية لها معان ومضامين تتعدى الظاهر.

السادس عشر: لأن الكعبة كانت قبلة ابراهيم عليه السلام وانه اعاد بناءها وهياها مقدمة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوقع تحويل الإستقبال إليها، قال تعالى ﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾^(٢).

السابع عشر: لعل في تعدد قبلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مصداقاً لورائته الأنبياء والمرسلين والحجة على بني إسرائيل بأن الله عز وجل رزقه ما كان عند موسى عليه السلام وزاد عليه.

الثامن عشر: ورود (قد) للتكثير وعدم وجود قرينة على نشأة قيامه صلى الله عليه وآله وسلم بتصريف وجهه في السماء دفعة واحدة وابتداء، يحتمل ان النبي كان يتطلع الى تحويل القبلة منذ وصوله الى المدينة المنورة.

في موضوع الإستقبال في بدايات البعثة النبوية في مكة وجوه:

الأول: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوجه الى الكعبة.

الثاني: يتوجه إلى بيت المقدس ويجعل الكعبة أمامه.

الثالث: السعة في أمر القبلة مرة إلى الكعبة، وأخرى إلى بيت المقدس

(١) الدر المنثور ١/٢٧٩.

(٢) سورة البقرة ١٢٧.

على نحو التخيير.

والأصح هو الثاني لأن إكرام الكعبة من وظائف النبوة وإن لم يشرع في إستقبالها على الفور بسبب عقائدي أو حكمة في التشريع أو وجود المانع وليس إنعدام المقتضي، وعن الحلبي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال سألته: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم، فقلت: أكان يجعل الكعبة خلف ظهره؟ فقال عليه السلام: أما إذا كان بمكة فلا، وأما إذا كان هاجرها إلى المدينة فنعم حتى حول إلى الكعبة .

(ونسب إلى ابن عباس أن التوجه إلى بيت المقدس كان فرضاً محققاً بلا تخيير)^(١).

التاسع عشر : أثر تحويل القبلة أعم من أن ينحصر بموضوعه فهو إنعطاف وتحويل في مسالك الإيمان يعرف به المؤمن من المنافق ويظهر قوة الإسلام وإستقلال المسلمين في قبلتهم وعودتهم إلى قبلة إبراهيم من غير خوف من أهل الكتاب.

العشرون كان إستقبال بيت المقدس إمتحاناً لأنه مؤقت فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتطلع إلى تبديل القبلة تخفيفاً عن المسلمين قبل أن يعتادوا إستقبال بيت المقدس ويصعب عليهم التغير.

الحادي والعشرون : تحويل القبلة مرحلة من مراحل التغير والإرتقاء في منازل الثبات والرسوخ العقائدي، فأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تتم هذه المرحلة العبادية ليتوجه المسلمون إلى التالي من الصيغ الجهادية والعبادية فلا غرابة أن ترى تبديل القبلة وفرض الصيام والزكاة في نفس السنة وهي السنة الثانية للهجرة، الأمر الذي يستلزم التحقيق لأنه يفتح الباب لآفاق من العلوم وإستقراء خصوصيات هذه السنة وفيه درس لأهل الحل

والعقد في الأمة وأمصارها لإتخاذ القرارات المناسبة، وإن كانت متعددة ما دام المقتضي موجوداً والمانع مفقوداً.

الثاني والعشرون : مع أن لفظ شطر يعني النصف وقسمة الشيء والجزء منه كما ورد في الحديث قوله عليه السلام: (السواك شطر الوضوء)^(١)، فإنه لم يرد في القرآن إلا بخصوص التوجه إلى البيت الحرام وتكرر خمس مرات في ثلاث آيات مما يشير إلى إستقلال القبلة وإنفرادها بخصوصية معينة.

الثالث والعشرون : القبلة من تخوم الأرض إلى عنان السماء، كما في الرواية لذا قد يكون قلب الوجه وتصريفه التطلع إلى القبلة وجهتها في السماء وإنفراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك قبل أن يتوجه المسلمون لها.

الرابع والعشرون : تبدل القبلة إنذار ببدء الإعراض عن آخر ما في أيدي الغير أي أنه آية إنذارية.

الخامس والعشرون : التطلع إلى السماء وحده وعلى نحو مجرد من الأغراض الإعتبارية الزائدة، وفيه مواظ وعبر وهو مناسبة للتدبر بعظيم قدرته تعالى.

السادس والعشرون : إن التغيير والتحويل الفوري الدفعي لأمر القبلة يجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستعد له بالتطلع إلى السماء.

السابع والعشرون : نسب إلى ابن عباس القول بأن أمر القبلة أول ما نسخ من القرآن وهو أمر يستدل به كثير من العلماء على حصول النسخ، ولكن إستقبال بيت المقدس غير مذكور في القرآن.

ومن شرائط النسخ وفق الإصطلاح تضمن القرآن للناسخ والمنسوخ إلا أن يقال بأن قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنَّا عَلَيْهَا﴾^(٢) يدل على سبق

(١) البحار ١٣٦/٧٣.

(٢) الآية ١٤٣.

إستقبال بيت المقدس ونسخه فهو نسخ في الحكم وثقه القرآن.

الثامن والعشرون : عدم ذكر إستقبال بيت المقدس بالنص في القرآن آية اعجازية للتخفيف والاشارة بأنه لم يكن على نحو الثبوت والدوام فقد ذكرته الآية بأنه القبلة التي كان عليها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

التاسع والعشرون : يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم علم ان القبلة ستحول عن بيت المقدس وأن جبرئيل أخبره به ولكنه لم يعين جهة القبلة الجديدة، فاخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتطلع في السماء لتلقي الأمر الإلهي قبل اقامة الصلاة.

الثلاثون : هذا الوصف البياني الكريم لمقدمات تحويل القبلة مثال لكيفية تأديب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وشاهد على مقدمات نزول الحكم الإلهي وما فيه من الأعباء.

تظهر الآية أدب العبودية عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتعدد رمي بصدده إلى السماء بخصوص القبلة وعنه قال : إن الله اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً^(١).

وتدل كثرة رمي النبي بصدده إلى السماء بلحاظ الآية على أمور:

الأول : إبتداء الآية بالحرف (قد) والذي يراد منه في الآية التكثير.

الثاني : ورود لفظ تقلّب وما في التشديد في لفظه من معنى الكثرة.

الثالث : إفادة حرف الجر في (تقلّب وجهك في السماء) معنى نحو السماء، ولكن معنى حرف الجر (في) في الآية أعم ويشمل الظرفية ومعنى إلى كما في قوله تعالى ﴿فَتَهَاجَرُوا فِيهَا﴾^(٢).

ولم يرد لفظ (نرى) في القرآن بنسبته إلى الله إلا مرتين ، والثانية جاءت بخصوص الإحتجاج على الكفار في الآخرة بقوله تعالى ﴿وَمَا نَرَىٰ

(١) المستدرك على الصحيحين ١١/١٤٢.

(٢) سورة النساء ٩٧.

شَفَعَاءُكُمْ^(١)، وورد لفظ (تقلب) مرتين أيضا في القرآن، وجاءت الثانية بقوله تعالى ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ^(٢)﴾.

وتدل الآية على عناية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالعبادة وتأسيس قواعد المناسك للمسلمين، وتثبيت شرائط الصلاة وإلى يوم القيامة، فلو لم يتم تحويل القبلة بالوحي والتنزيل لا يحصل تغييرها، مع أنها من أعظم النعم على المسلمين لذا وصفها الله عز وجل بأنها ترضي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهل هذا التحويل يرضي الله الجواب نعم، لأنه رحمة ورأفة، بدلالة الأمر به، ورضا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما يترشح عنه من تعاهد فريضة الحج.

ومن أسرار تغلب وجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السماء هو تفضل الله عز وجل بتطهير البيت الحرام بقوله تعالى ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فان النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يدرك أن أبويه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد أصلحا البيت تطهيراً وتنفيذ من الرجس ليتوجه له النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون في صلاتهم، فتؤدي الصلاة في طهر وإلى بيت الله الطاهر المطهر.

قوله تعالى ﴿فَلْيُكَيِّدْكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾

الأول : إخبار سماوي بأن تبديل القبلة من الله تعالى وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس له فيها أمر.

الثاني : يفيد الأمر الرضا بالقبلة ولم ينف الشأنية فيها ولو على نحو

(١) سورة الأنعام ٩٤.

(٢) سورة آل عمران ١٩٦.

الدعاء والسؤال والإنفراد بالتبليغ والإعلام المسبق المتقدم على زمان التشريع وأوان الواجب الفعلي.
إنه يدل على عظيم منزلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند الله عز وجل.

الثالث : هل الرضا:

- امر سابق لأوان هذا التبديل.
- سيحصل بالتبديل.
- يتعلق بذات القبلة والبيت الحرام أي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يرضى بالتبديل والتحويل الى البيت الحرام.
- ان الرضا يتعلق بأمر الله تعالى فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يرضى حيث امر الله.

الجواب: ان هذه الوجوه تصلح مجتمعة ومتفرقة لإنطباق الرضا الوارد في الآية الكريمة من غير تعارض بينها، فكل منها من مصاديق الرضا الحاصل فعلاً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابع : الخطاب والرضا جاء بصيغة المخاطب المفرد ، والمراد به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع أن التكليف عام للمسلمين ، فالمراد الأمة مجتمعة ومتفرقة عبر الأزمان المتعاقبة والأجيال المتلاحقة.

الخامس : الآية بشارة على إتمام حكم القبلة الجديدة.

السادس : إنها إخبار إعجازي عن سيادة الإسلام ورسوخ أحكامه ، والتمكين من أدائها.

ويدل مقام الفاء في (فلنولينك) على كثرة مسؤوليات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووظائفه الرسالية بفضل الله ، فلم يتركه الله عز وجل يطيل التطلع إلى السماء والتعلق بنزول الوحي بمسألة مخصوصة وعلم جديد بخصوص القبلة فتفضل سبحانه وأنزل آيات القبلة وتعيينها ، وهو من

عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

ولا يدل رضا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن إستقبال البيت الحرام على عدم رضا عن إستقبال بيت المقدس لأن إثبات شئ لشئ لا يدل على نفيه عن غيره، وموضوع القبلة كله خير محض.

والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم راض عن كل أمر من الله عز وجل، ومنه رضاه بالناسخ ورضاه بالمنسوخ من الأحكام، وحب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لإستقبال البيت الحرام لما فيه من الثواب العظيم للمسلمين وفيه دلالة على أن الله يعلم ما في القلوب، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢).

وفي الآية إكرام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن الله عز وجل يخبر عما يرضيه، ويستجيب له ويعجل بنسخ القبلة، وهل هذا الرضا من مصاديق قوله عائشة للنبي بخصوص نسائه: مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يَسَارِعُ فِي هَوَاكَ^(٣)، الجواب لا.

وفي موضوع رضا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص القبلة مسائل:

الأولى : إنه فعل عبادي يتعلق بصلاة ومناسك المسلمين إلى يوم القيامة.
الثانية : في تحويل القبلة إلى البيت الحرام تثبيت لدعائم الدين وصرح التقوى، وتعاهد المسلمين للعبادات التي أراد الله عز وجل لعباده وهو الذي يرضى به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويريده.

الثالثة : إن رضا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في نسخ القبلة

(١) سورة يس ٨٢.

(٢) سورة غافر ١٩.

(٣) المسند الجامع ٢٧٥/١٩.

لقانون كلي يتجلى في قوله تعالى ﴿وَكُلَّ وَجْهٍ هُوَ مُوَكَّلٌ بِهَا﴾^(١)، فلا بد أن قبله المسلمين تدل على إستقلالهم بمناسك العبادة.

الرابعة : يدل قوله تعالى (قبله ترضاها) على إدراك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن الإسلام والمسلمين من المهاجرين والأنصار أصبحوا في حال من القوة والمنعة بحيث لا يضرهم تحول القبلة وتعدي غيرهم عليهم بسببها.

ومن الإعجاز في المقام ما ورد في الآية قبل السابقة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ﴾ أي أن الذين لم يرضوا بتحول المسلمين قبلتهم صاروا عاجزين عن البطش بالمسلمين بسبب تغيير القبلة ، ويدل عليه أيضاً نعتهم بالسفهاء أي أن أهل العلم والعقلاء من أهل الكتاب لم ينكروا تحول المسلمين في قبلتهم وفي الآية التالية ورد قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(٢).

وإذ أخبرت الآية عن رضا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم باستقبال البيت الحرام، فتحتمل وجوهاً بالنسبة للمسلمين:

الأول : تبعية رضا المسلمين لرضا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : يأتي رضا المسلمين لاحقاً بعد تحويل القبلة.

الثالث : موضع الرضا بخصوص القبلة خاص بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

والصحيح هو الأول، وما يرضي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يرضي المسلمين جميعاً، ورضاه في المقام من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

(١) الآية ١٤٨.

(٢) الآية ١٤٤.

إِلَارْحَمَةَ الْعَالَمِينَ﴿^(١)﴾، فهو يريد استقبال البيت الحرام لما فيه من الدعوة إلى الإسلام والثبات في منازل الإيمان، والحرب على الشرك .
وهل فيه مقدمة لفتح مكة، الجواب نعم لدلالة إستقبال البيت الحرام على قدسيته ، وبعث الشوق والعزم في نفوس المسلمين للفتح ومنع إستدامة إستحواذ الكفار ومفاهيم الشرك على البيت وهذا المنع من مصاديق وصف البيت بالحرام.

قوله تعالى ﴿فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

الأولى : الفاء حرف عطف للبيان والتفسير، والإخبار عن القبلة الجديدة للمسلمين.

الثانية : الآية تحديد صريح ومبارك للقبلة على نحو الدقة وليس الإجمال.

الثالثة : الشطر البعض والجزء والناحية، والمراد منه هنا الكعبة ومع بعد البيت الحرام، فان الآية تضمنت لفظ الشطر تخفيفاً وسعة.

الرابعة : جاءت الآية بخطاب الجمع بعد المفرد المخاطب مما يدل على عظيم المسؤولية وأهمية الحكم في حياة كل مسلم وفي كل زمان وهو أعم من عطف العام على الخاص.

الخامسة : فيها أمر بتبعية المسلمين للنبي في ما يقوم به أو ما ينسخ من الحكم.

السادسة : إنها دعوة للإتيان والتسليم وإجتناى المماثلة في ظلم بعض من سبق المسلمين من الملىين بالرد على الأنبياء وسؤالهم، والإكثار من الشبهات ووجوه الشك كما في الأمر بذبح البقرة إذ سميت بها أكبر سورة من القرآن، وفي موسى ورد في التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا

أَتَّخِذْنَا هُزُوراً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(١).

السابعة : لعل في الآية إضفاءً لنوع من التداخل على معاني آيات السورة، ومنها مسألة القبلة وورودها في هذه السورة لتعلقها بذات الموضوع الذي أشارت إليه الآيات السابقة التي تضمنت ذكراً وتعداداً لأفعال الأهل بعض الملل السابقة.

الثامنة : موضوع البقرة قضية عين، وشخصية في واقعة وإن كانت تتم عن سجايا إلا أن القبلة أعم منها وتتعلق بالعقائد والأحكام الشرعية مما يدل على الأهمية الإضافية.

التاسعة : ما في الآية من الأحكام والسنن وحسن إمثال المسلمين لها مناسبة لدراسات مقارنة بينهم وبين الملل الأخرى وهو من مصاديق نيل المسلمين لمرتبة ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

العاشرة : يستلزم هذا الباب التسليم وحسن الإستجابة لعدم إدراك عقول البشر القاصرة لعلل الأحكام.

الحادية عشرة : جاء الأمر العام في الآية ليكون خطاباً إنحلالياً يشمل كل مسلم ومسلمة فينعدم الشك وينقطع التردد.

الثانية عشرة : الآية واقية وحرز ضد أهل الريبة.

الثالثة عشرة : في الآية دلالة وتوكيد بأن المسلمين يستجيبون للحكم الشرعي حتى ولو كان موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما دام مجرداً عن القرائن التي تفيد حصر الحكم به.

الرابعة عشرة : لا بد من دلالات على إجماع الأمر الخاص والعام في آن واحد منها إرادة نسخ القبلة دفعة واحدة وليس على نحو التدرج خصوصاً وأن الصلوات آنذاك كانت تقام في المدينة وغيرها جماعة.

(١) سورة البقرة ٦٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الخامسة عشرة : يكون المسلمون عوناً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في إتمام تحويل القبلة ومنع التأثير السلبي والضار للشكوك والشبهات التي أثارها بعضهم.

السادسة عشرة : جاء قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ ﴾ بصيغة الجمع أي أسقط في أيديهم، ولم يعد لهم تأثير على المسلمين لأنه يدل بالدلالة التضمنية على التسليم بحصول التبديل وهو ظاهر للعيان.

السابعة عشرة : في فريضة يومية واحدة من الصلاة تغيرت وتحولت القبلة وإلى يوم القيامة، الأمر الذي حال دون حصول إبتلاءات محتملة مصاحبة له او متفرعة عنه.

الثامنة عشرة : عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ الآية، قال: "استقبل القبلة ولا تقلب وجهك عن القبلة فتفسد صلاتك فان الله يقول لنبيه في الفريضة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾" (١).

يفيد الجمع بين آية البحث وقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ (٢) أن صلاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين كلها باستقبال قبلة معينة، وهي على قسمين لا ثالث لهما:

الأول : البيت الحرام.

الثاني : بيت المقدس.

وجاءت آية البحث والسياق لحصر القبلة بالبيت الحرام، وأن القبلة جزء

(١) الآية ١٤٤.

(٢) الآية ١٤٢.

من الصلاة وهي عنوان إخلاص العبادة لله عز وجل ونبد الشرك مع إدراك بأن الله عز وجل في كل مكان.

مسائل فقهية

أولاً : البعيد الذي لا يقدر على التوجه إلى عين الكعبة يكفيه جهتها وسمتها، واقرب كيفية للإستقبال يرجح كونها الأنسب وفق الدليل أو الأمانة الشرعية المتيسرة.

ثانياً : يجب إستقبال عين الكعبة على الأقوى مع الإمكان لا المسجد الحرام أو الحرم ولو للبعيد، وفيه أخبار عديدة وصحيحة السند وروي(إن النبي عليه الصلاة والسلام لما خرج من الكعبة ركع ركعتين في قبة الكعبة وقال: هذه القبلة) ^(١)، وقيل أنها تفيد الحصر، وذكر أن الكعبة قبة لمن في المسجد والمسجد قبة لمن في الحرم، والحرم لمن هو خارج عنه، وإستدلوا بإخبار ضعيفة السند ويمكن إعتبارها امتنانة لتسهيل جهة القبلة وإتساعها عند البعد ومشقة التوجه الى الكعبة، وهذا القول روي عن ابن عباس قال(الييت كله قبة وقبة الييت الباب و الييت قبة أهل المسجد، و المسجد قبة أهل الحرم، والحرم قبة أهل الأرض كله) ^(٢)، لبيان ان الحرم قبة لأهل المشرق والمغرب وبه قال مالك، وجماعة من الفقهاء ذهبوا الى القول الأول بان الكعبة هي القبلة لنصوص تفيد حصر القبلة بالكعبة وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى ركعتين في قبل الكعبة وقال هذه القبلة.

ثالثاً : مع عدم العلم بجهة الكعبة والخط المستقيم الذي يمتد بين المصلي وبينها يرجع إلى العلامات والأمارات المفيدة للظن وهي كثيرة ومتعددة

(١) مفاتيح الغيب ١٤/٤.

(٢) مجمع البيان ١/٢٢٧.

بتعدد الآفاق والبلدان، فيمكن ان يكون لكل بلد علامة أو أكثر، وقد يلتقي مع غيره في تلك العلامة أو لا يلتقي، وأغلبها جملة وتقديرية ومنها قواعد علم الهيئة وأقوال أهل الخبرة فيها، ومنها معرفة خطوط الطول والعرض لمكة المكرمة ولبلد المصلي والبوصلة ونحوها، وبعضها يتعلق بالشمس أو إتجاه الرياح أو تضاريس الأرض.

رابعاً : الأمارات المفيدة للظن التي يجب الرجوع إليها عند عدم إمكان العلم عديدة منها:

• الجدّي بفتح الجيم وسكون الدال، وهو نجم كالثابت في موضعه ومنصوص عليه في الجملة، ويعتبر في علم الهيئة من الأدلة التقريبية، لذا جعلناه من الأمارات ومفردها أمارة -بفتح الهمزة - وهي الطريق المجعول في حق الجاهل، فيجعله من في أواسط العراق مثل بغداد والحلة خلف المنكب الأيمن، والأحوط ان يكون ذلك بلحاظ غاية إرتفاعه أو إنخفاضه والمنكب ما بين الكتف والعنق، وفي البصرة وما والاها من البلاد عند الإذن اليمنى، وفي الموصل وما بناحيتهما بين الكتفين، وفي الشام خلف الكتف الأيسر، وفي عدن بين العينين، وفي صنعاء على الإذن اليمنى، وفي الحبشة صفحة الخد الأيسر.

• سهيل وهو عكس الجدّي.

• الشمس لأهل العراق إذا زالت عن الأنف إلى الحاجب الأيمن عند مواجهتهم نقطة الجنوب.

• جعل المغرب على اليمين والمشرق على الشمال لأهل العراق أيضاً فيوضع الجدّي بين الكتفين كما في الموصل.

• الثريا والعيوق لأهل المغرب يضعون الأولى عند طلوعها على الأيمن، والثاني على الأيسر.

• من الأمارات قبله بلد المسلمين في صلاتهم وقبورهم ومحاريبهم إذا لم

يثبت أنها غير صحيحة.

خامساً : الأقوى أن معرفة دلائل القبلة واجب كفائي فالأمر بالإستقبال خطاب إنحلالي ينحل على عدد المكلفين وفي الأزمان الطولية وإن الواجب لا يتحصل إلا به، ولكن قاعدة نفي الحرج والميسور لهما الحكومة، لذا يجوز الإكتفاء بقول أهل الخبرة وسيرة المسلمين، لما يستلزمه تحديده من دراسات وإختصاص هندسي مقرون بمشقة وتحصيل، وتباين الأقوال حيثئذ يجعله لا يرقى إلى الواجب العيني وقد أصدرنا بياناً عاماً إقترحنا فيه إيجاد جهاز أو أجهزة لتحديد قبلة كل موضع من الأرض على نحو الدقة، خاصة مع الإرتقاء العلمي والأقمار الصناعية.

فيما يستقبل له

الصلوات اليومية أداء وقضاء وتوابعها من صلاة الإحتياط للشكوك وقضاء الأجزاء المنسية وسجدي السهو، وكذا سائر الصلوات الواجبة كصلاة الآيات، ويجب في صلاة النافلة حال الإستقرار وليس في حال المشي أو الركوب، ولا يجب الإستقبال والإستقرار في صلاة النافلة وإن صارت واجبة بالعرض كالنذر ونحوه، وهذا لا يمنع من الملازمة بين الإستقرار فيها وبين الإستقبال.

كيفية الإستقبال

الأول : المصلي عن قيام يكون وجهه ومقادير بدنه إلى القبلة حتى أصابع رجليه على الأحوط، ويكفي الصدق العرفي ولا يلزم الدقة على نحو عقلي، أما في حال الصلاة عن جلوس فيكون وجهه إلى القبلة وكذا صدره وبطنه وعينا ركبتيه، وإن جلس على قدميه لابد أن يكون وضعهما على وجه يعد مقابلاً للقبلة.

الثاني : الذي يصلي مضطجعا يجب أن يكون كهيئة المدفون، أي أن رأسه إلى المغرب ورجليه إلى المشرق مضطجعا على جانبه الأيمن بالنسبة

لأهل العراق أو بحسب إتجاه القبلة في بلده، وإن صلى مستلقياً فكهيئة المحتضر أي أن باطن قدميه إلى القبلة بحيث لو جلس كان مستقبلاً.
الثالث : يجب جعل المحتضر في حال الإستقبال، وكذا المدفون وبالكيفية التي تقدمت لكل منهما.

الرابع : الذبح والنحر بأن يكون المذبح والمنحر ومقاديم بدن الحيوان إلى القبلة، ولا يجب أن يكون الذابح أيضاً مستقبلاً ولكنه الأولى.
الخامس : لا يجوز الإستقبال حال التخلي بالبول والغائط.
يستحب الإستقبال في مواضع منها:

أولاً : حال الدعاء. ثانياً : قراءة القرآن.

ثالثاً : الذكر. رابعاً : التعقيب.

خامساً : المرافعة عند الحاكم. سادساً : سجدة الشكر.

سابعاً : سجدة التلاوة.

ثامناً : حال الجلوس مطلقاً، وعن الإمام الصادق عليه السلام: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر ما يجلس تجاه القبلة"^(١).
تاسعاً : يكره استقبال القبلة حال الجماع.

أحكام الخلل في القبلة

الأولى : الإخلال بالاستقبال عن علم وعمد مبطل للصلاة، وعليه الإجماع وحديث لا تعاد.

الثانية : لو كان عدم توجهه الى القبلة عن جهل أو نسيان أو غفلة أو خطأ في الاعتقاد، فإن كان بالإنحراف عنها إلى ما بين اليمين واليسار فالصلاة صحيحة ولو التفت في الأثناء يستقيم ويستقبل في باقي الصلاة إن تبين له الخطأ في الوقت، أما لو كان منحرفاً إلى جهة اليمين واليسار فإن كان قد تحرى واجتهد ولكن أخطأ يعيد هذه الصلاة، أما لو تبينت له

جهتها بعد خروج الوقت فلا إعادة، ولو كان مستدبراً القبلة فالأحوط الإعادة مطلقاً أي في الوقت وخارجه.

الثالثة : لو لم يتحر القبلة أو كان ناسياً، فالظاهر وجوب الإعادة في الوقت وخارجه إن كان منحرفاً الى جهة اليمين أو جهة اليسار أو كان مستدبراً.

الرابعة : إذا ذبح أو نحر إلى غير القبلة عالماً عامداً حرم المذبوح والمنحور، أما لو كان ناسياً أو جاهلاً أو لم يعرف جهة القبلة لا يكون حراماً، وكذا لا يكون حراماً لو تعذر إستقباله كما لو تردى الحيوان في بئر ونحوه فإنه يذبحه ويحل وإن كان إلى غير القبلة.

الخامسة : لو ترك إستقبال الميت أي وضع في قبره على غير إستقبال وجب نبشه ما لم يتلاش أو أن النبش يوجب هتك حرمة سواء كان ترك الإستقبال عن عمد أو جهل أو نسيان.

بحث روائي

اتفق المسلمون على أن تحويل القبلة حصل في المدينة بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لها، والأرجح أنه حصل في السنة الثانية للهجرة المباركة، وتقدمت الإشارة إليه.

وفي أكثر الروايات أنه في الشهر السابع عشر من بدء الهجرة النبوية وأنه كان في رجب في السنة الثانية منها أي قبل وقوع معركة بدر بنحو شهرين، وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى الى البيت المقدس ثلاث عشرة سنة وتسعة عشر شهراً بالمدينة ثم غيرته الى يهود.

وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ قال عليه السلام: تحولت القبلة الى الكعبة بعدما صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة الى بيت المقدس وبعد مهاجرته الى المدينة صلى الى بيت المقدس سبعة أشهر، قال عليه السلام: ثم وجهه الله الى الكعبة وذلك

أن اليهود كانوا يعيرون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولون له: أنت تابع لنا تصلي إلى قبلتنا.

فاغتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك غمّاً شديداً وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ينتظر من الله في ذلك أمراً لما أصبح وحضر وقت صلاة الظهر كان في مسجد بني سالم قد صلى من الظهر ركعتين فنزل عليه جبرائيل وأخذ بعضديه وحوله الى الكعبة وانزل عليه ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وكان قد صلى ركعتين الى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة فقالت اليهود والسفهاء ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(١).

وفي الدر المنثور عن البراء لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فصلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، او سبعة عشر شهراً وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحب ان يوجه نحو الكعبة فانزل الله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ...﴾ الآية^(٢)، وقريب منه رواه البخاري عن عبد الله بن رجاء وفي صحيح مسلم نحوه الا ان المدة ستة عشر شهراً^(٣).

بحث تاريخي

يعتبر تحويل القبلة معلماً تاريخياً عقائدياً ومن مفاخر البعثة النبوية ويوثق لنا حقيقة وهي تعدد صلاة الجماعة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيام النبوة مما يدل على ترسخ أحكام الإسلام والتسالم على أداء الفرائض وأنها أصبحت وبأيام معدودة جزء من الحياة اليومية للمسلمين في

(١) سورة البقرة ١٤٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣٧٠/١.

(٣) أنظر تفسير ابن كثير ٤٥٢/١.

بيوتهم ومحلاتهم، وأن المساجد تغشت أنحاء المدينة المنورة آنذاك، كما يبين عدم سهولة تحويل القبلة، وأنه لم ينحصر بالمسجد الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي فيه.

فبعد أن نزل جبرئيل بتغيير القبلة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المسلمين في صلاة الظهر وقد صلوا منها ركعتين فإن أهل مسجد قباء لما كانوا في صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين بيت المقدس ومستدبرين الكعبة باعتبار المسافة بينهما فقليل لهم: إن القبلة قد حوت إلى الكعبة فاستداروا وهم في الصلاة من غير طلب للينة والدليل، وحاز أهل المسجد شرف حسن الإستجابة بعد أن شرفه الله عز وجل بالقرآن بقوله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾^(١).

وقباء - بضم القاف - يذكر ويؤنث، موضع بالقرب من المدينة المنورة من جهة الجنوب نحواً من ميلين وأصبح في هذا الزمان جزء منها، كما أستدل بهذه الواقعة على عدم وجوب إستقبال الكعبة لأن الإستدارة كانت ظنية آنية وإرادة جهة المسجد وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إمضاه لهم مما يجعله ملحقاً بالسنة التقريرية، ولكنها قضية في واقعة لا إعتبار فيها للخطأ غير المتعمد ما بين اليمين واليسار، والقدر المتيقن منها توكيد إلزام المسلمين بالتنزيل واحكامه، وأصبح هذا المبحث صغروباً في هذا الزمان للإرتقاء العلمي والتقني الذي يمكن أن يساعد على تعيين القبلة على نحو الدقة.

قوله تعالى ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

المعروف أن الخطاب القرآني المتوجه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يراد منه الأمة ولزوم انقيادها له لأن النبي لا يفعل إلا ما يؤمر به من عند الله عز وجل مع تعدد أجيالها إلا أن يرد دليل على التخصيص وكونه قضية شخصية تشريفية كما في زيادة أزواج النبي على الأربع أو في إختصاصه بصوم الوصال الثالث في السنة، وعدم الأكل بالليل بين يومي الصيام، ونزول هذه الآية يعتبر مصداقاً تطبيقياً لهذه القاعدة.

فما أن أخذ جبرئيل بعضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإستدار إلى جهة الكعبة إستدار المسلمون من خلفه وهم في صلاة الظهر لما رسخ في أذهانهم بأن ما يؤمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم يراد منه الأمة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾^(١)، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمام في الصلاة عند تحويل القبلة .

ويمكن أن يقال أن الأصل في الخطاب القرآني هو العموم إلا أن يرد دليل على التخصيص ولكن هذه الآية جاءت بالخطاب العام بعد الخاص، وفيه مسائل:

الأولى : تثبيت الحكم وتوكيده.

الثانية : منع التردد فيه.

الثالثة : أنه نوع وقاية من التشكيك وأباطيل أهل الخصومة والنفاق.

الرابعة : بيان إنسباط مسؤولية إمضاء حكم القبلة الجديدة على كل مسلم مما يدل على عظيم أهميته وأثره.

الخامسة : خطورة ما كان يواجهه المسلمون في أمر القبلة وإتيان الفرائض.

السادسة : الحكم بالإستقبال جاء على نحو العموم الإستغراقي دفعة

واحدة، فليس ثمة فصل بين عمل النبي وعمل المسلمين إلا في حال العذر وعدم حصول التبليغ الآتي.

السابعة : نيل كل مسلم التشريف والإكرام بتلقي الأمر الإلهي مباشرة باستقبال القبلة الجديدة.

الثامنة : موضوعية إستقبال الكعبة في الحياة اليومية لكل مسلم.

التاسعة : الشمول المكاني للآية لتوكيد وحدة الحكم في إستقبال القبلة مع إختلاف الآفاق وتباعد الأمصار، ولدفع وهم إنحصار الإستقبال بالمناطق القريبة.

العاشرة : الإطلاق في إتحاد القبلة يعني سقوط إعتبار التباين الجغرافي والموانع الطبيعية من الجبال والبحار والمواقع الإصطناعية كالجدران والغابات.

الحادية عشرة : تدل الآية على إتحاد الحكم بالنسبة للعالم والجاهل، المختار والمضطّر، القائم والمستلقي، الذي يعيش في البلاد الإسلامية والذي يعيش وسط الكفار وفي بلدانهم.

الثانية عشرة : الآية بشارة على فتح الأمصار والبلدان النائية لما تدل عليه صيغة الإنكار من الإطلاق والماهية المجردة وعدم الحصر خصوصاً وأنها نزلت والإسلام لم يتعد أطراف المدينة إلا على نحو الموجبة الجزئية.

الثالثة عشرة : ظاهر الآية فيه بشارة على خروج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكتائب بعيداً عن مكة، وبيان لوظيفتها وانها ستكون حرزاً لهم، وآلة لمنع الإرباك والخلاف.

الرابعة عشرة : الواو في ﴿ وَحَيْثُمَا ﴾ تفيد الترتيب، أي أن أمر القبلة قد فرغ منه في المدينة بنجاح وتوفيق، وجاء هذا الشرط من الآية متعلقاً بيقاع الأرض المختلفة.

وفي تحويل المسلمين في قبلتهم وهم في الصلاة وجوه:

الأول : تحول القبلة في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين.
الثاني : نزول قوله تعالى ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحوّل في الصلاة واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين^(١) عن مجاهد وغيره.

الثالث : تدل الأخبار الواردة بخصوص تحويل القبلة على وجود صلاة جماعة في المدينة المنورة ونواحيها غير الصلاة التي يصلّيها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد النبوي، وتلك آية بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يغادر إلى الرفيق الأعلى إلا وقد تعددت صلاة الجماعة حتى داخل المدينة المنورة .

وأخرج ابن سعد وإن أبي شيبة والبزار عن أنس بن مالك قال: جاءنا منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن القبلة قد حوّلت إلى بيت الله الحرام، وقد صلى الإمام ركعتين فاستداروا ، فصلوا الركعتين الباقيتين نحو الكعبة^(٢).

وقال خلف بن ياسين الكوفي: حججت مع أبي في زمان بني أمية فرأيت في المدينة مسجد القبلتين يعني مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقبا وفيه قبة بيت المقدس، فلما كان زمان أبي جعفر قالوا : يدخل الجاهل فلا يعرف القبلة فهدم البناء الذي بني على يدي عبد الصمد بن علي^(٣)، ولكن لا بأس ببقاء أثر له لا يزاحم محراب القبلة بحال، ليكون معلماً يتعلق به موضوع تحول القبلة وما فيه من المواعظ والمسائل المستنبطة (ورأيت مسجد

(١)الكشف والبيان ١/٢٦١.

(٢)الدر المنثور ١/٢٨٢.

(٣)الكشف والبيان ٦/٢٢٧.

المنافقين الذي ذكروا الله تعالى في القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة^(١).

من أسرار ورود لفظ (شطر) وإرادة معنى الناحية والجهة أي أن بنية الكعبة لو هدمت لا سامح الله فإن إستقبال المسلمين يبقى على حاله بالتوجه لموضعها وهو سبب في إعادة بنائها إلى يوم القيامة، ومنها منع إستقلال المسلمين في بلد مخصوص إلى غير القبلة، وخروج الذي يخالف من الملة. ومن معاني الشطر وسط الشيء، فيكون المراد من وسط المسجد الحرام هو الكعبة لأنها تقع وسطه.

لقد جاء قوله تعالى ﴿فَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ﴾ خطاباً متجدداً لأجيال المسلمين الى يوم القيامة إذ تخاطبهم الآية بلزوم تعاهد إستقبال البيت الحرام، وهذا الإستقبال ليس تركة ووصية من الآباء فقط كما في وصية يعقوب لأبنائه ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾^(٢)، وإن كانت هذه الوصية حاجة في مقامات الإيمان فمع الوصية ووراثة الابن لأبيه المسلم إستقبال البيت الحرام فإن آية البحث تخاطب كل مسلم ومسلمة قبل وعند وبعد بلوغه بالتوجه إلى المسجد الحرام وإتخاذه قبلة، وهو من الشواهد على حفظ القرآن من التحريف، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣).

وجاءت الآية بصيغة الجمع لإرادة تقييد المسلمين باستقبال البيت الحرام في صلاة الجماعة وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على تسوية صفوف المصلين وما فيها من أسباب التعاهد النوعي العام لإستقبال

(١) الكشف والبيان ٢٢٧/٦.

(٢) سورة البقرة ١٣٣.

(٣) سورة الحجر ٩.

البيت فكلما كانت الفرغ بين المصلين أقل كان الإحتراز في إستقبال البيت أكثر، وأخرج ابن مردويه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام إلى الصلاة قال: استووا، تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، أقيموا صفوفكم يريد الله بكم هدي الملائكة، ثم يتلو ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾*وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^(١)(٢).

قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾

إعجاز قرآني في طيات الحكم الشرعي، فمع توجه الخطاب التكليفي إلى المسلمين ترى الإحتجاج وإقامة البينة والبرهان على أهل الكتاب في دعوة لإقرارهم بصحة التحويل ولزوم التسليم به لأنه وعد جاء به الأنبياء من قبل، وذكر أن شطراً من أهل الكتاب أنكروا الوحي به، وقالوا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إبتدعه من عنده مرة إلى بيت المقدس وأخرى إلى الكعبة، فانزل الله عز وجل هذه الآية لتكون وإلى يوم القيامة حجة عليهم وسلاحاً بيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والعلماء يتدارسون الكتاب، والعامّة تتبعهم لأن الآية لا تؤخذ باوان النزول وحده بل هي أكثر شمولاً وأعم موضوعاً، ولعموم الحجة فقد ينتفع منها الأدنى والتابع دون المتبوع والعالم، ومن سنن الديانات أنك تجد الفقراء والمستضعفين هم الذين يبادرون في الغالب إلى إتباع الحق عند رؤية الآيات.

والعلم بصدق نبوته صلى الله عليه وآله وسلم يتجلى عن التوراة والإنجيل وهما الكتابان اللذان يرجع إليهما أهل الكتاب.
قال الرازي: "ولابد ان يكونوا عدداً قليلاً لأن الكثير لا يجوز عليهم

(١) سورة الصافات ١٦٥-١٦٦.

(٢) الدر المنثور ٢٦٩/٨.

التواطؤ على الكتمان^(١).

ولكن صيغة إطلاق الجمع في الآية والشواهد التاريخية والوجدان يبين أن الآية أعم أشخاصاً وزماناً ومكاناً، وليس من ملازمة بين الكتمان من جهة، وبين قلة الذين يعرفون الحق ويصرون على عدم إتباعه، فقد يستحوذ الشيطان على كثرة فتبع الهوى، وتدل الآية الكريمة على الهدى، ولم تتعرض للكتمان بل إلى إقامة الحجة بمعرفة الحق، وترك الإصرار على جحوده.

وفي عائدية الضمير في ﴿أَنَّ الْحَقَّ﴾ وجوه:

الأول : يعود إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن الأنبياء السابقين بشروا به.

الثاني : ما يأتي به من الأحكام لرؤيتهم الآيات الباهرات، والإتفاق على صدقه وامانته.

الثالث : أمر القبلية وتحويلها.

الرابع : إنه جزء من الصلاة وهي حق، وما لكل يترشح على الجزء والشرط.

الخامس : نزل بالقبلية الجديدة قرآن مما يعني الثبات والدوام وعدم النفع من التشكيك وإثارة الفتن.

السادس : كان أهل الكتاب يعلمون بأن الكعبة هي قبله إبراهيم التي أعاد بناءها.

السابع : نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حق، ومن أحكامها وما تأتي به تحويل القبلة.

الثامن : لقد كان فريق من أهل الكتاب يعلمون أن الصلاة إلى القبليتين من علامات نبي آخر الزمان.

(١) مفاتيح الغيب ١٢٣/٤.

التاسع : الأمر بتحويل القبلة من عند الله تعالى، وليس ابتداءً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ليس من مانع من إجتماع هذه الوجوه أو بعضها لوحدة الموضوع في تنقيح المناط، ولتعدد المقاصد الشريفة للآية القرآنية وقابلية موضوع القبلة للشعب.

قوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

لقد جعل الله سبحانه الحياة الدنيا دار إمتحان واختبار تتصف بالزوال والإضمحلال، الزوال الذاتي والنوعي، فالذاتي هو إنقضاء أيام الإنسان فيها ومغادرته لها كرهاً، والنوعي بلوغ أيام الحياة الدنيا إلى نهاية وأجل لا تتعداه، قال تعالى ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾^(١)،

ومع أن موضوع الآية هو إستقبال المسلمين للبيت الحرام فإن خاتمتها تضمنت التذكير والوعيد وفيه تأكيد بموضوعية تحويل قبلة المسلمين في الصلوات بينهم وبين أهل الكتاب، ودعوة الناس لعدم إيذاء المسلمين فيه، وإجتناب إثارة الشك والريب.

وأخبرت الآية عن علم أهل الكتاب ثم ذكرت عملهم وأن الله يعلم به، وفيه وجوه:

الأول : علم الإنسان من عمله.

الثاني : إرادة العلم النوعي للطائفة وأهل الملة وأنه يدخل في العمل.

الثالث : إرادة ما يترشح عن علمهم بالقبلة من العمل والقول.

الرابع : المقصود من خاتمة الآية الأعم من موضوع القبلة فالمراد من قوله

تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مطلق أعمال البشر ومنها المعاملات والسنن والعادات، وأن الواو في قوله تعالى (يعلمون) تعود إلى الناس وليس إلى

فريق من أهل الكتاب.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وهو من خصائص لغة العموم في خواتيم آيات القرآن، وإرادة إنتفاع الناس منها سواء كانت بشارة أو إنذاراً.

الأولى : وعيد وتخويف لمن يؤذي المسلمين وينكر عليهم تحويلهم إلى القبلة الجديدة.

الثانية : إنذار وتنبية لكتمانهم الحق والبشارات الواردة بحق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة : تذكير وتوكيد سماوي لمعرفةهم تحويل القبلة وأنه حق.

الرابعة : دعوتهم لنبد الإصرار والإقامة على العناد، وإخفاء المطابقة بين صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما هو مذكور عنه في الكتب السابقة.

الخامسة : التخويف بعلم الله تعالى وإحاطته بالجزئيات باب للتوبة والصلاح وإقامة الحجة على الكفار والجاحدين.

قوله تعالى ﴿ وَلَنْ أَتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَ هُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الآية ١٤٥.

الإعراب واللغة

قرئ (وما أنت بتابع قبلتهم على الإضافة) ^(١).

ولئن: الواو إستثنائية، ويجوز أن تكون عاطفة أيضاً، واللام قيل انها موطئة للقسم، وإن: شرطية.

أتيت: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء: فاعل

الذين: اسم موصول في محل نصب مفعول به.

أوتوا الكتاب: فعل ماض مبني للمجهول، والواو: نائب فاعل، والكتاب: مفعول به ثان، بكل: جار ومجرور متعلقان بأتيت، آية: مضاف إليه، ما: نافية، تبعوا: فعل ماض وفاعل، قبلتك: مفعول به، والجملة لا محل لها، لأنها جواب القسم على القول بأن اللام للقسم.

وما: الواو: حرف إستئناف وقيل إعتراضية، ما: نافية تعمل عمل ليس،

أنت: ضمير منفصل في محل رفع اسم ما.

بتابع: الباء: حرف جر زائد يفيد التوكيد أي لا أتبع، وتابع: مجرور لفظاً منصوب محلاً بلحاظ انه خبر ما، قبله: مفعول به لاسم الفاعل (تابع) وهو منصوب (هم) ضمير متصل مضاف إليه.

وما بعضهم: الواو: حرف عطف والجملة تعرب كما تقدم أعلاه.
ولئن إتبعنا: مثل إعراب لئن أتيت، أهواءهم: مفعول به منصوب،
والضمير(هم) مضاف إليه.

من بعد ما جاءك: من بعد: جار ومجرور، ما: اسم موصول، جاءك:
جملة لا محل لها لأنها صلة ما.

من العلم: جار ومجرور في موضع نصب على الحال، إنك: إن وإسمها،
إذا: حرف جواب وجزاء، لمن الظالمين: اللام المرحقة والجار والمجرور
متعلقان بمحذوف خبر إن، وجملة إن وما في خبرها لا محل لها لأنها جواب
القسم.

في سياق الآيات

القبلة هي موضوع هذه الآيات تتحدث عنها على نحو العموم والتأثير
فبينما تناولت الآيات السابقة محاولات الإضرار بالمسلمين بسبب تبديل القبلة
وإستقرارها كحكم شرعي ثابت جاءت هذه الآية لتبين إنعدام التأثير على
اهل الكتاب في موضوع القبلة.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ...﴾^(١)،

وفيها مسائل:

الأولى: من وجوه الإلتقاء المباركة بين الآيتين أمور:

الأول: كل من الآيتين خطاب من الله عز وجل.

الثاني: تساوي جهة الخطاب مرة أخرى، إذ إبتدأت آية البحث بالخطاب

للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم خاطبت المسلمين، بينما إختصت
آية السياق بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث : إتحاد موضوع الآيتين بأن كلاً منهما تتعلق بالقبلة وتعيينها وإرادة جهة البيت الحرام.

الرابع : الإشارة إلى أهل الكتاب وذكر لفظ (الذين أوتوا الكتاب) في كل من آية البحث والسياق.

الخامس : تأكيد الحجة والبرهان في صحة وصدق تحويل قبلة المسلمين إلى البيت الحرام.

الثانية : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : قد نرى تقلب وجهك في السماء ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك.

الثاني : قد نرى تقلب وجهك في السماء وما أنت بتابع قبلتهم.

الثالث : قد نرى تقلب وجهك في السماء وما بعضهم بتابع قبلة بعض.

الرابع : قد نرى تقلب وجهك في السماء ولئن إتبع أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم.

الخامس : فلنولينك قبلة ترضاها ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك.

السادس : فلنولينك قبلة ترضاها وما أنت بتابع قبلتهم.

السابع : فلنولينك قبلة ترضاها وما بعضهم بتابع قبلة بعض.

الثامن : فلنولينك قبلة ترضاها ولئن إتبع أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم.

التاسع : فول وجهك شطر المسجد الحرام ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية

العاشر : فول وجهك شطر المسجد الحرام وما أنت بتابع قبلتهم.

الحادي عشر : فول وجهك شطر المسجد الحرام وما بعضهم بتابع قبلة بعض.

الثاني عشر : فول وجهك شطر المسجد الحرام ولئن إتبع أهواءهم من

بعد ما جاءت من العلم.

الثالث عشر: وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ولئن أتيتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك.

الرابع عشر: وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم.

الخامس عشر: ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما الله بغافل عما يعملون.

السادس عشر: وما بعضهم بتابع قبلة بعض وما الله بغافل عما يعملون.

السابع عشر: ولئن إتبعتم أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم وما الله بغافل عما يعملون.

الثالثة: بيان موضوعية العلم في تحويل القبلة بالإشارة إليه وذكر لفظه في الآيتين فأخبرت آية السياق بأن أهل الكتاب يعلمون أنه الحق، وأخبرت آية البحث بأن تحويل القبلة هو العلم.

الرابعة: جاءت آية السياق بالأمر المتعدد في لفظه المتحد في موضوعه إذ توجه الخطاب الإلهي في آية السياق بإستقبال البيت الحرام إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم إلى المسلمين بينما جاءت آية البحث بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على نحو الخصوص، ويلحق به المسلمون بالتبعية، وفيه نكتة فلأن وجوب الإستقبال فرض عيني على كل مسلم ومسلمة جاء الخطاب لهم على نحو التعيين.

أما الإحتجاج والنسبة بين قبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقبلة أهل الكتاب فأختص الخطاب فيها للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبيان أنه موعظة وسبيل هداية ومناسبة للتفقه في موضوع القبلة والإستبشار بنعمة تحويلها إلى البيت الحرام، وإصلاح المسلمين للجدال الأحسن في موضوعه وكيفيته، قال تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ^(١).

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٢)، وفيها

مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه منها:

الأول : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك.

الثاني : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها لنعلم من يتبع الرسول ولئن آتيت أهل الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك.

الثالث : وما أنت بتابع قبلتهم وما جعلنا القبلة التي كنت عليها.

الرابع : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ولئن إتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم.

الخامس : وما كان الله ليضيع إيمانكم ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بل آية ما تبعوا قبلتك.

الثانية : من خصائص الآية الوسط دعوة الناس إلى إستقبال البيت الحرام وإن إمتنعوا عن الإمثال.

الثالثة : لما أخبرت آية السياق عن شهادة المسلمين على الناس تضمنت آية البحث بقاء أهل الكتاب على قبلتهم وإن توجهت لهم البينة بأن إستقبال البيت الحرام حق وصدق، وفيه دعوة للمسلمين للصبر في طاعة الله والرضا بما كتب لهم، وعدم الالتفات إلى غيرهم في عباداتهم.

الرابعة : منع إتخاذ المسلمين الشدة والغلظة والقسوة مع أهل الكتاب بخصوص القبلة، فإن قلت إن آية البحث ذكرت مجيء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالحجة والبرهان في تحويل القبلة ولا يفيد النهي عن الشدة

(١) سورة آل عمران ١٠٤.

(٢) الآية ١٤٣.

والغلظة في المقام، الجواب تضمنت آية البحث الإخبار عن الغيب بإستحالة إتباع أهل الكتاب للمسلمين في قبلتهم وأحكام الذمة والعهود معهم لزوم تركهم وشأنهم بخصوص القبلة.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾^(١)، وفيها

مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : سيقول ما ولاهم عن قبلتهم ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك.

الثاني : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم وما أنت بتابع قبلتهم.

الثالث : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم ولئن إتبعتم أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا عن الظالمين.

الرابع : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك قل لله المشرق والمغرب.

الخامس : وما أنت بتابع قبلتهم قل لله المشرق والمغرب بهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثانية : كل من آية البحث والسياق من آيات القبلة، لتكون الصلة والتداهل بينها من إعجاز نظم القرآن، ومناسبة لإقتباس الدروس وإستنباط المسائل والأحكام ومنه مجيؤها متجاوزة ومتقاربة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٢).

الثالثة : بين المسلمين وأهل الكتاب في موضوع وحكم القبلة عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء هي الإقرار والتسليم بوجود الإستقبال

(١) الآية ١٤٢.

(٢) سورة الحج ٧٨.

في العبادات والتقرب إلى الله تعالى، ومادة الاختلاف هي توجه المسلمين إلى البيت الحرام وبقاء أهل الكتاب على قبلتهم، وهو من الإعجاز في نعت الذين أنكروا على المسلمين تحويلهم في القبلة فلم تنسبهم إلى أهل الكتاب أو طائفة منهم بل نعتهم بالسفه وخفة العقل، مما يدل على أن قولهم (ما ولاهم عن قبلتهم) من عند أنفسهم وليس مما في الكتب السماوية السابقة وحتى طرو التحريف عليها.

الرابعة : ويحتمل مجيء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالآيات والبيّنات لأهل الكتاب على تحويل القبلة إلى البيت الحرام من جهة الزمان وتعاقب الأفعال وجوهاً:

الأول : أثناء تطلع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السماء وقوله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾^(١).

الثاني : في الأشهر الأولى لهجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وأثناء إستقباله بيت المقدس.

الثالث : تدل الآية على الزمن المستقبل في مجيء بالبيّنات والإحتجاج لقوله تعالى (لئن) التي تفيد تعليق الأمر على المستقبل والمراد الإطلاق الزماني، كما في قوله تعالى ﴿تَزُولَا وَلَكِن زَالَا إِن أَسْكَهْمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُ بَعْدَهُ﴾^(٢)، أي لا يستطيع غير الله أن يمسك السماء والأرض، وتقول: لئن أذيته لا يغضب.

لتكون معنى الآية التخفيف عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، أخبرت الآية عن ذات النتيجة والأثر سواء بإقامة الحجة والبيّنة على لزوم إستقبال البيت الحرام أو عدمها، لإفادة الفعل الماضي (أتيت)

(١) الآية ١٤٤.

(٢) سورة فاطر ٤١.

معنى المضارع لأنه جاء بعد (لئن) فإذا كانت الجملة مصدرية بفعل ماضي منفي إقترنت بما النافية (ما تبعوا قبلك).

الرابع : بعد تحويل قبلة المسلمين إلى البيت الحرام، بدليل نسبة وإضافة إستقبال البيت الحرام إلى النبي محمد (قبلتك).

الخامس : المراد من الآيات بقوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أعم في موضوعها من إستقبال البيت الحرام والمراد دلائل النبوة، والشواهد والمعجزات التي تدل على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة قال تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

الرابعة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى (ما جاءك من العلم) ومن مصاديق العلم بلحاظ آية السياق وجوه:

الأول : الإخبار عن علوم الغيب بإنكار نفر من الناس تحول المسلمين إلى البيت الحرام بإتخاذهم قبلة لهم.

الثاني : نعت الذين سينكرون إستقبال المسلمين للبيت الحرام بالسفهاء وخفة العقل ويدل بالدلالة التضمنية على مسائل:

الأولى : تنزه ملأ أهل الكتاب من فعلهم.

الثانية : زجرهم وإرادة إصلاحهم بالإمتناع عن هذا الإنكار، ليكون هذا الإمتناع مناسبة للتدبر في أسرار هذا التحويل.

الثالثة : دعوة الناس للإقرار بصحة وسلامة تحول المسلمين إلى البيت الحرام في قبلتهم.

الرابعة : عدم رجوع المسلمين إلى إستقبال المسجد الأقصى.

الخامسة : تعاهد المسلمين لإستقبالهم البيت الحرام، لإدراك العقلاء عدم

العمل بقول السفيه.

الثالث : دفاع الله ورسوله عن المسلمين، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١)، فجاءت كل من آية البحث والسياق من مصاديق رحمة الله بالمسلمين بأن يخبرهم بما يقوله الناس عن تحولهم إلى إستقبال البيت الحرام، ويأمر رسوله الكريم.

الرابع : التسليم بأن الهداية بيد الله، وأن إستقبال البيت الحرام من الصراط المستقيم وإن المسلمين يذلون الوسع في طاعة الله، وإنتهاج سبل الصلاح، ويتلو كل مسلم ومسلمة عدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

الخامس : تكرر لفظ (قبلتهم) مرتين في القرآن، إحداهما في آية البحث والأخرى في آية السياق، وتلك آية في نظم القرآن بذاتها والتباين بينهما في المعنى، فالمراد من في آية السياق القبلة التي تحول عنها المسلمون، أما في آية البحث فالمراد قبلة أهل الكتاب التي عن عليها.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآيات بالآيات المجاورة التالية، وفيه وجوه:

الأول : صلة هذه الآيات بقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ هُوَ مُوْجِهَةٌ...﴾^(٣)، وفيها

مسائل:

الأولى : إتحاد موضوع الآيتين وهو القبلة في العبادات.

الثانية : بيان السعة والمنودحة في حكم الله ودعوة المسلمين إلى عدم الإستخفاف والإستهزاء بتوجه أهل الكتاب إلى قبلتهم، فقد يقول قائل إن نعت السفهاء خاص بالذين يذمون المسلمين في تحويلهم القبلة، ولا يشمل

(١) سورة آل عمران ١٣٢.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) الآية ١٤٨.

الذي يلوم من بقي على قبلته من أهل الكتاب يحمل تحويل القبلة على الإطلاق لأصالته، إلا مع الدليل على التقييد، فتضمنت كل من آية البحث والسياق هذا التقييد لمنع المسلم من التعدي على أهل الكتاب بخصوص قبلتهم.

الثالثة : ورد لفظ (القبلة) في آية البحث ثلاث مرات ولم يرد في آية السياق مع أن موضوعها هو القبلة (وعن ابن عباس في قوله (ولكل وجهة) يعني بذلك أهل الأديان يقول: لكل قبلة يرضونها ووجه الله حيث توجه المؤمنون)^(١).

الرابعة : تجلي قاعدة تقديم الأهم على المهم، وتأکید أولوية الإيمان والتقوى وعمل الصالحات وعدم الإنشغال بمسألة القبلة.

الخامسة : تذكر آية السياق بالآخرة والوقوف بين يدي الله للحساب، وفيه دعوة للمسلمين للتقيد بأحكام تحويل القبلة.

السادسة : من العلم الذي رزقه الله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تدل عليه آية البحث أن الله عز وجل على كل شيء قدير.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك.

الثاني : ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وما أنت بتابع قبلة قبلتهم.

الثالث : فول وجهك شطر المسجد الحرام ولئن إتبع أهواءهم من بعد

(١) الدر المنثور ١/٢٩٢.

(٢) الآية ١٤٩.

ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين.

الرابع : وما بعضهم بتابع قبله بعض وإنه الحق من ربك.

الخامس : وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وما بعضهم بتابع قبله بعض.

السادس : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك لئلا يكون للناس عليكم حجة.

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين لزوم إجتناّب الجدال والخصومة في موضوع القبلة مع أهل الكتاب، ومن إعجاز القرآن أنه بعد نزول الآية والحكم القرآني تنزل آية أخرى تنقل المسلمين إلى فعل آخر من الصالحات متقوم على الحكم النازل بما يدل على ثبوته وتحقيقه وعمل المسلمين به، ومن الإعجاز ذكر القبلة وتعددتها في ذات الآية التي تأمر المسلمين بالمسارعة في فعل الصالحات وإكتناز الحسنات.

الثالثة : تفقه المسلمين في الدين بتأكيد الإبتعاد عن إتباع أهواء الغير، الذي تحذر منه آية البحث، ويتجلى هذا التأكيد بالدعوة من الله للمسلمين بالتسابق.

الرابعة : إستقبال البيت الحرام من الخيرات التي تأمر آية السياق بالتسابق والمسارعة إليها، وفيه حث على عدم التردد أو الإبطاء في إستقبال البيت الحرام.

الخامسة : دعوة المسلمين للصبر في الإمثال بإستقبال البيت وحصانتهم من إيذاء الذين يلومونهم على التوجه إلى البيت الحرام.

السادسة : ورد في آية السياق قوله تعالى (ولأتم نعمتي عليكم) ومن تمام النعم نسخ القبلة ونزول آيات إستقبال البيت الحرام مقروناً بالبيئة والحجة والتفقه في الدين.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا

تَكْفُرُونَ ﴿١﴾، وفيها مسائل:

الأولى: كل من الأمر للمسلمين بذكر الله وتعيين القبلة وحصرها في حال الإختيار بالبيت الحرام عموم وخصوص مطلق، إذ أن توجه المسلمين للقبلة من عمومات ذكرهم الله.

الثانية: من مصاديق قوله تعالى (أذكركم) نزول الأمر بنسخ القبلة وصيرورة توجه المسلمين إلى البيت الحرام في صلاتهم، ومنه العلم الذي آتاه الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو عام وخاص، لقوله تعالى (ما جاءك من العلم) ومن الثاني بلحاظ آية السياق أمور:

الأول: ذكر الله عز وجل من العلم ومعرفة ماهية الدنيا، وأنها مزرعة للآخرة، قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(٢).

الثاني: يصلي المسلمون صلاتهم جماعة وفرادى مستقبلين القبلة، وهو من ذكرهم الله.

الثالث: لقد أراد الله عز وجل للمسلمين أن يذكره في الصلاة وهم مستقبلون البيت الحرام.

الرابع: إذا كان تعيين القبلة من ذكر الله عز وجل للمسلمين، وأن إمتثالهم لهذا الأمر من ذكرهم له سبحانه سواء بالصلاة وشرطية القبلة فيها، أو بذات شرط القبلة فهل من مصاديق مستحثة لذكر الله عز وجل للمسلمين مع هذا الذكر المستحدث والذي يتجدد في كل يوم الجواب نعم إذ أن قوله تعالى (أذكركم) وعد وبشارة.

الثالثة: تضمنت آية السياق الأمر للمسلمين بالشكر لله، ومن الشكر له سبحانه بلحاظ آية البحث وجوه:

الأول: إستقبالهم البيت الحرام إمتثالاً لأمر الله، وإظهارهم للوحدة

(١) الآية ١٥٢.

(٢) سورة العنكبوت ٤٦.

ذات صيغة التقوى.

الثاني : إتيان أهل الكتاب بالحجة والبرهان على صدق وصحة إستقبال المسلمين للبيت الحرام.

الثالث : التنزه عن إتباع الأهواء.

الرابع : الشكر لله عز وجل على نعمة العلم.

إعجاز الآية

الأولى : تخبر الآية عن أمر غيبي مستديم إلى يوم القيامة في الصلات بين أهل الملل السابقة وما تتصف به من أسباب الخصومة.

الثانية : إستقلال كل ملة بقبلتها.

الثالثة : مع تقارب الأمم وتداخل الحضارات وتبادل المذاهب والرأي والخبرة في هذا الزمان فان موضوع القبلة يبقى أمانة على التعدد في الديانة.

الرابعة : في الآية إشارة إلى إنتصار الإسلام باستقرار القبلة وعدم تأثير أقوال أهل الكتاب وشكوكهم بخصوصها.

وتظهر الآية أمرين في القبلة بينهما عموم وخصوص من وجه فمادة الإلتقاء هي عدم الإلتباع، ومادة الإفتراق هي عدم إتباعهم لقبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقبلتهم فلأنه على الحق ويتخذ العلم سبيلاً ومنهاجاً ولا يتبع الأهواء.

وتتضمن الآية التحدي فمع جحود فريق من الناس بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأنهم لا يستطيعون القيام بالإتحاد في جهة القبلة عناداً مع مضامين هذه الآية، وعدم الإستطاعة هذا من الإعجاز الغيري للآية القرآنية. وتبين الآية موضوعية القبلة ولزوم تعاهد المسلمين لأحكامها والإقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في موضوعها وهل القبلة من عمومات قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(١)

(١) تفسير القرطبي ٧٢/١.

الجواب نعم، فالحديث شامل لشرائط وأركان وأجزاء الصلاة، وتبين الآية حقيقة وهي أن التنزيل وآيات القرآن علم وخير محض يجب إتباعه، وأن تركه والإعراض عنه ظلم.

ومن إعجاز الآية وصف إستقبال البيت الحرام بأنه علم، مما يملئ على العلماء التحقيق بمصاديق العلم التي يتضمنها إستقبال البيت ووجوه منها:
الأول: الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإستقبال البيت الحرام، ونزول الآيات التي تدل عليه.

الثاني: عدم وجود فترة ومدة بين الأمر بإستقبال الكعبة وبين العمل بمضامينه لذا سمي مسجد (بني سالم) مسجد القبلتين.

الثالث: المدد الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في موضوع القبلة ومطلقاً.

الرابع: العلم بتخلف أهل الكتاب عن الإمثال للأوامر الإلهية.

الخامس: الإمتناع عن إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إستقبال البيت الحرام من إتباع الهوى.

السادس: إستدامة الخلاف والإختلاف بين أهل الكتاب بخصوص الإستقبال في الصلاة.

السابع: إمثال المسلمين والمسلمات للأمر الإلهي بنسخ القبلة، وإمتناعهم عن الإنصات لأهل العناد.

ومن وجوه الإعجاز في الآية أنها واقية لآية القبلة والتوجه للبيت الحرام لما فيها من إقامة الحجة على الذين ينكرون هذا الأمر، وما يدل عليه من النسخ في أحكام القبلة.

الآية سلاح

الأولى: تبعث الآيات الكريمة الثقة في قلوب المؤمنين وتمنع من اعطاء اعتبار لإنكار بعض الناس في مسألة القبلة، المخالفة لمضامين هذه الآيات

وتحويل القبلة.

الثانية : تجعل الآية المسلمين لا يتطلعون إلى غيرهم ولا يتوجهون لهم في محاولة لتبديل قبلتهم.

الثالثة : الآية الكريمة لا تمنع من رجاء إسلام فريق من الملل الأخرى بما في ذلك بعض علمائهم.

الرابعة : تبين الآية جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في موضوع القبلة وتثبيتها، ورد الشبهات التي يثيرها أهل الخصومة والشقاق في موضوع القبلة قال تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(١).

الخامسة : لم تقل الآية (ولو أتيت) وما تدل عليه (لو)، من الإمتناع الذاتي، بل جاءت بقوله تعالى (ولئن) وما تدل عليه (أن) من التوكيد.

السادسة : نسبة القبلة الحق إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قبلتك) شاهد على إستقلال المسلمين بإستقبال البيت الحرام وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، بأن شرفهم الله عز وجل بالإختصاص بإستقباله.

السابعة : في الآية دعوة للمسلمين لعدم الإنصات لأهل الكتاب وغيرهم في موضوع تحويل القبلة، ومحاولاتهم التشكيك بنسخها.

الثامنة : حث المسلمين على تعاهد إستقبال البيت الحرام.

التاسعة : إدراك حقيقة أن البيت الحرام قبله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسيلة سماوية التفقه المسلمين في أمور الدين، ومعرفة المنزلة العظيمة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين الخلائق وتفضيله على

(١) سورة البقرة ١٤٢ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠ .

الأنبياء السابقين، بأن كانت قبلة ناسخة غير منسوخة.

العاشرة : تبعث اليأس في قلوب الكفار، وتجعلهم يدركون تقيد المسلمين بأحكام العبادات، وإمتثالهم للأوامر الإلهية، إذ أن التقيد بالجزء شاهد على التقيد بالكل، فالإمتثال للأمر الإلهي في موضوع القبلة دليل على أدائهم الصلاة بأجزائها.

الحادية عشرة : الإلتزام بأحكام إستقبال البيت الحرام واقية من الإرتداد، ومن التقصير في الفرائض وأحكام العبادات وتلك آية في الشريعة الإسلامية، ومن أسرار نزول الآيات نجومًا، والفرائض على مراتب فقد فرض الله الصلاة في مكة المكرمة، ولكن آية القبلة الناسخة والتوجه إلى البيت الحرام جاء في المدينة.

الثانية عشرة : التحذير من إتباع الهوى.

الثالثة عشرة : بيان القبح الذاتي والغيري للهوى، ومن الغيري معصية الأوامر الإلهية، وترك الناسخ، والإصرار على المنسوخ.

الرابعة عشرة : لم تأت الآية بالنهي عن إتباع الهوى مطلقاً، بل جاءت بالنهي عن إتباع أهواء أهل بعض الملل على نحو الخصوص، وفيه ذم إضافي لهم، وبيان مسألة في التأديب والهداية، وهي أن النهي إذا جاء عاماً ولكنه في موضوع مخصوص يكون عوناً وسلاحاً للإمتثال والعناية الشخصية والنوعية من المسلمين بموضوعه.

الخامسة عشرة : حث المسلمين والناس جميعاً على إتباع العلم.

أسباب النزول

روي ان يهود المدينة ونصارى نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتنا بأية كما أتى الأنبياء قبلك فانزل الله تعالى هذه الآية^(١)، ولكن الآية أعم في دلالتها وموضوعها ونزولها، وتتضمن إظهار الخلاف

(١) مفاتيح الغيب ٤/١٢٦.

وعدم الالتقاء في القبلة.

مفهوم الآية

الآية بيان لحقائق تاريخية في عالم العقائد والملل، وهي شاهد سماوي على وجود التباين في مسألة القبلة إلى يوم القيامة بين كل من المسلمين واليهود والنصارى، ولكنها لم تقف عند هذا الحد، فأظهرت الآية سلامة نهج المسلمين وأنه هو الحق بقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

ومتعلق الأهواء في الآية يحتمل وجوهاً:

الأول: عدم القول بالنسخ في القبلة مع أنه حق.

الثاني: إنكارهم على المسلمين نسخ القبلة وتوجههم إلى البيت الحرام.

الثالث: صدود أهل الكتاب عن الآيات التي جاء بها النبي صلى الله

عليه وآله وسلم وإصرارهم على البقاء على قبلتهم.

الرابع: سعيهم ليقى المسلمون معهم على قبلتهم.

وهذه الوجوه الأربعة متحدة ومتفرقة تصلح مصاديق للهدى في

موضوع القبلة نعم، بالنسبة للوجه الأول لا يشمل من إختار القبلة قبل

الإسلام بما هو سابق على النسخ كما أن القبلة جزء وشرط من الصلاة،

والصلاة فرع الإسلام.

وفي الآية مسائل:

الأولى: الآية خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأصالة

والمسلمين والمسلمات بالتبعية، وهذا الإلحاق في لغة الخطاب من أسرار قوله

تعالى ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وما يدل عليه من

تحذير المسلمين من إتباع إغواء أهل الخصومة والخلاف، وأرباب الشك والريب.

الثانية: عصم الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من إتباع الهوى، ومضامين هذه الآية من أفراد هذه العصمة وهي حكمة وموعظة للمسلمين بلزوم إجتنب أهل الهوى، والإمتناع عن إستحواذ الهوى.

الثالثة: الآية مناسبة كريمة لتفقه المسلمين في الدين وإرتقائهم في المعارف الإلهية، والإحاطة علماً بأحوال أهل الملل الأخرى، وتخلفهم عما يجب من الوظائف في باب العبادات، وتؤكد الآية صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولزوم إتباعه.

الرابعة: تمنع الآية من إتباع الهوى الذي يتمثل بالعناد، والبقاء على الحكم المنسوخ، وعدم التسليم بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامسة: تبين الآية علة الإختلاف في موضوع القبلة، وأنه راجع إلى الإمتناع بالهوى عن إتباع الحق، الإمتناع عن إنخاذ البيت الحرام قبلة إتباع للهوى.

السادسة: خصت الآية أهل الكتاب بالذكر على نحو التعيين وفيه إشارة إلى أن موضوع إستقبال القبلة من أفراد العبادات عند الملمين، ولكن الإختلاف في تعيين جهة القبلة، أصل الإختلاف في جهة القبلة التباين في الأصل والإعتقاد، فالمسلمون يتبعون العلم، أما الذين يخالفونهم فيتبعون الهوى.

السابعة: الآية مواساة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص إعراض أهل الكتاب عنه، فقد يرجو شطر من المسلمين إتباع الغير للنسخ في

القبلة لما عندهم من العلم والبشارات التي جاء بها الأنبياء السابقون بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فجاءت هذه الآية بياناً لتعذر مصداق هذا الرجاء، ليس لعدم وجود المقتضي بل لوجود المانع الذاتي بدليل أنهم لا يستجيبون لأمر القبلة الجديدة، وأن جاء لهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بكل آية.

الثامنة: من مفاهيم الآية الثناء على المسلمين من وجوه:

الأول: التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: إتباع الأمر الإلهي بإستقبال البيت الحرام، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الثالث: عدم إتباع الهوى، وما يترشح عنه من أسباب الضلالة.

الرابع: الإمتناع عما عليه أهل الهوى وأخرج البيهقي عن عطاء قال: بلغني أن فيما أنزل الله على موسى عليه السلام: لا تجالسوا أهل الاهواء فيحدثوا في قلبك ما لم يكن^(٢).

الخامس: دعوة الناس لدخول الإسلام ببيان حقيقة وهي إلزام المسلمين بالأحكام التي تنزل من السماء، وعدم رجوعهم عنها.

السادس: حث الناس على إجتناّب أهل الجدال والخصومة والذين يصرون على محاربة التنزيل.

السابع: الملازمة بين الظلم وإتباع الهوى، وتحتل النسبة بينهما وجوهاً:

الأول: التساوي، فإتباع الهوى هو الظلم.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) الدر المنثور ٤/٣١٧.

الثاني: العموم والخصوص من وجه، فينبغي مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق.

الثالث: العموم والخصوص المطلق، وهو على شعبتين:

الأولى: إتباع الهوى جزء وفرع من الظلم.

الثانية: الظلم من إتباع الهوى.

الرابع: التباين بين الظلم وإتباع الهوى.

والصحيح هو الشعبة الثانية من الوجه الثالث.

الثامن: آيات القرآن علم، وهي مما جاء للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله، ولقد تفضل الله ببيان منزلة آدم للملائكة بالإخبار عما رزقه من علم بالأسماء قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١)، واحتج على الملائكة بعلم آدم الأسماء.

وجاءت هذه الآية لبيان المراتب العالية في العلم التي نالها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلقيه أحكام الشريعة الناسخة، وإعائته في العمل بها، والوقاية من أهل الحسد والعناد.

التاسع: تعدد القبلة عند أهل الكتاب، وفوز المسلمين بالقبلة الحق التي هي علم ورشحة من العلم.

العاشر: دعوة المسلمين للتدبر في أبواب العلم التي يدل عليها إستقبال البيت الحرام على نحو التعيين.

الحادي عشر: وجود أمة تتبع الهوى، وتحاول أن تغوي الآخرين، مما يدل على حاجة الناس للإسلام ونزول هذه الآيات التي هي واقية من الغواية، ومدرسة في العصمة من إتباع الهوى.

الثاني عشر: بيان تخلف الذين لا يتبعون القبلة عن تدبر الآيات ، قال تعالى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ^(١)، ويظهر هذا التخلف من إعراضهم عن الآيات والمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتي يأتي بها.

الآية لطف

لقد نزل الأمر الإلهي بتوجه المسلمين إلى البيت الحرام وإتخاذه قبلة في صلاتهم، قال تعالى ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ^(٢) وتلقوا هذا الأمر بالقبول والإمثال، وهو شاهد على إستحقاقهم لمقامات ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ^(٣)، وجاءت هذه الآية لتثبيت أقدامهم في هذه المقامات، وحثهم على التقيد بأحكام القبلة لأنها من مصاديق العلم وفضل خصهم الله عز وجل به، فمن اللطف الإلهي في المقام أمور:

الأول: توجه المسلمين إلى البيت الحرام الذي أراد الله عز وجل أن يكون قبلة إلى يوم القيامة وفيه دليل على أهلية الإسلام للإستدامة وعدم نسخ الشريعة الإسلامية.

الثاني: مجيء خطاب التشريف في الآية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويتجلى فيه التشريف من جهات:

الأولى: لغة الخطاب التي تتضمن قواعد في الفقه.

(١) سورة البقرة ٨٨.

(٢) سورة البقرة ١٥٠.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

الثانية: تعلق موضوع الآية بالقبلة وهي أمر عبادي يخص كل مسلم ومسلمة إلى يوم القيامة.

الثالثة: الآية عون للنبي في الإحتجاج على أهل الكتاب.

الرابعة: إخبار النبي عن بقاء الإختلاف بين أهل الكتاب أنفسهم في موضوع القبلة.

الخامسة: تنزيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الظلم وثبوت إجتنابه إتباع أهواء الذين لا يعلمون.

السادسة: نسبة إتخاذ البيت الحرام قبلة بأنها قبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى (قلتك).

الثالث: الوعد الإلهي الكريم بعدم رجوع المسلمين إلى إستقبال بيت المقدس، أو التحول إلى قبلة أخرى غير البيت الحرام مطلقاً، لقوله تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾.

الرابع: بيان حقيقة وهي أن طاعة الله في موضوع إستقبال البيت الحرام من الحكمة.

الخامس: توكيد فضل الله بإستقبال البيت الحرام وأنه من العلم الذي آتاه الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وينتفع منه المسلمون في النشاطين والناس فيه عرض سواء، فكل فرد وجماعة يستطيعون النهل والأخذ منه.

إفادات الآية

بعد أن ذكرت الآية السابقة حقيقة وهي إقرار أهل الكتاب بأن إستقبال البيت الحرام حق وأمر من عند الله جاءت هذه الآية دعوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين للصبر وتحمل الأذى

الذي يأتي من إصرار أهل الكتاب على البقاء على قبلتهم وجدالهم وإحتجاجهم على توجه المسلمين لإستقبال البيت الحرام، لتكون واقية للأمر بإستقبال البيت الحرام، وهو من إعجاز القرآن الذاتي والغيري بأن تأتي الآية القرآنية بالأمر التعبدية، ثم تأتي آية أخرى بعدها لتثيت هذا الحكم، وإزاحة الحواجز التي تحول دون العمل النوعي العام به إن نعت القبلة الجديدة بأنها قبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دعوة للناس جميعاً لمعرفة عظيم منزلته عند الله وحث للمسلمين لتعاهد القبلة الجديدة، والتقيد بأحكامها.

وتحذر الآية من إتباع الهوى، وهذا التحذير شاهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنها تدعو إلى العلم وإتخاذه وسيلة للإختيار الصحيح، وأداء الوظائف، ومنها إدراك أن تغيير القبلة هو أمر من عند الله، وأن التغيير لم يكن إلى قبلة مستحدثة فالبيت الحرام قبلة الأنبياء من قبل.

وفي الآية ترغيب بطلب العلم، وحث على العمل بمقتضى دلالاته، وبيان مسألة وهي التنافي والتعارض بين العلم والهوى، وأن إتباع العلم سبيل النجاة، وطريق الفوز، ودعوة للناس للإنتفاع مما آتى الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من العلم والآيات الباهرات، وعلى فرض أن التغيير لقبلة مستحدثة فإن واجب الناس التصديق والقبول والإمتثال لأنه من عند الله، وكيف وقد جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرجوع إلى قبلة الأنبياء السابقين.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بحرف العطف الواو، للعطف على آية التحول إلى الكعبة قبله، وإنصراف المسلمين لها مستجيبين لأمر الله عز وجل، ومع أن الآية السابقة خاصة بتشريع تحويل القبلة فإنها تضمنت تسليم أهل الكتاب بإستقبال البيت الحرام وأنه حق وصدق، وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم ينصرف إلى البيت الحرام ويتخذة قبلة إلا بأمر من عند الله عز وجل، وأن حكم إستقبال البيت ناسخ غير منسوخ وجاء الجواب (لئن) وكأنه جواب (لو) (وقال الأخفش: أجيب بجواب لو لأن الماضي وليها كما يلي لو فدخلت كل واحدة منهما على صاحبها قال سبحانه و لئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا فجري لئن مجرى لو وقال و لو أنهم آمنوا و اتقوا ثم قال لمثوبة فجري مجرى لئن)^(١).

ولكن المعنى في اللفظ القرآني أعم ولا ينحصر بالنحو بل يشمل البلاغة والدلالة الكلامية والعقائدية، فمثلاً هناك تباين موضوعي في الدلالة والمعنى حتى بالنسبة للمثل أعلاه، لأن (لئن) جاءت في ضمن بيان قدرة الله عز وجل على الفعل وهو الذي لا تستعصي عليه مسألة، أما لو فهو حرف إمتناع لإمتناع، وفي ذكره في الآية أعلاه إعجاز قرآني بأن هؤلاء لم ولن يؤمنوا وما ذهب إليه سيويه وأصحابه صحيح إذ قالوا: أن معنى (لظلوا) ليظّلن، فمعنى لئن غير معنى لو، وكل واحدة منهما على حقيقتها وحقيقة ومعنى (لو) أنها يمتنع بها الشيء لإمتناع غيره، كقولك لو أتيتني لأكرمك، فإمتنع الإكرام لعدم حصول الإتيان.

ومعنى (أن) أن يقع بها الشيء لوقوع غيره، تقول: إن تأتين أكرمك، فالإكرام يقع بوقوع الإتيان ولو لما مضى، وإن لما يستقبل، لذا تدل بداية الآية بلثن على أمور:

الأول: بيان عظيم الفضل الإلهي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، والمرتبة التي نالها من بين الخلائق، وبداية وموضوع الآية شاهد على تفضيله على الأنبياء السابقين، فتبين قصص الأنبياء أن محاربة الأنبياء من قبل قومهم، وجهاد الأنبياء في جذبهم للإيمان، وإصرار قومهم على الكفر والعناد، بينما جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنسخ القبلية، وتلقي أصحابه لهذا النسخ بالقبول والإمثال، وهو شاهد بأن أصحابه خير من أصحاب الأنبياء السابقين، فلم تسمع اعتراضاً وإصراراً على القبلية السابقة من أفراد أو جماعة ذات عدد يعتد به من المسلمين.

الثاني: إن الله عز وجل يؤتي النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم الآيات والبراهين العظيمة غير المتناهية والتي تدل على صدق نبوته.

الثالث: دعوة أهل الكتاب للتدبر في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعدم التعجل بأنكارها.

الرابع: النظر إلى تحويل القبلية بلحاظ الآيات والدلالات الباهرات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو لم يأت بتحويل القبلية وحدها، ولم ينزل الأمر بتحويلها إلا بعد مرور ثمانية عشر شهراً عليه في المدينة وظهور المعجزات ورؤية المسلمين والكفار لأمارات وعلامات نزول المدد الملكوتي لنصره.

الخامس: بقاء أهل الكتاب على قبلتهم.

السادس: زيادة إيمان المسلمين وتسليمهم بالآيات التي يأتي بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن كان أهل الكتاب لا يتعظون منها في

موضوع القبلة، فإن المسلمين يتخذونها نبراساً وسبيل الهداية في ميادين الحياة المختلفة، وذكرت الآية أطرافاً هي:

الأول: مجيء الآية بلغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: موضوع الآية هو القبلة والقدسية الخاصة لجهة الإستقبال في الصلاة وغيرها من العبادات والمندوبات.

الثالث: تعيين قبلة المسلمين وهي الكعبة المشرفة.

الرابع: أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

الخامس: قبلة أهل الكتاب وهي على قسمين:

الأول: قبلة النصارى.

الثاني: قبلة اليهود.

وتظهر الآية التباين الموضوعي في مسألة القبلة من وجوه:

الأول: جاءت قبلة المسلمين بآية من عند الله.

الثاني: تقترن قبلة المسلمين بالآيات والبيانات الظاهرات من جهات:

الأولى: تقدم الآية على نسخ القبلة وإستقبال البيت الحرام.

الثانية: إقتران الأمر بالتحول إلى القبلة الجديدة بالمعجزات.

الثالث: إستمرار مجيء الآيات بعد الأمر بإستقبال البيت الحرام.

الرابع: تعدد مواضع الآيات، وعدم إنحصارها في موضوع القبلة، وهذا

التعدد عون ومدد لتثبيت أحكام القبلة الجديدة وتكرر لفظ القبلة في الآية

ثلاث مرات، مرة في قبلة المسلمين، ومرتين في قبلة أهل الكتاب، وبصيغة

الإتحاد مع الإفتراق في الأصل، فلم تقل الآية (وما أنت بتابع قبلتهم)

بصيغة التثنية، وإرادة قبلة النصارى وقبلة اليهود كلاً على حدة، بل جاءت

الآية بصيغة المفرد (قبلتهم) وفيه مسائل:

الأولى: بيان الإتحاد الموضوعي في قبليتي أهل الكتاب.

الثانية: كل من قبلتي أهل الكتاب خلاف الذي أمر الله به النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: قطع أمل أهل الكتاب مجتمعين في إمكان تحول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن إستقبال البيت الحرام.

الرابعة: تدل الآية على أن الإسلام أصبح قوياً يستطيع أن يواجه أهل الكتاب متحدين لا أقل في باب العبادات.

الخامسة: تجلي معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الكتاب وغيرهم.

السادسة: دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين للجهاد في باب العبادات.

لقد حسمت هذه الآية الخصومة والجدال في مسألة القبلة وبعثت اليأس في قلوب أهل الكتاب من المسلمين في هذا الباب، فليس من نسخ أو تغيير لقبلتهم إلى يوم القيامة، وهو مقدمة لمواضيع وأحكام أخرى في باب العقائد تكون لها ذات النتيجة والحكم، فجاء موضوع القبلة لموضوعيته، وليكون آية وعبرة لأهل الكتاب، ومدرسة للناس في أحكام النسخ السماوي، ومضامين الفقه الإسلامي وأن أصله الكتاب ثم السنة النبوية التي جاءت في المقام على وجوه:

الأول: تلقي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأمر من عند الله بإستقبال البيت الحرام، وترك إستقبال بيت المقدس.

الثاني: إستقبال البيت حق، وهو من خصائص ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الثالث: مجيء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالآيات واحتجاجه على أهل الكتاب بخصوص القبلة وغيرها، إذ أن قوله تعالى ﴿وَلَنْ أَتَّيْتُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ لا ينفي مجيء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالآيات، خصوصاً وأنها تترى عليه.

ومقتضى الأصل هو أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جاءهم بالآيات والبراهين ولكنهم أصروا على عدم إتباعه في موضوع القبلة فجاءت هذه الآية لتخبر عن وجود المانع الذاتي عند أهل الكتاب من الإمتثال للأمر

الإلهي في نسخ القبلة، مع وجود المقتضي وهو أن إنصراف المسلمين الحرام في صلاتهم من كمال الشريعة الذي تفضل الله عز وجل وهو من عمومات قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(١)، إذ أن كمال الدين لم يأت دفعة واحدة، أو في موضوع وحكم مخصوص بل هو تدريجي ويتعلق بأحكام الشريعة الإسلامية على نحو العموم المجموعي والإستغراقي الشامل للعبادات والمعاملات.

وقد تمت الآية إمتناع أهل الكتاب عن إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القبلة الجديدة لأنه موضوع هذه الآية، وتتمه لخاتمة الآية السابقة.

وهل عدم إتباعهم لقبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عملهم المذكور في خاتمة الآية السابقة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)، أم المراد من العمل هو الفعل وليس الإمتناع، الجواب هو الأول، فامتناعهم

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) الآية ١٤٤.

عن الإمثال لإستقبال البيت الحرام وإظهارهم السخرية بالمسلمين في موضوع نسخها من العمل الذي جاءت الآية السابقة بالتوبيخ عليه، والتحذير منه وفي التنزيل ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، وجاء لفظ (القبلة) في الآية بصيغة الإضافة على وجوه:

الأول: الإضافة إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قبلتك) لبيان أنه أمة في الخير، في مواجهة أهل الجدل، وهو الذي يدعوهم إلى القبلة الجديدة.

الثاني: الإضافة إلى أهل الكتاب مطلقاً باعتبار مخالفة قبلتهم لما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي من السبر والتقسيم، لإستقلال كل فريق من أهل الكتاب بقبلة مخصوصة.

الثالث: الإضافة إلى بعض، (قبلة بعض) والمقصود التفكيك أي قبلة اليهود، وقبلة النصارى، كلاً على نحو الإستقلال، وورد لفظ قبلة في القرآن بالإنفراد والإضافة سبع مرات جاءت ثلاث منها في هذه الآية وثلاث في الآيات الثلاثة السابقة، ولم يأت في غيرها إلا مرة واحدة ﴿وَجَعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(١)، وهو عدد ليس بالقليل، مما يدل على موضوعية هذه الآية.

وهل تدل لغة التذكير في الآية ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبَلَةِ بَعْضٍ﴾، على الإخبار عن تعدد وكثرة جهات القبلة بالنسبة لأهل الكتاب، وإتقسام اليهود في موضوع القبلة، وإتقسام النصارى فيه، وعدم إتفاقهم من جديد الجواب لا دليل على هذا الإنشطار والقسمة، وإن لم يكن مستبعداً.

وورد لفظ (ولئن) في الآية مرتين، في خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه مسائل:

الأولى: بيان منزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإخبار عن كثرة الآيات التي أتى بها من عند الله.

الثانية: بيان توالي الآيات التي يأتي بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن لم ينتفع منها بعضهم، فإن المسلمين هم الذين ينتفعون منها، كما أن إعراض أهل الكتاب كأمة عن البراهين والحجج التي يأتي بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يمنع من قيام أفراد وجماعات منهم بإتباعها بدخول الإسلام والشواهد عليه كثيرة سواء في أيام نزول هذه الآية وأوان تحويل القبلة أو في أفراد الزمان الطولية المنصرمة، وكذا التي تأتي، وهو من إعجاز القرآن الغيري بأن تنزل الآية القرآنية ويتوجه فيها لوم لقوم وأهل ملة، فيتذكر أرباب العقول منهم ويؤمنون بتلك الآيات.

الثالثة: بعث السكينة في نفس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، قال تعالى ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وفيه وجوه:

الأول: تعدد وكثرة الآيات التي يأتي بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: بيان سبب إمتناع أهل الكتاب عن القبلة الجديدة، وبقاؤهم على قبلتهم.

الثالث: إقتران الأمر بالقبلة الجديدة بالآيات والبراهين، مما يدل على أن الله عز وجل ينصر النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالآيات والبراهين القاطعة.

الرابع: إستدامة الاختلاف بين أهل الكتاب في موضوع القبلة.

الرابعة: التنبيه والتحذير من إتباع أهواء الغير وفيه مسائل:

الأولى: توجه التحذير للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمراد أفراد الأمة من المسلمين والمسلمات.

الثانية: حصر التنبيه بخصوص إتباع الأهواء على نحو التعيين.

الثالثة: العلم واقية من إتباع الأهواء.

وتكررت مادة (تبع) في هذه الآية أربع مرات، جاءت إثنتان منها خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإثنتان بخصوص أهل الكتاب.

وليس من حصر للآيات والمعجزات التي يأتي بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الكتاب، والتي وردت في أول الآية بقوله تعالى ﴿وَلَنْ أَتَّبِعَ الَّذِينَ أَلْفَتْهُمُ الْأَقْبَابُ﴾، ويحتمل موضوعها وجوهاً:

الأول: خصوص القبلة الناسخة الجديدة، وهو البيت الحرام، وكأن في الآية حذفاً وتقديره: بكل آية في قبلك.

الثاني: مطلق الآيات بقبلة أهل الكتاب.

الثالث: عموم مواضع الآيات، والملاك فيها تأكيد صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولتكون شاهداً على لزوم إتباعه في قبلته، وعدم التعدي على المسلمين بسبب إتباعهم له في أمر القبلة، فتشمل الآيات القبلة والنسخ فيها ووجوب إستقبال البيت الحرام، ومواضع وأحكام أخرى غير القبلة لأصالة الإطلاق، وعدم وجود دليل أو أمارة

على الحصر والتقدير، ولجئى سور الموجبة الكلية (كل) في قوله تعالى ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَلَنْ أَتَّبِعَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قَبْلَكَ﴾

الأولى : الآية إخبار سماوي جاء على نحو القطع والجزم بأن أهل الكتاب لا يتبعون قبله المسلمين.

الثانية : في الآية إخبار بأنهم لا يتوجهون إلى البيت الحرام وإن رأوا الآيات التي تتضمن الدعوة لذلك.

الثالثة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على ذم الذين يتخلفون عن التصديق بالنبوة والإقرار بالمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : إستقبال القبلة من التعبديات وفي الإمتثال للأوامر فيها الأجر والثواب.

الخامسة : ليس من وجوه وصيغ التحريف للكتب السماوية وأخبار الأنبياء إنكار تغيير القبلة على فرض وجود مثل هذا الأمر فإن الآيات ناسخة وحجة قال تعالى ﴿يَحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(١).

السادسة : لقد ذكرت الآية الكريمة المعجزات والبيانات على نحو الإطلاق لأن كل في قوله تعالى ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ سور جامع للموجبة الكلية، ويدل على ثبوت المحمول لجميع أفراد الموضوع فتشمل الآيات الحسية والعقلية المتعددة والمختلفة والمتحدة المضامين والموضوعات، وإثبات طرو التحريف على كتب سابقة.

السابعة : أخبرت الآية عن عدم نفع وتأثير البراهين بأهل الكتاب والناس لأنها تخاطب العقول.

الثامنة : قد يكون في هذه الآية بيان لجحود وعناد بني إسرائيل وإصرارهم بخصوص القبلة وتحويلها، وترديد السؤال وطلب التفصيل بما فيه التشديد على النفس وهو أمانة على عدم الإستجابة.

التاسعة : إن قلت لابد ان يؤمن بعض أهل الكتاب مع كثرة الآيات وإتصالها، قلت: نعم فقد أسلم الكثير منهم بنزول القرآن وما جاء به النبي من المعجزات، وهؤلاء خرجوا باعتناقهم الإسلام عن عنوان واسم أهل الكتاب، والذم الوارد في الآية وكذا من يسلم منهم لاحقاً.

العاشر : تتعلق الآية بأهل الكتاب كعقيدة وشريعة تتخذ منهجاً في موضوع القبلة فهي تحبر بأن اليهود أو النصارى ماضون على شريعتهم ولن يقوموا بتبديل قبلتهم وإن كانت قبلة إبراهيم عليه السلام الذي يتفاخرون به ويتنسبون إليه.

الحادية عشرة : عدم التبعية مطلقاً التي تشير لها الآية ليست سنة سماوية في الأرض مبنية على التعدد في القبلة عند الشرائع السماوية، بل إنها نتيجة العناد والإصرار وبقاء بعض الملل على القبلة التي صارت منسوخة بأمر الله تعالى.

الثانية عشرة : إتخاذ البيت الحرام قبلة في الصلاة خطاب تكليفي إنحلافي ينبسط على كل من بلغ سن التكليف باعتبار أنه شرط من شروط الصلاة، وهي واجبة على الناس جميعاً، لصيغة الأمر التي تحمل على الوجوب واللزوم ، قال تعالى ﴿فَلَوْ وَجَّهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(١).

وجاءت الآية بصيغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم وأنه هو الذي يأتي بالآيات ويقيم الحجة على أهل الكتاب، ولكن مضامينها أعم، وتشمل المسلمين والمسلمات جميعاً وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَلَنَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١)، وهو من الآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي على وجوه كثيرة ليس لها حصر منها:

الأول: كل دعوة من أحد المسلمين والمسلمات لأهل الكتاب يتابع القبلة هي آية من الآيات التي ذكرتها هذه الآية.

الثاني: توجه المسلمين للبيت الحرام في صلاتهم فإنه من الآيات التي أتى بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والبراهين التي يحتاج بها على أهل الكتاب لوجود أمة إستجابت للحق التنزيل.

الثالث: تلاوة المسلمين لهذه الآية من الآيات والبراهين التي تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي دعوة لتصديقهم بالتنزيل والمعجزات التي جاء بها النبي.

الرابع: كل آية من (آيات القبلة) هذه جاءت لتثيت حكم عبادي إلى يوم القيامة.

الخامس: التذكير بالبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الواردة في التوراة والإنجيل.

السادس: قيام بعض علماء أهل الكتاب بتصديق إستقبال البيت الحرام، وأنه من صفات النبوة، فهو آية وحجة.

قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾

في الآية مسائل:

الأولى : الآية إخبار سماوي على عدم رجوع المسلمين إلى بيت المقدس كقبلة إذ أن القبلة موضع الكعبة وجهتها إلى يوم القيامة، وليس ذات البناء ولزوم وجوده.

الثانية : عدم الإتياع في القبلة وإن كان في ظاهره واحداً أي في عدم تبعيتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في قبلته وعدم تبعية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم في قبلتهم إلا أن الأصل والسبب مختلف تماماً.

الثالثة : بأمر من الله تعالى النبي لا يتبع قبلتهم وهو الذي ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١)، أما عدم إتياع الناس لقبلتنا فليس من أمر إلهي فيه بل بسبب وحرمان أنفسهم من الإستجابة للأمر السماوي.

الرابعة : في الآية تنبيه وتحذير للمسلمين ومنع من الهم والتفكير بمجاراتهم في قبلتهم من أجل دعوتهم للإسلام.

الخامسة : تحويل القبلة مناسبة لتغيير القلوب وصلاحها والسعي لدخول الجنة.

السادسة : بلحاظ أن بيت المقدس كان قبلة المسلمين فان ظاهر الآية لا يخلو من لوم لأولئك الذين عيروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في توجهه لقبلتهم في بيت المقدس وقالوا مثلاً: لم يدر محمد أين يتوجه في صلاته حتى هديناه.

السابعة : في الآية إخبار بأن الصلاح في التوجه الى الكعبة، فالخير ما إختاره الله.

الثامنة : الإختلاف في الغاية، والآية إصلاح في موضوع القبلة، ونقل الطبرسي قولاً وهو: (ان المراد ليس يمكنك إستصلاحهم بإتباع قبلتهم)^(١)، وتتضمن بث اليأس في نفوسهم من المسلمين في خصوص القبلة.

التاسعة : تظهر سورة الكافرون جلياً عدم التفريط في العقائد، وتتعلق هذه الآية بالثبات وعدم المهادنة في باب الأحكام.

العاشرة : كي لا يظن أهل الكتاب إحتمال حصول النسخ والدور مرة أخرى ورجوع المسلمين إلى بيت المقدس لاسيما وأنه مقدس عند المسلمين، فمع تبديل القبلة فان إكرام المسلمين له لم يتغير.

الحادية عشرة : بما أن قبلة المسلمين وهم في مكة في بداية الإسلام بيت المقدس على أشهر الأقوال فقد يظن بعضهم أن المسلمين إذا فتحوا مكة صلوا فيها مثل صلاتهم في الأيام الأولى للإسلام.

الثانية عشرة : جاءت هذه الآية للحسم والقطع وتبديد طمع أهل الكتاب بالمسلمين.

الثالثة عشرة : تطمين وسكينة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين باستقرار جهة القبلة وهو أمر ينفعهم في الإحتجاج والتعامل مع أهل الكتاب بخصوص القبلة وما يتعلق بها.

الرابعة عشرة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على أن موضوع القبلة بأمر من الله تعالى، وعلى المسلمين أن يتلقوه بالرضا والقبول.

الخامسة عشرة : الأمر الإلهي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدم إتباع قبلة اليهود والنصارى يزيد المسلمين عزاً وفخراً بأن أدق أعمالهم العبادية من عند الله تعالى وعلى نحو الإستقلال والاتصال مع سنن الأنبياء السابقين كابراهيم عليه السلام.

السادسة عشرة : في الآية بشارة وإخبار عن عدم إكراه المسلمين

لأهل الكتاب على تغيير القبلة وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١).

السابعة عشرة : تدل الآية على عدم تفريط المسلمين في أي جزء من أجزاء أعمالهم العبادية وأنها جزء من الإرادة التشريعية.

الثامنة عشرة : في الآية تأديب للمسلمين وتوجيه بكيفية التعبد بتلقي الأحكام من عند الله عز وجل ومن عند الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

التاسعة عشرة : في الآية غلق لباب البدعة والإجتهد في مقابل النص.

العشرون : الملازمة بين ما أمر به الأنبياء السابقون وبين الذي أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأحكام النسخ في الشرائع.

الحادية والعشرون : الرد على اليهود وإبطال إدعائهم بعدم جواز مخالفتهم.

الثانية والعشرون : إبطال المقولة التي يتمسك بها بعضهم بأن بيت المقدس قبله الأنبياء ولا يجوز مخالفتها لأن الأمر بيد الله عز وجل، والبيت الحرام قبله الأنبياء، وما من نبي إلا وقد حجه وطاف به في الجملة، وينفرد بخصوصية وهي وجوده أيام آدم عليه السلام قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾^(٢).

الثالثة والعشرون : إتباعنا للقبلة التي جاء بها القرآن مدح وثناء للمسلمين، وعدم إتباع الغير لها ذم لهم.

الرابعة والعشرون : أظهرت الآية أن حكم القبلة غير متحد مع مكان

(١) سورة البقرة ٢٥٦.

(٢) سورة آل عمران ٩٦.

إقامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يرجأ أمر تحويل القبلة لحين فتح مكة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)، وفيه شاهد على ثبات الإيمان في قلوب المهاجرين مهاجرين والأنصار والأنصار .

قوله تعالى ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَائِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾

في الآية مسائل:

الأول : إن أهل الكتاب لن يتحدوا ويتفقوا في عباداتهم، فكل منهم سيكون مستقلاً عن الآخر.

الثاني : بشارة وإخبار عن عدم إتحادهم التام ضد الإسلام وفعلاً لما توجه المسلمون لمحاربة اليهود وإخراجهم من الجزيرة لم يفزع لنجدتهم ملك الروم مع احتمال أنهم طلبوا نصرته وإعانتته كما طلبوا نصرة المشركين ولا يضر بهذه القاعدة وجود بعض الظواهر المحدودة زماناً ومكاناً.

الثالث : لن يكون أهل الكتاب ملة واحدة حتى مع نيتهم الالتقاء والإجتماع على محاربة الإسلام.

الرابع : إتصال الإعجاز الموضوعي لهذه الآية الكريمة بإستمرار ودوام مصداقها إلى هذا الزمان، وهو وجه من وجوه الإعجاز الغيري للقرآن الذي لا ينحصر بزمان التنزيل.

الخامس : الإخبار عن الغيب وصيغة التحدي التي جاء بها القرآن ظاهرة في آياته، فلو نوى أهل الكتاب بالإتفاق على قبلة واحدة لا شيء إلا لإظهار الخلاف مع هذه الآية لما إستطاعوا التطبيق والعمل.

السادس : موضوعية القبلة في الشرائع والمثلل السابقة تثبت لإنفراد

كل منهم بقبلة مستقلة واليهود يتوجهون إلى بيت المقدس، والنصارى إلى جهة المشرق حيث ولد عيسى عليه السلام وقيل لأنه جهة طلوع الشمس.

السابع : تتحدث الآية في منطوقها عن القبلة إلا أنها في مفهومها تشير إلى ظهور الخلاف والخصومة بينهم.

الثامن : الآية رحمة وتخفيف عن المسلمين بما تدل عليه بالدلالة الإلزامية والتضمنية.

التاسع : المخالفة والتعدد في قبلتهم حجة ودليل على عدم إنحصار القبلة ببيت المقدس.

العاشر : لا تنفي الآية تحول غير المسلم إلى الإسلام، فموضوع الآية نفي الإلتقاء والإجتماع على قبلة واحدة بلحاظ الإلتقاء الديني.

الحادي عشر : الدعوة لمعرفة أسباب عدم إلتباع بعضهم قبلة بعض.

قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ﴾

لا ينحصر تفسير الآية بموضوع القبلة والنهي عن إلتباع قبلتهم ، وموضوعها أعم، وفيها مسائل:

الأولى : للهوى معنيان:

الأول: عام وهو ميل النفس إلى ما تحب.

الثاني: خاص وهو ميلها إلى ما تستلذه من غير واعز شرعي.

والمراد هو الثاني وهو الغالب في الإصطلاح.

الثانية : مضامين الآية قاعدة كلية وحكم شرعي.

الثالثة : في الآية نهى للمسلمين عن الركون للغير، وحث على

إجتنب إلتباعهم والإنقياد لهم قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾^(١).

الرابعة : الخطاب وإن كان ظاهره موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن المقصود الأمة بأجيالها المتعددة.

الخامسة : الآية سر في فلسفة الأوامر الإلهية، فقد جاءت مادة وسيباً ومثالاً ومصدقا لقاعدة كلية هي: إتباع أهواء أهل الكتاب يؤدي إلى الضلالة والخسران في الدارين.

السادسة : النهي والتحذير من إتباع الهوى، وأن الهوى المغاير للهدى يقود قهراً وإنطباعاً إلى النار.

السابعة : تأديب المسلمين وتحذيرهم من محاكاة أهل الكتاب في الأحكام الشرعية، والتنبية على لزوم رجوعهم إلى القرآن والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مسائل الحلال والحرام.

الثامنة : هل تؤكد الآية الكريمة بأن كل ما عند أهل الكتاب هو من الهوى والضلالة أم أنها اخص وتنهى عن إتباع الأهواء من غير أن تنفي ما هو خلافها، الجواب هو الثاني بلحاظ وصفهم بأنهم أوتوا الكتاب وترشح موضوعه ومنافعه عليهم.

التاسعة : الذم لا يتعلق بالأحكام بل يتعلق بالعناد بعد نزول القرآن ولزوم إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

العاشرة : الآية تدل بالدلالة الإلزامية على عدم رجوع المسلمين إلى أهل الكتاب.

الحادية عشرة : إتباع القرآن وأحكامه يحول دون طغيان الهوى وإستحواذ الشيطان والحاجة إلى الغير في الأحكام.

الثانية عشرة : الفراغ العقائدي والفكري عندهم بنعتهم بالهوى وإن أفعالهم لم تنجم عن حق وتنزيل.

الثالثة عشرة : تشير الآية ضمناً حصول التحريف للتعارض والتنافي بين التنزيل والهوى قال تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ

مَوَاضِعِهِ^(١).

الرابعة عشرة : الآية دعوة للشكر على تفضل الله تعالى لبيان عند الملل الأخرى وهو جزء من الموعظة والعبرة التي تتضمنها قصصهم في القرآن.

الخامسة عشرة : ذكر: "ان الآية تهديد للنبي، والمعنى متوجه إلى أمته".

ولكن الآية خالية من التهديد والتخويف إنما نزل القرآن بلغة إياك أعني وإسمعي يا جارة، فالمراد إلقاء اليأس في نفوس أهل الحسد وإخبارهم بتعذر البقاء أو الرجوع إلى بيت المقدس كقبلة وعدم تغيير التوجه إلى المسجد الحرام، قال تعالى في خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلَلَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)، وفيه مواساة ودعوة للمسلمين للصبر على الأذى وعلى الطاعة، وعن ابن عينة في الآية: تسلية وقال: إنما قاله من علمه^(٣).

والقرآن يفسر بعضهم بعضاً قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٤)، مما يدل على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لا يتبع أهواءهم أبداً لأنه يتبع الأوامر الإلهية، قال

(١) سورة المائدة ١٣.

(٢) سورة إبراهيم ٤٢.

(٣) الكشاف ٢/٣٨٢.

(٤) سورة المائدة ٤٨.

تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

السادسة عشرة : لقد وردت آيات كثيرة تنسبهم إلى الهوى وتحذر منه، قال تعالى ﴿قُلْ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾^(٢).

السابعة عشرة : الآية وإن احتملت النهي والردع ، ولكنها إخبار وتوكيد وبلاغ لأهل الكتاب بعدم تأثيرهم على المسلمين.

الثامنة عشرة : من صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي رزقه الله أنه لا يقول ولا يعمل إلا بما يتلقاه بالوحي، وفيه دعوة للتسليم بما يأتي به بلاغاً أو إنذاراً أو أمراً أو نهياً .

التاسعة عشرة : الآية دعوة للشكر على جعل المسلمين يكتفون بما جاء به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى.

العشرون : ظاهر الآية يدل على أن المسلمين يعرفون الذين يتبعون الأهواء في الإحتجاج والإعتراض على تحويل القبلة.

الحادية والعشرون : في الآية توبيخ وذم لأهل العناد ومدح للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتشريف له باستغناؤه بالعلم الحضورى والتنزيل وآيات القرآن.

الثانية والعشرون : تدل الآية على ما كان يعانيه المسلمون من محاولات الإغواء من أهل الملل الأخرى.

الثالثة والعشرون : تظهر الآية إمامة القرآن للمسلمين وانه يمنعهم ويصونهم، ويأمرهم باتخاذ الحيلة وإجتنب إتباع أهل

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) سورة الأنعام ٥٦.

الكتاب.

الرابعة والعشرون : وصف إتباع أهل الكتاب في أهوائهم أنه ظلم يدل بالضرورة على أنهم ظالمون، ولو بلحاظ عدم إستجابتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لقيدية الوصف بالظلم للوجود فيما جاء من الآيات والحجج والبراهين.

الخامسة والعشرون : هل المسلمون مشمولون بموضوع هذه الآية، الجواب: نعم ، ولكن على سبيل المدح والثناء منطوقاً ومفهوماً، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، لأنهم بادروا للإمتثال لتحويل القبلة، وثبتوا في منازل الإيمان.

السادسة والعشرون : الآيات التي أنزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم آمن بها المسلمون وأدركوها وأيقنوا بها فهم أيضاً جاءتهم الآيات ولكن بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

السابعة والعشرون : الظلم من الكليات المشككة، ومنه إتباع الهوى ومحاولة إغواء المسلمين وإيذائهم.

الثامنة والعشرون : الآية توبيخ وتقبيح لفعلهم إذ أن جحودهم برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أشد وجوه الظلم.

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الآية ١٤٦.

الإعراب واللغة

الذين: مبتدأ، آتيناهم: فعل ماض، وفاعل، ومفعول به، الكتاب: مفعول به ثان، والجملة الفعلية لا محل لها لأنها صلة الذين.

يعرفونه: فعل مضارع، الواو: فاعل، الهاء: مفعول به، والجملة خبر الذين. كما: الكاف: حرف جر، ما: مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر ويعرب حسب موقعه في الجملة فقد يكون مبتدأ مؤخرًا، أو مفعولاً به، أو مجروراً كما هو الحال في الآية الكريمة ومعناه كمعرفتهم أبنائهم.

وإن: الواو حالية وإستثنائية، إن: حرف مشبه بالفعل للتوكيد، فريقاً: اسم أن منصوب، من: حرف جر، هم: ضمير في محل جر متعل بمحذوف نعت لفريقاً، ليكتمون: اللام هي المزلحقة، يكتمون: فعل مضارع، الواو: فاعل.

وهم يعلمون: الواو: حالية، هم: مبتدأ، والجملة الفعلية من الفعل والفاعل خبر.

يقال: عرفه الأمر: أعلمه إياه، وبينه له، وفي حديث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع أزواجه، ورد في التنزيل ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾^(١)، أي بين شطراً منه، وترك الآخر.

(١) سورة التحريم ٣.

في سياق الآيات

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الشعبة الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿وَكَيْفَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ...﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: تضمنت الآية السابقة قوانين كلية بخصوص القبلة، منها أن أهل

الكتاب لا يتبعون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في إستقباله للبيت الحرام، لتأتي آية البحث حجة في وجود الدليل بين ظهرائهم، وفيه آية إعجاز في نظم القرآن وهي تعقب الحجة والدليل في القرآن للإحتجاج وسنخية الجدال.

وليس من حصر لمنافع هذا التابع والتعاقب والتداخل، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٢)، فلا يجتهد المسلمون في البحث والتحقيق في الحجة التي يأتي بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الحق والصدق والنفع في ثنايا الكتاب وأحاديث السنة عن الحجة والآية في قوله تعالى ﴿بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾، فهي موجودة في الآية التي بعدها فهم بالتحقيق والبحث في آيات القرآن والسنة النبوية تجد آيات وحجج أخرى كثيرة، وهو مصداق سور الموجبة الكلية (كل) في قوله تعالى (بكل آية).

الثانية: ذكرت كل من الآيتين أهل الكتاب بلغة المدح لهم والحجة عليهم وهل هو من إجتماع النقيضين الجواب لا، لأن المدح طريق للإحتجاج، وتأكيد حقيقة وهي علمهم بلغة الآية والدليل الذي يأتي به

(١) الآية ١٤٥.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لذا ترى السور المكية كلها تخويف ووعيد لأنها نازلة في مكة بين ظهراني الكفار والمشركين، أما السور المدنية فأنها تبين الأحكام والسنن.

الثالثة : دعوة الناس إلى نبذ إخفاء الحق وكتمان البشارات والحقائق، لأن هذا الكتمان نوع طريق لإتباع الهوى، ورشحة له، وهو بذاته إتباع للهوى.

الرابعة : من مصاديق معرفة أهل الملل السابقة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو تحول قبلته إلى البيت الحرام مما يدل على الدعوة لتلقي التنزيل بتحويل القبلة بالقبول، ولا أقل بعدم الإنكار.

الخامسة : تحذر آية البحث من إتباع أهواء الناس التي تتنافى مع العلم، ومن مصاديق العلم في المقام أن تحويل القبلة حق ووحى من عند الله لا يقبل التردد والترديد، وهل قول وإنكار السفهاء في قوله تعالى (سيقول السفهاء) من الأهواء التي نهى الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من إتباعها، الجواب نعم، مما يدل على حث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين على المضي والثبات في إستقبال البيت الحرام.

ومن الإعجاز في قوله تعالى (بكل آية) ومعرفة لغيره تعدد الآيات والحجج التي عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على أهل الكتاب بخصوص القبلة والتوجه إلى البيت الحرام ويدل بفحوى الخطاب والأولوية القطعية على أمور:

الأول : تعدد وكثرة الآيات التي عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على أهل الكتاب.

الثاني : كثرة الحجج والبراهين في الدعوة إلى الله.

الثالث : كثرة البراهين والدلائل في كل حكم جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ

مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ^(١).

الرابع : إقامة الحجج على الكفار والمشركين بقبح وسوء فعلهم ولزوم إيمانهم.

جاءت الواو في (وما أنت بتابع قبلتهم) للإستئناف وإن ذكر بعض المفسرين أنها للعطف فعدم إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الكتاب في قبلتهم لا يتوقف على ما سيأتيهم به من الآيات والدلالات الباهرات، وهم لا يأتون للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بآية وقد إنتقل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في جهة القبلة بآية من عند الله، وليس من تعارض بين الآيات لذا جاء بعدها قوله ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٢).

ويحتمل مضمون الآية بلحاظ الزمان وجوهاً:

الأول : إرادة ما بعد تحويل قبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى البيت الحرام.

الثاني : المقصود ما قبل تحويل القبلة، ونزول الآية السابقة.

الثالث : إفادة المعنى الأعم.

والصحيح هو الأخير لأصالة الإطلاق، مما يدل على أن إستقبال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبيت المقدس قبل نزول آية نسخ القبلة ليس إتباعاً لأهل الكتاب بدليل أنهم ذاتهم مختلفون في القبلة، مع التباين في معنى الإلتباع قبل وبعد نسخ القبلة، فقبل النسخ كان هناك تشابه جهتي في جهة القبلة بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفريق من أهل الكتاب أما بعد النسخ فقبلة النبي محمد المسلمين إلى البيت الحرام وإلى

(١) سورة النمل ٦.

(٢) الآية ١٤٧.

يوم القيامة إذ أن النسخ فيها أمر دائم لا يقبل التردد ، وتقدير الآية: وما أنت بتابع قبلتهم قبل نسخ القبله ولا بعدها أبداً.

إن عدم إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقبله أهل الكتاب قبل النسخ وبعده إنما هو عن علم لدني ووحى من عند الله لقوله تعالى في آية السياق ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

وفي قوله تعالى (وما أنت بتابع قبلتهم) بعث لليأس في قلوب المشركين من حدوث تحريف أو تغيير في أحكام الشريعة الإسلامية، فما لم يتعرض للنسخ باق على حاله إلى يوم القيامة، وكذا الناسخ مثل إستقبال البيت الحرام.

ومن إعجاز الآية أن لفظ (تابع) ورد فيها مرتين، ولم يأت في آية أخرى من القرآن، مما يدل على موضوعية القبله في الملل السماوية وإستقلال المسلمين بقبلتهم.

لما ذكرت الآية السابقة إمتناع أهل الكتاب عن إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قبلته ولو جاء بكل آية، جاءت هذه الآية بحجة إضافية وهي أنهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم أي أنه لا تصل التوبة إلى مجيئه لهم بالآيات لوثوقهم من نبوته وشخصه الكريم، وهو من أسرار مجيء الآية السابقة بأداة الشرط ﴿وَلَنْ أَتَّبِعَ الَّذِينَ أَلْفُوا الْكِتَابَ﴾.

وبعد أن بينت الآية السابقة جحود أهل الكتاب وإصرارهم على عدم الإيمان مع تعدد توالي النعم وجحودهم لقبله إبراهيم عليه السلام، جاءت هذه الآية لتؤكد معرفتهم بالآيات وصدق نزول القرآن من عند الله تعالى، وإنهم يعرفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصفاته بما لا يقبل اللبس والشك.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ

فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا.....»^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : ابتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي

السَّمَاءِ﴾ ويعرف أهل الكتاب تحول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قبلته إلى البيت الحرام، وهل يعرفون تقلب وجهه في السماء وهل هذه المعرفة سابقة، وما أخبرت بها الكتب السماوية أم أنهم علموا بها عند تطلع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السماء، الجواب لا دليل على هذه المعرفة، ولا بد من مائز بين علم الله ومعرفة الناس في الموضوعات والكميات والجزئيات، فما يجهله الناس في كل فرد منها أكثر مما يعلمون ويدل قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنَّا قِيلَتُهُمْ﴾^(٢)، على أمور:

الأول : حصول الإنكار بعد تحول المسلمين إلى إستقبال البيت الحرام.

الثاني : صدور الإنكار من السفهاء الذين ليس عندهم تدبر في الأمور والوقائع.

الثالث : تعلق الإنكار بتبديل المسلمين قبلتهم وإنتقالهم من إستقبال بيت المقدس (ما ولاهم عن قبلتهم) أي أنهم لم يتعرضوا للتنزيل وتحول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في قبلتهم وهم يعلمون أن المسلمين تابعون له مصدقون بأمره يسلمون بأن ما يفعله بالوحي والتنزيل.

الثانية : يفيد الجمع بين قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وبين

قوله تعالى ﴿لَا يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ﴾ إن هذا الكتمان لا يضر المسلمين ولا يكون برزخاً دون نزول الأحكام والعمل بالناسخ وترك المنسوخ، وفيه آية بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين يعلمون بالتنزيل ويعرضون

(١) الآية ١٤٤.

(٢) الآية ١٤٢.

عن الذين يصدون عن الحق بعد معرفته.

الثالثة : ذكرت آية البحث علمهم بالحق بقوله تعالى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وذكرت آية البحث إخفاؤهم وكتمانهم للحق بقوله تعالى (ليكتُمون الحق وهم يعلمون) ويفيد الجمع بينهما أن الحق الذي يخفون إنما هو تنزيل من عند الله، وتحتل النسبة بين إخفاء التنزيل وإخفاء الحقائق وجوهاً:

الأول : التساوي وكل فرد منها محرم.

الثاني : إخفاء التنزيل من الكبائر وهو أشد قبحاً من إخفاء الحقائق والوقائع.

الثالث : التفصيل فمن الوقائع ما يكون إخفاؤها أقل إثماً وضرراً من إخفاء التنزيل.

والصحيح هو الثاني مع الإجماع على حرمة كل منهما.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾^(١)، وفيها

مسائل:

الأولى : جاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية، وجاءت آية السياق

بلغة الخطاب المتوجهة إلى المسلمين بقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ومن

أسرار القرآن أن معاني اللفظ القرآني أعم من لغة الخطاب.

الثانية : يعرف الناس النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأنه نبي

يدعو إلى الهداية والصلاح، ومن مصاديق الهداية إتخاذ البيت الحرام قبلة.

الثالثة : ذكرت آية البحث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بضمير

الغائب الهاء في يعرفونه، وذكرته آية السياق بصفات هي:

الأولى : الرسول، ووردت هذه الصفة للنبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم في الآية مرتين.

الثانية : الشهيد بقوله تعالى ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

الثالثة : إمام الأمة التي شرفها الله بمرتبة الأمة الوسط.

الرابعة : الرسول الذي صلى إلى قبلتين بأمر من الله عز وجل.

الخامسة : فوز الذي يتبع النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في القبلة والعبادات والأحكام مطلقاً.

الرابعة : تضمنت آية البحث الذم للذين يخفون الحقائق والتنزيل، وجاءت آية السياق بالثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بإظهارهم للتنزيل بالعمل بأحكامه وسنته مع توارثهم هذا العمل إلى يوم القيامة.

وتجلت شهادة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين بقوله تعالى ﴿مَلَأْنَاكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوسًا كُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١)، أي شهادته صلى الله عليه وآله وسلم عليهم بحسن الإسلام والإنقياد لأوامر الله، ومنها توجيههم إلى البيت الحرام في الصلاة، وهل تختص الشهادة في موضوع القبلة بالصحابة أو أن نزول الآية الجواب لا، فهي عامة وشاملة للمسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُتَرَبِّينَ﴾^(٢)، وفيها مسائل :

الأولى : تكرر لفظ (الحق) في الآيتين، وهل المراد ذات المعنى أم أنه

(١) سورة الحج ٧٨.

(٢) الآية ١٤٧.

متعدد، الجواب هو الأول.

الثانية : تجلي الحق والتنزيل وصدق النبوة حتى مع إخفاء فريق من الناس للبشارات به.

الثالثة : من معاني الحق في المقام القبلة التي يتوجه لها رسول الله والمسلمون وهو البيت الحرام وإن إخفاء أمر التحول إليها في الكتب السابقة لا يضر في حال اليقين عند المسلمين لأنهم يتبعون التنزيل، ولو حدث تعارض ظاهري بين التنزيل بصفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند أهل الملل السابقة فإن المسلمين يعلمون بالوحي وآيات القرآن لذا جاء التعدد في آيات القبلة، وفيه مسائل:

الأولى : بيان موضوعية إستقبال البيت الحرام في أحكام الشريعة الإسلامية.

الثانية : تأكيد وجوب عمل المسلمين بآيات القرآن وإمثالهم لأحكام القبلة.

الثالثة : لم يأت توجه المسلمين للبيت الحرام في كل أيام البعثة النبوية إبتداء وإستدامة ، إذ نزلت آيات القبلة والمسلمون يستقبلون بيت المقدس لثمانية عشر شهراً دخل فيها أفواج من الناس الإسلام.

الرابعة : تعدد آيات القبلة من عمومات قوله تعالى قبل ثلاث آيات ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ففي التعدد والإعادة وبيان إبتداء نسخ القبلة بتقليب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجهه في السماء آيات ترغيب وتذكير وتثبيت لأحكام إستقبال البيت الحرام.

الخامسة : يتجلى التعدد في موضوع القبلة بتوجه الخطاب بالتحول إلى إستقبال البيت الحرام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تارة إلى النبي وإلى المسلمين تارة أخرى (فول وجهك) (فولوا وجوهكم).

السادسة : البيان والتكرار في هذه الآيات بأن تحويل القبلة حق كما في

هذه الآية بإعتبار أن هذا التحويل من معاني الحق في آية البحث وهو المقصود في قوله تعالى ﴿أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(١).

السابعة : إكرام المسلمين بتعدد آيات القبلة والأمر بتوجه وجوههم إلى البيت الحرام، ليكون هذا التوجه نحو طريقة وشاهد على توجه قلوبهم إلى الله عز وجل ونيل رحمته.

الثامنة : تكرار نعت إستقبال البيت الحرام بأنه حق وصدق وفيه تذكير لأهل الكتاب ودعوة للتوبة والإنابة والرجوع إلى البشارات بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة والإنجيل وما فيها من التوجه إلى المسجد الحرام قبلة له وللمسلمين.

الرابعة : ورد لفظ (الحق) في آية البحث مطلقاً (ليكتُمون الحق) وجاء قبل آيتين مقيداً بأنه من عند الله ليكون تقدير آية البحث: ليكتُمون الحق من ربهم وهم يعلمون).

الخامسة : تعدد ذكر الذين أوتوا الكتاب في آيات القبلة، ولا تكاد تخلو آية من هذه الآيات العشرة من ذكر وإشارة وحجة وبرهان إليهم، ولكن ليس فيها خطاب لهم بل توجه الخطاب فيها للمسلمين، وفيه تأكيد للتكليف بإستقبال البيت الحرام.

السادسة : دفع حال الشك والتردد عن المسلمين في موضوع القبلة.

السابعة : وقاية المسلمين من أهل الجدال والخصومة بخصوص إستقبالهم للبيت الحرام.

الثامنة : لما ورد قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ﴾^(٢) جاءت آية البحث وتعقبها آية السياق بأن تحويل القبلة حق

(١) الآية ١٤٤.

(٢) الآية ١٤٢.

وصدق، ليتجلى إنتصار وظهور الحق، لأن السفه قاصر عن معارضة الحق، وكذا كتمانانه، وقد يجتمع السفه في لوم المسلمين الذي تدل عليه الآية أعلاه وكتمان الحق ونزول تحويل القبلة الذي تدل عليه آية البحث.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : جاءت آية السياق بلغة الخطاب، بينما جاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية.

الثانية : مما يعرفه أهل الملل تحول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى البيت الحرام.

الثالثة : تكرر لفظ الحق في آية البحث والسياق، وبينهما من جهة المعنى عموم وخصوص مطلق، فالحق في آية البحث أعم والقدر المتيقن منه في آية السياق هو إتجاه القبلة وإستقبال المسلمين للبيت الحرام.

وورد لفظ (الحق) في أربع آيات من ست آيات متجاورات من آيات القبلة مما يدل على ذكر قبلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتوجهه إلى البيت الحرام في الكتب السماوية السابقة.

الرابعة : يفيد الجمع بين الآيتين أن كتمان فريق من الناس الحق بإستقبال خاتم النبيين للبيت الحرام لا يضر في إمثاله والمسلمين للأمر الإلهي بإستقباله وإن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يتلقى الأحكام بالتنزيل والوحي، ولا موضوعية لإخفاء طوائف منهم البشارات بنبوته، قال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٢).

الخامسة : أختتمت هذه الآية بالإشارة إلى العلم، ولزوم توظيفه في

(١) الآية ١٤٩.

(٢) سورة آل عمران ٦٩.

إعلان الحقائق، وأختتمت آية السياق بالإخبار عن علم الله عز وجل بما يفعل المسلمون، وفيه دعوة لهم لأداء الوظائف العبادية والمبادرة إلى إستقبال اليت الحرام.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ...﴾^(١)،

وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : كما أرسلنا فيكم رسولاً الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه.

الثاني : كما أرسلنا فيكم رسولاً يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

الثالث : كما أرسلنا فيكم رسولاً وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق.

الرابع : ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق.

الثانية : بيان إتصال فضل الله على الناس بالتنزيل، ثم تفضل الله عز

وجل ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن الذي جعله

الله ﴿نَبِيًّا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

الثالثة : مثلما أخبر القرآن عن نزول الكتب السماوية السابقة فإنها

أخبرت وبشرت بنزوله.

الرابعة : تجلي لغة التأكيد في آية السياق لمضامين آية البحث والتي

تتضمن أموراً تعرف بذاتها وأثرها هي:

الأول : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمعجزات التي جاء

بها، للملازمة بين الرسالة والمعجزة فيعلم أهل الكتاب بأن النبي يأتي

بالمعجزة وتكون شاهداً سماوياً على صدق نبوته.

الثاني : قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقراءة آيات القرآن

وما فيها من الأحكام والأوامر والنواهي.

(١) الآية ١٥١.

(٢) سورة النحل ٨٩.

الثالث : الإسلام فتح سماوي أنقذ الناس من براثن الجاهلية والوثنية.
الرابع : إبتداء فصل من التأريخ العقائدي للناس بتعلمهم الكتاب والتنزيل بدخول الإسلام.

الخامس : تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين العلوم والمعارف وقصص الأنبياء، والحكمة التي تكون طريقاً للإيمان وتثبت معاملة في النفوس، والمجتمعات، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١).

السادس : توالي النعم والعلوم على المسلمين بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيها طرد للغفلة والجهالة.

الخامسة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) ومن مصاديق العلم التي يعلمها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين مضامين آية البحث من وجوه:

الأول : الإخبار عن حقيقة وهي وجود أمم آتاهم الله الكتاب، أي لا زالوا على نهج رسل سابقين، كما في إتباع اليهود لنبوة موسى عليه السلام، وإتباع النصراني لنبوة عيسى عليه السلام، وكل واحد منهما من الرسل الخمسة أولي العزم الذين جعلهم الله سادة البشر.

الثاني : دعوة المسلمين لإكرام أهل الكتاب بتسميتهم في آية البحث (الذين آتيناهم الكتاب).

الثالث : معرفة أهل الكتاب ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه مسائل:

الأولى : العز والمنعة للمسلمين.

الثانية : إنه برزخ دون ديب الشك والريب إلى نفوس المسلمين.

الثالثة : فيه برهان وحجة في الجدل والإحتجاج.

الرابعة : العلم المستحدث للمسلمين بأن أهل الكتاب يعرفون بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصفاته وآثار رسالته في المجتمعات وجذبها الناس للتوحيد، ومحاربتها لمفاهيم الشرك والضلالة.

السادسة : أختتمت كل من الآيتين بالعلم والتحصيل وبيان المائز الذي صار عليه المسلمون بإرتقائهم في العلم والمعرفة.

ومن الآيات أن أول آية نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)، لتقييد التعليم بأن يكون نافعاً في النشاطين، ثم تكرر الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته للمسلمين بعد آيتين بقوله تعالى ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(٢)، أي أن الله عز وجل هو الذي يمد النبي محمداً والمسلمين بأفراد العلم المتكثرة بكرمه وإحسانه وجوده.

إعجاز الآية

في الآية مسائل:

الأولى : تقرب لغة التمثيل في الآية المدركات العقلية الى الحس والوجدان.

الثانية : تتضمن الآية البرهان وتقيم الحجة بأوضح بيان.

الثالثة : يكون ما عندهم من الكتاب شاهداً عليهم ودليلاً وحجة، قال تعالى ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٣).

الرابعة : في الآية إخبار غيبي وتحد وإشعار بعلمهم هذا.

الخامسة : بين التشبيه والتمثيل عموم وخصوص مطلق، فكل تمثيل هو

(١) سورة العلق ١.

(٢) سورة العلق ٣.

(٣) سورة النساء ١٦٥.

تشبيه وليس العكس، فالتمثيل تشبيه ولكنه عقلي لذا ورد تشبيه معرفتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعرفتهم بأولادهم الذكور المتصقين بهم، الفرحين بهم.

السادسة : في هذا التمثيل إعجاز آخر هو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عون لهم ورحمة كما هم الأبناء، ويجب ان يفرحوا ببعثته لأنها إتصال للنبوة ودوامها كما أن الأبناء إتصال للنسل.

السابعة : من إعجاز الآية أنها تعاهد للنبوة وترسيخ وتوكيد لضرورة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في نفوس أهل الكتاب وواقعهم اليومي حثاً منه تعالى على نصرته والإيمان به، ومنع التضامن والتعاون على محاربته.

الثامنة : إن لم تؤد هذه المعرفة إلى إيمانهم فإنها تحول دون جمعهم لكل قواهم للإجهاز على الإسلام سواء في بدايات البعثة أو فيما بعد فهي إذن بشارة للمسلمين.

التاسعة : الآية سلاح بيد المسلمين في باب الجدل والاحتجاج وإستحضار مضامين الكتب السابقة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿نَحْنُ نُقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١)، بلحاظ أن الإخبار عن معرفتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لورود ذكره والبشارة بنبوته في الكتب السابقة من أحسن القصص، وليكون من حسناتها أنها مادة للبصيرة في الدين، وموضوع الإقامة البرهان على صدق نبوته.

العاشرة : إبتدأت الآية بلغة العموم في معرفة أهل الكتاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأختتمت بالتبويض وأن فريقاً منهم فقط الذين

يخفون البينات وفيه شاهد على الدقة والموضوعية والضبط في البيان القرآن ولغة الإحصاء والفيصل في الأمور.

ويمكن تسمية هذه الآية آية (يعرفونه) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في آيتين من القرآن^(١).

الآية سلاح

تخفف الآية عن المؤمنين في السعي لإقناع أهل الكتاب وإتيانهم بالينات وما نزل من الآيات الخاصة بصدق نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد الإخبار القرآني عن معرفتهم وتأكدهم من نبوته ففيها غنى وكفاية لأن محاولات إقناعهم قد تكون من تحصيل ما هو حاصل.

لقد كان المشركون يسألون أهل الكتاب عن صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم أهل كتاب وعندهم أخبار الرسالات، فجاءت هذه الآية واقية من إخفاء الحقائق، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ودعوة لإظهارها وهو من مصاديق التبويض في قوله تعالى (وإن فريقا) بلحاظ أن من مصاديق الرحمة في المقام البيان وكشف البشارات، وإعانة الناس على عدم كتمانها أو صيرورة هذا الكتمان عديم الضرر، قال تعالى ﴿لَن يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٣).

لقد أتقن الله عز وجل وهو اللطيف الخبير، ومن بديع إحسانه مجيء الرسول السابق بالبشارة بالنبي اللاحق لتكون تصديقاً للمعجزة التي يأتي بها، وتخفيفاً عن الناس في التصديق بنبوته وترك التردد وطرده الشك، وكان

(١) أنظر سورة الأنعام ٢٠.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) سورة آل عمران ١١١.

في المدينة المنورة ثلاث قبائل من بني إسرائيل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فجاءت الآية حجة ودعوة لحفظ وتعاهد العهود بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

مفهوم الآية

تظهر الآية وجهاً آخر من وجوه إعجاز القرآن وهو معرفة أهل الكتاب بنزوله وبنوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي يمكن التفكيك بين العمل بالكتب السماوية السابقة وبين أثرها، فقد يترك الناس العمل بالكتاب جحوداً أو ضلالة، وقد تصله يد التحريف لتكون غشاوة وحاجباً ظلمانياً يحول دون معرفة الأجيال اللاحقة بما في الكتاب من البشارات ولكن الأثر باق، وجاء القرآن لتوكيده الدعوة للإلتفات إليه.

وتتضمن هذه الآية الإخبار بان صيغ الإصغاء والتحريف لم تستطع الحيلولة دون وصول الآيات والبشارات الى الأجيال اللاحقة منهم.

فمن أسمائه تعالى العزيز، وهو الغالب الذي لا يقهر ولقد أرسل الأنبياء مبشرين ومنذرين، فما في التوراة والإنجيل من البشارات لن يحول الكتمان دون تأثيرها، أي انه لم يكن حاجزاً دون ظهورها وإنكشاف أنوارها في باب الحجة والبرهان وقواعد اللطف بإعانة الناس على الإيمان، وعلى الرغم من محاولات كتمان الآيات كان أهل الكتاب ينتظرون ظهور نبي آخر زمان ويتناقلون في متندياتهم ومجالسهم صفاته وعلاماته، والتي جاءت مجمعة برسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَكَاُنَا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١).

إن نزول البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مقدمة للإيمان به ونعمة على الناس وأهل الكتاب خاصة، وأنه سبحانه إذا أنزل نعمة فهو أكرم من أن يرفعها، وفي عيسى عليه السلام ورد قوله تعالى ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١).

ولقد إنتفع المسلمون من البشارة في كشف زيف ما يقوله أهل الريب والعناد ولكنها أيضاً ظلت عند أهل الكتاب وبذا تتجلى لنا حقيقة تكوينية خالدة وهي أن التحريف فشل في تحقيق مقاصده الخبيثة وان الحقائق والحجج أراد الله لها الإستدامة لتكون عوناً للناس لدخول الإسلام، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بتقريب أن من ملك الله عز وجل إزاحة العوائق التي تحول دون إسلام وإتقياد الناس لله عز وجل وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونِ﴾^(٢).

الآية لطف

تبين الآية منزلة وعلو شأن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في تأريخ الإنسانية وتعاقب الأنبياء وتوالي الوحي عليهم بحيث صارت معرفتهم له كمعرفتهم لأبنائهم، وكما يرجو الإنسان أن يكون عنده ولد، ويتطلع إليه بسرور وهو ينمو ويكبر، فكذا رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم يعرفون تلقى الناس بالقبول والرضا والإتقياد لأوامر الله، وفي التنزيل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

(١) سورة الصف ٦.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

كَلِّهِ^(١)، ويغادر الأب الدنيا ويبقى الابن من بعده وبالإسلام يتجدد ذكر الله وتعمر الأرض بالعبادة والنسك وتحتمل معرفتهم بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجوهاً:

الأول : قبل البعثة النبوية المباركة.

الثاني : بعد نزول الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتوالي المعجزات على يديه.

الثالث : عند رؤيتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتحقيق المعرفة واقعاً.

الرابع : بعد التذكير بمعرفتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي تضمنته هذه الآية ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق تفضل الله، على الناس عامة وأهل الكتاب والمسلمين خاصة، ومن عمومات ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٢)، مع بيان وتفصيل بلحاظ الشواهد والمصاديق بمجيء الحجة على وجوه:

الأول : دفعة ومرة واحدة، تتصف بها بأنها حجة بالغة جلية، وبرهان قاطع.

الثاني : مجيء الحجة على نحو الدفعات والمرات المتعددة لتكون مجتمعة حجة بالغة.

الثالث : صيرورة الحجة بالغة، ثم تتوالى بعدها مصاديق الحجة والبرهان وكل هذه الوجوه من مصاديق اللطف الإلهي وصيغ تقريبيهم إلى منازل الإيمان، وتتجدد أسباب معرفة الناس للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة التوبة ٣٣.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

بصفة النبوة والرسالة بتوالي المعجزات وفضح أعدائه ولحوق الخزي بمن نصبوا له العداوة، قال تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَقًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالإخبار عن وجود أمة من الناس آتاهم الله الكتاب والتنزيل، وتلك آية في تفقه المسلمين في أحكام الملل السابقة، وإكرام أهل الكتاب الذين يتبعون الأنبياء.

بعد إختتام الآية السابقة بهداية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى الإحتراز من إتباع أهواء الغير، وما في هذا الإلتباع من الظلم للذات والغير وإبتدأت هذه الآية بذكر أهل الكتاب بموضوع يتعلق بالعلم والمعرفة، وفيه شاهد على المائز بينهم وبين غيرهم من الناس، وأن تلقي الكتاب النازل من السماء بالقبول مرتبة وإرتقاء في درجات العلم والمعرفة، ومقدمة لهذه المرتبة، وجاءت الآية للإخبار عن حال وواقع، وهو معرفة أهل الكتاب بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وذكرت الآية صفة مركبة لأهل الكتاب بقوله تعالى (يعرفونه) الذي يتكون من ثلاث كلمات، فعل وفاعل ومفعول به، مع التعدد في المراد من المفعول به، لبيان أن الله عز وجل يهب المتعدد سواء بالذات أو بالمعرفة والمفهوم، مع الملازمة بين المعروف العقائدي عند أهل الكتاب.

وبعد أن ذكرت الآية معرفة أهل الكتاب بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته وصفاته جاءت بالتشبيه لتقريب المعنى وإقامة الحجة ومنع الجدال والمغالطة وأخبرت بأن معرفتهم له تشبه معرفتهم لأبنائهم وتمييزهم

لهم من بين الناس، ويحب الإنسان ابنه ويرجو له أن يخلفه وكذا الأصل في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالأصل هو حبهم له ورجاء ظهور دولة الإسلام وإنجذاب الناس إلى الإيمان وصيرورة أهل التوحيد في عز ومنعة. ثم ذكرت الآية أن طائفة من أهل الكتاب يخفون الحق مع علمهم به. ومن إعجاز الآية أن خاتمة الآية أخص في موضوعها وأعم في حكمها من أول الآية، إذ أخبرت بأن فريقاً منهم يكتمون الحق وليس كلهم، والمراد من الحق أعم من المعرفة الشخصية ونكرانها.

إفادات الآية

أخبرت الآية عن معرفة أهل الكتاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبصيغة الثناء عليه بلحاظ أنهم يعرفونه بمقام ورتبة النبوة وهي أسمى مرتبة فاز بها أحد من البشر ومن مصاديق معرفة النبي في المقام أمور:

الأول : نزول آيات القرآن وتجلي معاني الإعجاز في ألفاظها ومعانيها وتأويلها.

الثاني : الدلالات والبيانات الحسية التي تدل على صدق نبوته.

الثالث : تحقق النصر والغلبة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين مع قلة عددهم ومؤونهم وأسلحتهم وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَأَحْلَتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَرُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً^(١)، وكل فرد من هذه النعم الست معروفة وتجلت ظاهرة للناس بالمصداق العملي لأهل الكتاب وغيرهم.

الرابع : يعرفونه بصفاته الشخصية التي وردت في الكتب السماوية السابقة.

الخامس : خصال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهيئة التي تدل على أن نبي بحق وصدق، وفي حديث أنس أن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله وتحقق أنه هو النبي صلى الله عليه وسلم المنتظر، فقال له إنني سائلك عن ثلاث ما يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعات، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزع له وإن سبق ماء المرأة نزع لها" فقال أشهد أنك لرسول الله حقاً^(١).

وتدعو الآية الناس إلى سنن التقوى والصلاح بعدم إخفاء الحقائق، وعدم الالتفات إلى من يقوم بكتمان الحق، ومن إعجاز آيات القرآن تسمية ما يخفون بأنه (حق) أي أن إخفائهم له لا يمنع من ظهوره وتجليه بالتنزيل والوحي وبصيغ البيان والإعجاز، قال تعالى ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ﴾^(٢)، ليكون من إعجاز القرآن إحقاق الحق وفضح صيغ إخفائه.

(١) تفسير الرازي ٤٧/١٤.

(٢) سورة الرعد ١.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : بيان حقيقة وهي معرفة الناس بنبوة محمد قبل أوان البعثة، ويتصف هذا الفريق بمجيء الكتاب والتنزيل لهم.

الثانية : من خصائص الكتب السماوية السابقة البشارة بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث : ورد في التنزيل ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ومعرفة أهل الكتاب بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كمعرفتهم لأبنائهم من نعمة الله عليهم، ومن تفضيلهم على العالمين، ولتكون منافع وآثار هذه المعرفة من هذه النعمة والتفضيل واتصالها ودوامها بالتصديق بنبوته.

الرابعة : بيان إشراقه من مدرسة التشبيه القرآنية بأن تكون معرفتهم بالنبي كمعرفة الأولاد.

الخامسة : بيان المائز والإكرام الذي خص الله به أهل الكتاب بمعرفتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصفاته ومعجزاته كما يعرفون أبناءهم، ولزوم مقابلة هذا الإكرام بالشكر لله عز وجل.

السادسة : الإخبار عن إخفاء فريق من أهل الكتاب للبشارت بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السابعة : حصول كتمان الحق عن معرفة وعلم، وفيه ترغيب بإظهار الحقائق.

الثامنة : دعوة خاتمة الآية المسلمين للتبليغ والسعي لإيجاد الذي يظهر البشارة من علماء أهل الكتاب كما في عبد الله بن سلام.

التفسير

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

الأولى : الآية إحتجاج وتوثيق سماوي لحقيقة عقائدية يؤدي التكرار لها وإخفاؤها إلى التضليل والخسران لكثير من الناس والإبتلاء للمؤمنين لولا رحمة الله.

الثانية : جاءت هذه الآية للتخفيف عن أهل الكتاب لأنها تدعوهم بالدلالة التضمنية إلى كشف تلك الحقيقة.

الثالثة : في الآية رحمة ورأفة بأهل الكتاب إذ تدعوهم إلى التدبر والتفكر ومواجهة الواقع بجرأة.

الرابعة : إنها جسر للنجاة والانتقال إلى ساحل الأمان لمطابقة الذي أتى به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله لما في الكتب التي سبق نزولها من السماء.

الخامسة : الآية سلاح بيد المسلمين ومادة للإحتجاج ودعوة لزيادة الإيمان، أي أن المؤمنين يتنفعون من الآية أيضاً ويكون إنتفاعهم منها أكبر من إنتفاع غيرهم، وهذا من إعجاز القرآن بأن يكون المقصود بالآية متعددًا وغير متحد سواء بالذات والعرض، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾^(١)، في بيان أن المسلمين يتنفعون من كل آية من القرآن منطوقاً ومفهوماً، وأن كل الخطاب والموضوع فيها يخص غيرهم.

وذكر الكتاب هنا مقدمة ودلالة على أن معرفتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة الكتاب الذي عندهم والنازل على نبيهم وما فيه من

(١) سورة إبراهيم ٥٢.

البشارة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهم يعرفونه بما هم أهل كتاب، وهل يعني هذا أنهم وحدهم يعرفون النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلحاظ أن تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية ودوران الحكم وفق الوصف.

الجواب هذا صحيح إلا أن المعنى والمعرفة أعم إذ أن غير الكتاب يعرفونه من وجوه:

الأول : بقاء حنيفية إبراهيم، والمناسك العبادية كما في صرح البيت الحرام وحج الناس له مع شركهم وجاهليتهم.

الثاني : إقتباس الناس من أهل الكتاب.

الثالث : التركة الكريمة للنبوّة والتنزيل بين الناس وهو الذي يتوارثه الناس من أخبار الأنبياء، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١)، ويكون أهل الكتاب بعرض واحد مع غيرهم في هذا الوجه ليكون بينهم وبين غيرهم من الناس عموم وخصوص مطلق، إذ يعلم أهل الكتاب صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الكتاب الذي يتلونه ويصدرون عنه، ويعرفون صفاته أيضاً من الإخبار والعلامات الموجودة بأيدي الناس .

وجاء ذكر أهل الكتاب على نحو الخصوص لوجوه:

الأول : تعدد طرق معرفتهم بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : الوثاقة في الأخبار التي بين أيديهم، وأنه حق وصدق.

الثالث : إتباع شطر من الناس لأهل الكتاب، وإنصاتهم لهم في أخبار النبوّة.

الرابع : موضوعية وحدة سنخية المعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء السابقين، ولقد آمن أهل الكتاب

بمعجزات الأنبياء السابقين فيقتضي الأمر التصديق بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لوحدة الموضوع في تنقيح المناط، وللبشارات بنبوته في الكتب السابقة.

الخامس : إدراك أهل الكتاب أن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين.

ترى ما هي منافع معرفة أهل الكتاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب من وجوه:

الأول : تهيئة الأذهان وإستقبال المجتمعات لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقبول.

الثاني : هذه المعرفة مدد وعون لأهل الكتاب لتلقي بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتصديق.

الثالث : تلقي نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتصديق والنصرة.

الرابع : بعث الفزع والخوف في قلوب المشركين.

الخامس : يكون أهل الكتاب شهداء على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه دعوة للناس لدخول الإسلام.

السادس : إنه من مصاديق الحجة البالغة لله عز وجل على الناس.

السابع : التخفيف عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

ترى لمن يعود الضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ ، فيه وجوه:

الأول: إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصفة النبوة والرسالة.

الثاني: يعود إلى القرآن الكريم.

الثالث: تحويل القبلة وأنه حق، وروي عن ابن عباس^(١)، وقتادة والربيع

أن علماء أهل الكتاب يعرفون أمر القبلة ونقلها كما يعرفون أبناءهم.

الرابع: العلم لقوله تعالى ﴿مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ، باعتبار أنه اسم سابق

يعود الضمير عليه مع عدم وجود قرينة تدل على غيره، والكتاب في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنَّاهُمْ الْكِتَابَ﴾ أقرب إلى الضمير، ولكن المقصود بالمعرفة غير الذي جاءهم أو أنه يتعلق بالبشارات التي يتضمنها، والمعرفة تتعلق بالذات والجزئيات، والعلم يتعلق بالكليات وصفة الشيء وحكمه، وفي الآية مسائل:

الأولى: وردت مادة (عرف) في القرآن ثلاثاً وعشرين مرة أكثرها تتعلق بالأشخاص ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾^(١) ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾^(٢) ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٣) ﴿ذَلِكَ أَذُنِي أَنْ يَعْرِفَنِي﴾^(٤).

الثانية: ورد قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنَّاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾^(٥) مرة أخرى في سورة الأنعام، وعلى فرض أنها تتعلق بالقرآن فلا يعني هذا بالضرورة أن آية البحث تدل عليه أيضاً، وكذا على فرض أن المقصود بالضمير الوارد في هذه الآية القرآن فلا يعني هذا أنهم لا يعرفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصفاته لدلالة آيات أخرى عليه، بالإضافة إلى السنة وإقرار كثير من علمائهم بذلك عندما دخلوا الإسلام.

الثالثة: سواء كانت المعرفة في الآية تتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بالقرآن أو غيره من الوجوه الأخرى المذكورة أعلاه فإنها حجة عليهم.

الرابعة: إن الغاية والنتيجة واحدة لعدم إمكان التفكيك بين صدق النبي

(١) سورة يوسف ٥٨.

(٢) سورة الاعراف ٤٨.

(٣) سورة الحجرات ١٣.

(٤) سورة الاحزاب ٥٩.

(٥) سورة البقرة ١٤٦.

صلى الله عليه وآله وسلم وأنه رسول من عند الله وبين القرآن وموضوع تحويل القبلة وما يصدر عن النبي من العلوم والسنة التي تنبأ عن الوحي.

الخامسة: الأقوى أن المراد من الضمير هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاء بلغة الغائب، وموضوع المعرفة وجود صفاته في التوراة والإنجيل وتحقيقها في الخارج بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام في الآية قال: "يعني يعرفون رسول الله كما يعرفون أبناءهم لأن الله عز وجل قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد وصفة أصحابه ومهاجرته وهو قوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾^(١) وهذه صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة وصفة أصحابه فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب كما قال جل جلاله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٢)."

السادسة: هل يمكن القول بأن الضمير يعود إلى النبي وإلى القرآن وإلى الإسلام أما بعرض واحد أو بالإلحاق والتبعية، الجواب: إنه يعود إلى واحد منها أما تبعية البواقي فإنها إنطباكية قهرية.

السابعة: إن هذا التشبيه القرآني يلبس الحقائق العقائدية والمعنوية رداء المحسوس ببلاغة إعجازية، ويظهر مقدرة المسلمين على فهم أمثلة القرآن وما فيها من وجوه البلاغة والحكمة والاستعارة.

الثامنة: ليس في الآية إبهام، فالمثل والتشبيه في القرآن يتصف بالوضوح وقرب المعنى وتتجلى فيه السعة والشمول وهو بخلاف المثل في

(١) سورة الفتح ٢٩.

(٢) سورة البقرة ٨٩.

العهد القديم ويسمى فيه اللغز، وكان محتاجاً إلى البيان والتفسير.
التاسعة: في تعدد مضامين ومعاني اللفظ والآية القرآنية وكثرة درره ومفاهيمه ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "القرآن ذلول ذو وجوه محتملة فاحملوه على أحسن وجوهه"^(١).

وأحسن الوجوه هو حمل الضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن والإسلام من غير تعارض بينها وكل واحد منها يقول التصديق بالآخر بالبشارة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر صفاته في التوراة والإنجيل، وقد ورد قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ .

وكان المشركون من أهل مكة وغيرها يسألون اليهود وأهل الكتاب مطلقاً عن صدق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في نبوته، ويخبر بعضهم بصفات نبي آخر الزمان بما لا ينطبق عليه فجاءت هذه الآية لفضحهم وإبطال التحريف والزيف بخصوص صفاته، وفيها تأكيد لحقيقة أن أهل الكتاب يعرفون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم برسائلته وهيئته ونعته المذكور في التوراة والإنجيل كما يعرفون أبناءهم بهيئتهم وصورهم وصفاتهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم.

العاشرة: المعرفة غالباً ما تأتي في القرآن بخصوص الأشخاص، ويتجلى في الموضوع المشبه به وهو الابناء، وجيء به لأن أقرب الناس إلى الشخص ابنه، يتابع أمره منذ إنعقاد النطفة وحين الوضع ثم الإعداد والتربية وموارد الحاجة.

الحادية عشرة: المعرفة: الإدراك والإحاطة العلمية، ويقال عرفت الشيء عرفاناً: إذا علمته بإحدى الحواس الخمسة، ويقال: عرفت الله ولا يقال

(١) الإتيان في علوم القرآن ١/٤٤٣.

علمته لتعلق المعرفة بإدراك الجزئي والبسيط المجرد عن الإدراك بالحواس، أي ان المشركين كانوا بفطرتهم يعرفون الله وأنهم أدركوا بالحجة والبرهان والآيات الكثيرة وجود الصانع وضرورة عبادته وشكره والإيمان بنبية محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه مبعوث من عنده بالآيات البينات، ولكنهم جحدوا وأنكروا ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(١).

الثانية عشرة : مجيئ الآية بلغة الجمع يدل على أن تلك المعرفة لم تنحصر بجماعة وأفراد قليلين منهم كما قد يظن بأن العلماء وحدهم هم الذين يعرفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصفاته وإخفاء تلك الحقائق على الأتباع يجعلهم لا يصلون إلى معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خصوصاً وأن عامة الناس أكثر التصاقاً بأبنائهم.

الثالثة عشرة : لقد جاء هذا العموم والشمول في المعرفة بآية إلهية تؤكد العجز عن إخفاء هذه الحقيقة، ولابد من ظهورها خاصة وأنهم كانوا إلى ما قبل البعثة بقليل ييشرون بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وينتظرون خروجه.

الرابعة عشرة : لا تحصر الآية أسباب هذه المعرفة بما أنزل في التوراة والإنجيل فتشمل الكتب السماوية المنزلة الأخرى ووصايا وعهود الأنبياء من قبل ودعاء إبراهيم عليه السلام، بالإضافة إلى الآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتطابقها وزيادتها كما وكيفاً مع الآيات التي جاء بها الأنبياء السابقون.

الخامسة عشرة : حتى على فرض إخفاء صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن عامة اليهود والنصارى والإجتهاد في صيغ التحريف فان التوراة والإنجيل يتضمنان دلالات نبوة موسى وعيسى عليهما السلام وقد بشرا

بنبوته وأمته، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

السادسة عشرة: ترى هل من صلة بين معرفة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنبوته وحفظ الأنساب وبر الوالدين وملازمة الولد لأبيه؟ الجواب نعم، وقد جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتوكيد صلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الرفق بالوالدين ورد قوله تعالى ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ﴾^(٢).

السابعة عشرة: ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو ذات ما جاء به الأنبياء السابقون مع زيادة ظاهرة ومحسوسة ومدركة بالعقل، وقد يصعب القياس بين الحاضر والغائب القديم الذي إحتل منزلة عظيمة في النفوس، ولكنه الإعجاز والتوفيق الإلهي ووحدة التنزيل.

الثامنة عشرة: لعل من وجوه التحريف المبالغة والتفخيم لمعجزات الأنبياء السابقين محاولة للتصدي لما يأتي به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومقدمة للصدود عنها.

التاسعة عشرة: جاء القرآن ببيان معجزات الأنبياء السابقة بما يمنع الغلو أو التفريط والإخفاء والإعراض.

العشرون: لقد كان القرآن المعجزة الخالدة والبرهان الساطع والدليل القاطع على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتفضل الله سبحانه بالآيات الحسية والبراهين الوجدانية، وما يدل على الإعجاز بالواسطة وإستحضار المقدمات ليدرك الإنسان من خلالها أن شطراً من الوقائع والأحداث ما كان يحصل لولا الإعجاز والمدد الإلهي كما في أهم معارك المسلمين كمعركة بدر حيث الكثرة والنفير والسلاح عند قریش، قال

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة الأسراء ٢٣.

تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١).

وفي المعرفة في المقام وجوه:

الأول : معرفة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : إدراك صدق نزول القرآن من عند الله.

الثالث : وردت ذات الآية ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ

أَنْبَاءَهُمْ﴾ في سورة الأنعام وجاءت الآية التي قبلها في الحديث عن القرآن وثبات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على التوحيد وحربه على الشرك والضلالة^(٢).

الرابع : ظهور الإسلام، قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣).

الخامس : تحويل قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى البيت الحرام.

السادس : يعرفون أن الكعبة قبلة الأنبياء السابقين، وهو المروي عن

قتادة والربيع بن أنس^(٤).

السابع : صفة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السماوية

السابقة، يعرفون ويتوارثون الإخبار عن صفاته كما يعرفون صفات أنبيائهم.

الثامن : يعرفون ما مكتوب في التوراة بأن محمداً صلى الله عليه وآله

وسلم رسول الله.

وتحتمل معرفة الأبناء كمثبه به وجوهاً:

الأول : كل واحد منهم يعرف إبنه أو أبنائه.

الثاني : أهل الكتاب مجتمعين يعرفون أبنائهم على نحو العموم

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) أنظر سورة الأنعام الآية ١٩-٢٠.

(٣) سورة آل عمران ١٨.

(٤) أنظر تفسير ابن أبي حاتم ٢٨٢/١.

الإستغراقي خصوصاً وإن الآية نزلت في المدينة وكان يقطنها فريق من بني إسرائيل.

الثالث : أي فرد من أهل الكتاب يعرف أبناءهم جميعاً.

الرابع : إرادة المعرفة الإجمالية للأبناء، والقدر المتيقن والمتبادر إلى الذهن هو الأول، فالآية إنحلالية وتقديرها: الذي آتيناه الكتاب يعرفه كما يعرف أبناءه، ولكن لغة الفرد هذه لا تصلح في المقام لوجوه:

الأول : جاءت الآية إحتجاجاً على أهل الكتاب.

الثاني : لحاظ نظم الآية وصيغة الجمع فيها.

الثالث : لو جاءت الآية بصيغة المفرد لأنصرفت لواحد من الأنبياء

السابقين، وفي عيسى ورد قوله تعالى ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَإِنْ فَرِقْنَا مِنْهُمْ لَيَكْتُمَنَّ الْحَقَّ﴾

الأول : بعد أن جاء صدر الآية بلغة الإطلاق والعموم في معرفة أهل الكتاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبشاراته اظهارة لتمام الحجة عليهم، جاء الشرط الأخير منها على نحو السالبة الجزئية للتبكيك والتوبيخ بسبب إخفاء البشارات والدلالات الواضحات ومنها بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والآيات التي جاء بها وحقيقة نزول القرآن من عند الله تعالى.

الثاني : الفريق الآخر من أهل الكتاب لم يذكر في الآية، وفيه

وجوه:

الأولى : الفريق الآخر لا يكتم الحق، قال تعالى ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

أُمَّةٌ قَانِئَةٌ بِّكُلِّ آيَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾^(٢).

(١) سورة المائدة ٤٦.

(٢) سورة آل عمران ١١٣.

الثانية : إنه يكتم الحق وهو لا يعلم أنه حق فيكون كالمستضعف.
الثالثة : إن الذين لم يذكروا أكثر من فريق تتفاوت منازلهم ودرجات الكتمان أو التصريح عندهم، وقد يكون منهم من يظهر الآيات تارة ويكتمها أخرى رياءً وحباً للدنيا.

الثالث : إذا كان فريق منهم جاحداً كافراً مستكبراً فان فريقاً منهم لم يلتفت إلى الحق وموضوعه، وهو لا يقول به لجهله به وليس عن عمد سواء كان هذا الجهل عن قصور أو تقصير.

الرابع : الآية تخبر وفق مفهوم المخالفة ان الفريق الآخر من أهل الكتاب لا يكتمون الحق بل إنهم يقرون بصفات وصدق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهؤلاء على قسمين:

الأول : الذين آمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واحسنوا اسلامهم، ومنهم عبد الله بن سلام.

الثاني : الذين تخلفوا عن الإيمان ومنهم من كان مقصراً مرتكباً أو خائفاً من رؤسائه عرف الآيات وإستيقنتها نفسه ولكنه أبى إلا الشقاء.

الخامس : الآية بشارة للمسلمين وتنفي اليأس والقنوط عن نفوسهم وتبعث الأمل في إسلام شطر من اهل الكتاب.

السادس : تعطي الآية في دلالتها التضمنية الإذن بمفاتحة بعض أهل الكتاب لدخول الإسلام كما أن الطريق نحو الآخرين الذي يكتمون الحق غير مسدود.

السابع : التلبس بالكتمان كمعصية قد يستديم وقد يكون العكس.

الثامن : من أغراض الآية أنها فرصة للتدارك والندم وإظهار الحق، وهي ذكرى وموعظة، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ

اتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا^(١).

وقد ذكرت الآية أن الذين يخفون الحق والتنزيل فريق منهم، وسكتت الآية من الفريق الآخر، ومدى إصغائه وإستجابته للذين يكتُمون الحق، ليكون من خصائص الآية التالية الحرب على المراء والجدال والشك بالحق، وبإخفاء فريق من الناس لآيات النبوة والتنزيل مع علمهم بها وأضرار الكتمان الذي يقومون به، وفيها دعوة للفريق الآخر بإظهار حقائق التنزيل، والتدبر بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في الآية وجوهاً :

الأول : يعلمون أنهم يكتُمون ويخفون أمراً ما من التنزيل .

الثاني : يعلمون أنهم يخفون الحق .

الثالث : يعلمون أنهم يخفون صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : ينكرون ما يعلمون من صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الخامس : يحاولون الإعراض عن حقيقة ظهور الإسلام، وقيام دولته، قال تعالى ﴿يُظْهِرُهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكُوَكْرَهُ الْمُشْرِكُونَ^(٢)﴾.

(١) سورة المزمل ١٩.

(٢) سورة التوبة ٣٣.

قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه وجوه:

الأولى : يعلمون ان النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم النبي المبشر به من قبل الأنبياء السابقين.

الثانية : عن الرازي: "ان عمر سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أنا أعلم به مني بابني قال: ولم؟ قال: لأنني لست أشك في محمد أنه نبي وأما ولدي فلعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه^(١).

أن المراد من معرفة الآباء للأبناء لا تنحصر بالولادة بل هو أعم والمراد الأولاد صغاراً كانوا أو كباراً، الا ان يقال انه ورد للمقارنة وكشف الحقيقة وتقريبها بالمثل والوجدان ولتأكيد الحجة.

الثالثة : إن القرآن كتاب نازل من السماء.

الرابعة : يعلمون ما ينتظرهم من العذاب والعقاب الاخروي بسبب كتمان الحق، قال تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٢).

الخامسة : إن النصر والسيادة ستكون للإسلام.

السادسة : يعلمون ان المسلمين يعرفون تعمدهم كتمان الحق.

السابعة : ان كتمان الحق لن يضر الإسلام ولن يقدح

بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٣).

الثامنة : إن القرآن والتأريخ سيفضحانهم.

(١) مفاتيح الغيب ١٢٨/٤.

(٢) سورة الشعراء ٢٢٧.

(٣) سورة آل عمران ١١١.

التاسعة : ما يكتُمون هو الحق وفيه ظلم عظيم.

العاشرة : يعلمون عدم جواز كتمان الحق.

الحادية عشرة : إن الله غالب على أمره وأن قيامهم بالتحريف يضرهم

دون غيرهم.

الثانية عشرة : الجملة في محل حال مما يدل على إصرارهم على كتمان

الحقائق والأمارات الدالة على نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنهم يرتكبون هذه المعصية الكبيرة عن علم وليس عن جهل أو غفلة.

الثالثة عشرة : يعلمون أنهم بسبب هذا الكتمان يؤثرون سلباً على بعض

الناس وربما كانوا حائلاً وسيباً في تأخر إسلامهم مما يجعلهم يتحملون أوزارهم وآثامهم.

الرابعة عشرة : إن هذا الكتمان يسبب الفساد في الأرض

ويجعلهم يتحملون أوزار غيرهم من أهل ملتهم ومن غيرهم، كما في سؤال مشركي قريش لليهود، وعن مطابقة صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما عندهم من صفات نبي آخر الزمان فنفوا تلك المطابقة عناداً واستكباراً.

الخامسة عشرة : كتمان الحق مع العلم يجعله من مصاديق

التحريف قال تعالى ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ

يُحَرِّفُونَهُ﴾ (١).

قوله تعالى ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرِينَ ﴾ الآية ١٤٧.

القراءة

روي عن علي عليه السلام إنه قرأ "الحق من ربك" منصوباً^(١)، على الإبدال من الحق الوارد في الآية السابقة.

الإعراب واللغة

الحق: مبتدأ ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، من ربك: جار ومجرور، في محل خبر.

فلا: الفاء إستنافية، ويجوز أن تكون سببية، لا: ناهية.

تكونن: فعل مضارع مبني على الفتح لإتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بلا الناهية، اسم تكونن: ضمير مستتر تقديره أنت.

من المترين: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر.

والإفتراء في الشيء: الشك فيه، وقد يأتي المراء جامعاً للشك والجدل

الذي يحمل عناوين الخصومة وأسباب الريية وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إنه قال: لا تماروا في القرآن فإن مراء فيه كفر^(٢).

(١) الكشف ٣٢٢/١.

(٢) لسان العرب ٢٧٨/١٥، والمراء: الجدل.

في سياق الآيات

جاءت هذه الآية لتؤكد مضامين الآيات السابقة مما يفيد لفت النظر والإشارة إلى لزوم التدبر والتفكر بما فيها من المقاصد والمعاني، وحقيقة إنفراد كل ملة بقبلة مخصوصة، ومعرفة أهل الكتاب لصفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي من أفراد الحق وموارد القطع والجزم وليس كل الحق.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الشعبة الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ...﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول: الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه الحق من ربك.

الثاني: الحق من ربك يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

الثالث: وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق من ربك.

الرابع: وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق الحق من ربك.

الخامس: الحق من ربك وهم يعلمون.

السادس: الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه فلا تكونن من الممترين.

السابع: يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلا تكونن من الممترين.

الثامن: ليكتمون الحق وهم يعلمون فلا تكونن من الممترين.

الثانية: جاءت آية السياق بصيغة الجملة الخبرية، وتعقبها آية البحث

بصيغة الخطاب الموجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الإعجاز إبتدائها بكلمة وموضوع قائم بذاته في آية السياق وهو (الحق).

الثالثة : آية البحث تأكيد لمضامين آية السياق ودعوة للتدبر في معانيها ودلالاتها.

الرابعة : دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين للصدور عن القرآن وليس للعلامات الإجتماعية والوجدانية عند التعارض بينها وبين إخبار القرآن إذ تدعو آية البحث المسلمين إلى لزوم التسليم بالقوانين والقواعد التي جاء بها القرآن، وتمنع من الجهالة والغرر.

الخامسة : الحق الذي يخفيه بعضهم إنما هو التنزيل من الله عز وجل، وما فيه البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادسة : ما دام الحق من عند الله فلا يستطيع فريق من الناس إخفاءه وكتماناه.

السابعة : تفقه المسلمين في الدين، ومعرفتهم لأحوال الناس.

الثامنة : من الحق بلحاظ الآية السابقة نزول الكتب السابقة ووجود أمم تتبع الأنبياء وتعمل بالكتاب السابق كالتوراة والإنجيل وفيها بشارة نزول القرآن.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَنْ أَتِيَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ...﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك الحق من ربك.

الثاني : ما تبعوا قبلتك فلا تكونن من الممترين.

الثالث : الحق من ربك وما أنت بتابع قبلتهم.

الرابع : وما بعضهم بتابع قبله بعض الحق من ربك.

الخامس : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك فلا

تكونن من الممترين.

السادس : ولئن إتبعنا أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين فلا تكن من الممترين.

السابع : وما بعضهم بتابع قبله بعض فلا تكونن من الممترين.

الثانية : كل آية يأتي بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي من الحق الذي أنعم به الله عز وجل على النبي والمسلمين والناس جميعاً، فيتخذها المسلمون مادة وموضوعاً للإيمان، أما غيرهم فتكون لهم موعظة وعبرة ومقدمة لدخول الإسلام وقد بدأ الإسلام غريباً في مكة ثم إتسع ليشمل أقطار الأرض، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(١).

الثالثة : تتجلى معاني الحق والصدق في كل آية من آيات القرآن، منها الإخبار الغيبي عن عدم إتباع أهل الكتاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إستقباله للبيت الحرام وإن جاء لهم بكل حجة ودلالة بينة لتبقى القبلة متعددة، وهو من الإعجاز في قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ جُوهَةٍ هُومُوكِيهَا﴾^(٢).

الرابعة : من الحق الذي لا ريب فيه، والذي أشارت إليه آية البحث آية السياق أموراً تتعلق بالقبلة ما بينته آية السياق من أمور وهي:

الأول : مجيء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالآيات والبراهين القاطعة التي تدل على صدق نبوته ونسخ القبلة.

الثاني : قبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي الكعبة.

الثالث : لا يتبع أهل الكتاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إستقبال البيت الحرام.

(١) سورة النصر ١-٢.

(٢) الآية ١٤٨.

الرابع : لن يتبع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون أهل الكتاب في قبلتهم.

الخامس : عدم الإتحاد في القبلة وأحكام الدين بين فرق أهل الكتاب.

السادس : تنزه المسلمين عن إتباع أهواء الغير.

الثالثة : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي

السَّمَاءِ....﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : فلنولينك قبلة ترضاها الحق من ربك.

الثاني : فول وجهك شطر المسجد الحرام الحق من ربك.

الثالث : فولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام الحق من ربك.

الرابع : وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره الحق من ربك.

الخامس : وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربك.

السادس : قد نرى تقلب وجهك في السماء فلا تكونن من الممترين.

السابع : فلنولينك قبلة ترضاها فلا تكونن من الممترين.

الثامن : فول وجهك شطر المسجد الحرام فلا تكونن من الممترين.

التاسع : وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون إنه الحق من ربهم فلا تكونن

من الممترين.

العاشر : وما الله بغافل عما يعملون فلا تكونن من الممترين.

الثانية : لقد أنعم الله عز وجل على الناس بالقرآن لينتهي معه كتمان

الآيات وإخفاء حقائق التنزيل، وما صار جلياً ولا يتعرض للإخفاء تحويل

قبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى البيت الحرام.

الثالثة : يعلم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن الحق يأتي من عند

الله بالوحي والتنزيل فأخذ يقلب وجهه في السماء ويتطلع إلى نزول جبرئيل

بتحويل القبلة .

الرابعة : يفيد الجمع بين الآيتين أن تحويل القبلة حق وواجب لا بد أن يتقيد به المسلمون، ومن معاني الحق في المقام الخير الكثير والثواب العظيم في إستقبال البيت الحرام.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(١)،
الْخَيْرَاتِ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : ولكل وجهة هو موليها الحق من ربك .

الثاني : فاستبقوا الخيرات الحق من ربك .

الثالث : أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً الحق من ربك .

الرابع : إن الله على كل شئ قدير الحق من ربك .

الخامس : ولكل وجهة هو موليها فلا تكونن من الممترين .

السادس : فاستبقوا الخيرات فلا تكونن من الممترين .

السابع : أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً فلا تكونن من الممترين .

الثامن : إن الله على كل شئ قدير فلا تكونن من الممترين .

الثانية : تضمنت الآية السابقة ذم الذين يخفون أحكام التنزيل وجاءت

آية البحث لتأكيد حقيقة وهي أن الذي يخفون هو حق من عند الله مما يدل

على أن الله عز وجل لا بد وأن يظهره لأن من مصاديق ورشحات الحق في

المقام الرحمة بالناس فجاءت آية السياق للإخبار عن بعض وجوه الحق

وهي:

الأول : لكل ملة سماوية قبله يتخذونها.

الثاني : لزوم المسارعة في فعل الصالحات، ومنها المبادرة إلى إستقبال البيت الحرام بعد نزول آيات القبله.

الثالث : الإيمان بالمعاد وأنه حق وحتم.

الرابع : إن الله عز وجل لا تستعصي عليه مسألة ، قال تعالى ﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(١).

الخامس : وجاءت الآية بلفظ (ربك) لتأكيد صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة : جاءت آية البحث خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتعقبها آية السياق خطاباً للمسلمين ، وكل واحدة منهما تفيد المعنى الأعم وإرادة الناس جميعاً.

الرابعة : لقد بينت الآية السابقة أن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حق وصدق ، وجاءت هذه الآية بالإخبار أنها نعمة من عند الله وأن القرآن كتاب نازل من عند الله ثم ذكرت الآية التالية بأن القبله سنة في المليون وأنها تتصف بالتباين والتعدد ، قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

الخامسة : إن تعيين القبله والتقيد بأحكامها وسنتها نوع طريق للأجر والثواب والنجاة يوم القيامة إذ أخبرت آية السياق عن حتمية الحشر للناس جميعاً وفيه دعوة للمسلمين للصبر في موضوع القبله بإتخاذ البيت الحرام قبله لهم .

السادسة : جاءت خاتمة آية السياق قانوناً كلياً بأن الله على كل شئ قدير ، وتبين آية البحث أن الإطلاق في رحمة الله فيض وخبر محض بالناس ، بأن يهديهم الله إلى عباداتهم وسبل الفوز في الآخرة.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(١)، وفيها مسائل:

تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام الحق من ربك .

الثاني : وانه الحق من ربك .

الثالث : وما الله بغافل عما تعلمون الحق من ربك .

الرابع : ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام فلا تكونن من الممترين .

الخامس : وانه للحق من ربك فلا تكونن من الممترين .

السادس : وما الله بغافل عما تعلمون فلا تكونن من الممترين .

الثانية : لما ذكرت آية البحث أن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن حق ولطف من عند الله ، جاءت آية السياق ببيان مصداق من مصاديق الحق وهو إستقبال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين البيت الحرام .

الثالثة : لقد أنكر فريق من الناس توجه المسلمين إلى البيت الحرام، قال تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(٢).

فجاءت كل من آية البحث والسياق دعوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين للثبات في إستقبال البيت الحرام، وعدم الإلتفات إلى لغة الإنكار واللوم من بعضهم ، وتتجلى هذه الدعوة بالإخبار بأن نسخ القبلة حق.

(١) الآية ١٤٩.

(٢) سورة البقرة ١٤٢.

الرابعة : مع أنه ليس بين آية البحث وسياق إلا آية واحدة فقد تكرر لفظ (الحق من ربك) في الآيتين.

ومن إعجاز القرآن التحدي في البلاغة والسنن، ومنها في المقام أن نسخ القبله حق وآية فيها الصلاح والهدية .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿كَأَآرُسَلْنَا فِىكُمْ رَسُوْلًا مِّنْكُمْ﴾^(١)، وفيها

مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : كما أرسلنا فيكم رسولاً الحق من ربك .

الثاني : كما أرسلنا فيكم رسولاً فلا تكونن من الممثرين .

الثالث : ويعلمكم الكتاب والحكمة الحق من ربك .

الرابع : ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون الحق من ربك .

الثانية : يتعلق موضوع آية البحث ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن وجاءت آية السياق بذات المعنى وتفيد البيان والتأكيد والتفصيل لمصاديق الحق

الثالثة : جاءت آية البحث بصيغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم وجاءت آية السياق بلغة الخطاب للمسلمين والمسلمات.

الرابعة : من مصاديق الحق بلحاظ آية السياق أمور:

الأول : أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول وصاحب

شريعة مبتدأة.

الثاني : النعمة العظمى على العرب والمسلمين بأن خاتم النبيين منهم.

الثالث : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهراى المسلمين

وفي الجزيرة التي يقطنها العرب ، وعند البيت الحرام.

الرابع : من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله تلاوته لآيات الله وما فيها من الإعجاز اللفظي والموضوعي.

الخامس : بلوغ آيات الله إلى المسلمين، وسماعهم لها لقوله تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ وتجدد هذه التلاوة وسماع المسلمين لها في كل زمان ومكان.

السادس : تزكية وتطهير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم من درن الجاهلية ومفاهيم الضلالة.

السابع : قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم المسلمين الكتاب المنزل من عند الله .

الثامن : تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم معاني الحكمة والأخلاق الحميدة وقصص الأنبياء، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

التاسع : تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين علوماً مستحدثة وآداب الفرائض والسنن وسبل نيل الثواب وأسباب دخول الجنة.

إعجاز الآية

تفضل الله تعالى بتوكيد حقائق القرآن مع أنها بذاتها حق وصدق، وصيغة التحذير بلغة المخاطب من الشك والريب مع التسليم بعدم شك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مما يعني العموم والشمول وإستدامة إعجاز الإخبار القرآني لملازمته للصدق ومطابقته للواقع.

إن الله عز وجل يشهد للقرآن وكل آية فيها بأمور:

الأول : إنها حق وصدق ولا تقبل النسخ أو التغيير أو التردد.

الثاني : نسبة الآيات إلى الله بلحاظ أنها حق.

الثالث : تجلّى معاني الرحمة بنسبة الحق إلى الله عز وجل يتضمن الوعد

بتعاهده وحفظه وإظهار أفراده ومصاديقه ، وعدم ترتب الأثر العام على إخفائه بدليل نزول القرآن ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) لتكون ضروب وصيغ معرفتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم متجددة بواسطة القرآن وبالمعجزات التي تترى على يديه ، وفيه رحمة بالناس ومنهم أولئك الذين كانوا يعرفونه بالبشارات والذين يخفون أسرار التنزيل ، وتجدد صيغ معرفة النبي أيام بعثته وما بعدها وإلى يوم القيامة وإظهار حقائق التنزيل وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

لقد أراد الله عز وجل من التعدد في القبلة وإختصاص كل من المسلمين واليهود والنصارى بقبلة معينة طرد المراء والعناد والجدال بالباطل بين الملمين ، وأن لا يكون الإختلاف بالأحكام والسنن سبباً للمراء والمغالطة وما يترشح عنه من الخصومة وإمّثال ، فاذا اعتاد أهل الملل على الإختلاف في القبلة والتي يحتاجون التوجه إليها كل يوم فإن تلقي مطلق الإختلاف بالقبول والرضا يصبح ملكة عندهم لأنهم متفقون على وجوب عبادة الله ، وصدق النبوة والرسالة ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(٣).

إن تعيين القبلة حرب على الشرك والضلالة للإنشغال والتقيد باستقبال القبلة بلحاظ أنه أمر من عند الله والجهة التي يحب التعبد بها والتوجه لها ، قال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾^(٤).

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) سورة آل عمران ٦٤.

(٤) سورة البقرة ١٧٧.

ويمكن تسمية هذه الآية آية ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ وقد ورد هذا اللفظ خمس مرات في القرآن، وكلها خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الآية سلاح

تبعث الآية الكريمة الثقة والطمأنينة في النفس بإعلانها نفي الشك والريبة عن الأوامر التي جاء بهوا القرآن، وتدعو المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال السفهاء وأسباب الجحود.

وقد ذكرت كلمات الآية ذاتها سورة آل عمران^(١) بأن جاءت آية كاملة بذات الكلمات، أي أنها لم تأت جزءً وشطراً من آية أخرى ويتعلق موضوعها في خلق آدم من تراب وصيرورته إنسان بمشيئة وقدره الله بالكاف والنون.

وتتضمن الآية التحدي باعلان أن الحق الذي يخفون نازل من عند الله، وفي نسبة الحق إلى الله مسائل:

الأولى : الدلالة على الوزر والاثم بكتمان حقائق التنزيل.

الثانية : دعوة الناس للنفرة من هذا الكتمان.

الثالثة : إن الله عز وجل هو الذي يتكفل إظهار وبيان الحق، وكما تجد في القرآن أن الموضوع والحكم يتكرر في آيتين أو أكثر أو تكون آية تفسيراً وتفصيلاً أو تعصيماً للآية الأخرى رحمة من عند الله ولسعة فضله وإحسانه، وكذا في الحقائق ومعرفتهم لصفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فانها ترد بعدة صيغ ووجوه بما يتعذر معه إخفاؤها أو أن هذا الإخفاء عديم الأثر، قال تعالى ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾^(٢).

والآية نبذ وفضح للمرء والجدال ، ودعوة للناس للتزهد منه بالرجوع إلى

(١) سورة آل عمران الآية ٦٠.

(٢) سورة فاطر ٣١.

براهين النبوة الساطعة وخزائن آيات القرآن وما فيها من العلوم .

وقد ورد لفظ ﴿الْمُتَرِّينَ﴾ أربع مرات في القرآن كلها في ذات المعنى والخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مما يدل على القبح الذاتي للشك والجدال بالباطل، وبدأ انحساره من الأرض وقلة أثره ببركة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم^(١)، مما يدل على القبح الذاتي للشك والجدال بالباطل، وبدأ انحساره من الأرض وقلة أثره ببركة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد جعل الله عز وجل المسلمين في غنى وعدم حاجة إلى المراء ، فعندما ينهى الله عز وجل عنه فإنه سبحانه هيء مقدمات وأسباب إستفنائهم عنه ، أي أن قوله تعالى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرِّينَ﴾ بشارة التنزه عن المراء وإلى يوم القيامة .

ومن مصاديق هذا التنزه مجيء هذه الآيات بتعين قبلة المسلمين . وثبوت حكمها وتوالي الآيات على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما يعرفه معه الناس بأنه النبي المبشر به في الكتب السابقة وأنه خاتم النبيين .

مفهوم الآية

موضوع الآية عنوان للشكر والثناء على الله سبحانه بما خفف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين أن جعل بشارات بعثته في الكتب السماوية وفي أذهان وتراث أهل الكتاب بمعنى أن المدد الإلهي بالإخبار عن نبوته صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن فقط بالكتب السماوية السابقة لأنه سبحانه علم أن هذه الكتب ستعرض للتحريف والتغيير فجعل تلك الأخبار أمراً متوارثاً يتناقله أهل الكتاب، ويشر بعضهم البعض الآخر به، بينما

(١) أنظر سورة آل عمران ٦٠ الأنعام ١١٤، يونس ٩٤.

جاءت أحكام القرآن وأخباره كافية لأنه سبحانه علم أن يد التحريف لن تستطيع النيل منه.

وجاءت خاتمة الآية خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنه إنحلالي عام يشمل المسلمين والناس جميعاً، ليكون من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، وهو قاعدة كلية تتضمن تثبيت حقائق التوحيد وصدق النبوة عند الأولين والآخرين، فهي زجر عن الشك والريب ودعوة للتصديق بالقرآن، وإطلاق صفة الممترين نوع ذم للذين لم يؤمنوا برسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد أنعم الله عز وجل على الناس بأنوار الوحي والتنزيل للتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والنفع والضرر، والحسن والقيح، لذا فإن إظهار أسرار التنزيل إضاءة لطرق الهداية، وجذب لجادة الهدى والإستقامة، وهو من مصاديق العلم في قوله تعالى (وهم يعلمون) وتبعت الآية الكريمة في دلالتها التضمنية على كشف علوم التنزيل، وبشارات الأنبياء إذ أنهم لم يأتوا لقومهم بل جاءوا لمحاربة الفساد وإزاحة المنكر من الأرض، وكل واحد منهم يضع لبنة في صرح التوحيد قبل أن يغادر ويترك عند الناس البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليعلم الناس أن بيعته تمام النعمة، وصلاح البشرية لذا نزل قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٢).

وتدعو الآية أهل الكتاب والناس لتلقي رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقبول والتصديق، وقد ورد في ذم بعض المشركين وهو النضر

(١) سورة الفتح ٨.

(٢) سورة المائدة ٣.

بن الحارث ودعاؤه في الشر، قوله تعالى ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

لقد أراد الله عز وجل تذكير الناس بنعمة النبوة بالذات والأثر، وجاءت هذه الآية لإستحضار البشارات النبوية ونبذ الجحود بالرسالات، ومنع الشك والريب في تلك البشارات، فإن كتمانها وإخفاءها من قبل فريق من الناس يجب ألا يبعث الشك في النفوس سواء في ذات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو في البشارات بها، بل هي حق وصدق وإن عدم ذكرهم لها إنما هو كتمان وإخفاء للحق والتنزيل ، وهو أمر مذموم تدعو آية البحث للنتزعه عنه.

الآية لطف

لا تنحصر أضرار كتمان الحق بذات موضوع الإخفاء، بل تكون مقدمة لصدود فريق من الناس عن دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما يسببه هذا الكتمان من اللبس على الناس، لذا فإن آية البحث حرز من هذا اللبس، ودعوة للناس للجوء إلى الآيات والبراهين التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد كان إخفاء الآيات إبتلاء للناس فتفضل الله بلطفه ورحمته وتبعث الآية الشوق والوجد في النفوس إلى معرفة أسرار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من معاني تكرار مادة (عرف) في الآية مرتين، ليكون فيها ترغيب بالمعرفة ، وحرب على الجهالة وطرده للغفلة فإن أخفى فريق من الناس الحق فقد نزل من السماء كضياء الشمس الذي ينفذ إلى البيوت ويوقظ القلوب.

والله تعالى هو الحق، وكل مشيئته وصنعه وخلقه حق، وكل ما يأتي منه سبحانه حق ومنه بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن فهو حق ويهدي إلى الحق وعلة للحق والصدق والصلاح، لقد أراد الله عز وجل للحق أن يتغشى السموات والأرض، ويكون هو الفيصل بين الناس. وعندما خلق الله عز وجل آدم ليكون خليفة في الأرض إحتجت الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١)، فأجابهم الله بصيغة الإحتجاج وبيان عظيم قدرته ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ليكون من علم الله عز وجل في المقام أمور:

الأول : نزول الحق من عند الله.

الثاني : النبوة حق وصدق.

الثالث : عدم ترتب الأثر والضرر على كتمان فريق من الناس الحق ومصاديقه من نزول القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والصفات الشخصية الكريمة له.

لقد جمعت الآية بين الحق وترك المراء، ليكون التالي تثبيتاً للأول، وهو الحق الذي يكون عصمة وواقية من الشك والريب من غير أن يلزم الدور بينهما.

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بقانون كلي وهو نزول الحق من عند الله، وتتصل الآية في موضوعها ودلالاتها بالآية السابقة إذ وردت كلمة الحق في الآية السابقة ثم وردت في آية البحث وكأنها بدل لها ومعناها أعم من البدلية لأن موضوع آية البحث لم ينحصر بخصوص ما يكتمون من الآيات فيشمل التنزيل وصدقه، وقبح إخفائه لأنه من عند الله، وفيه آية إعجازية بأن يتكرر ذات اللفظ مرتين في ذات الموضوع مع أن الثاني أعم، وهو من أسرار تقسيم القرآن إلى آيات مع إستقلال كل آية في موضوعها وتداخلها مع غيرها ومع قلة كلمات الآية فإنها تضمنت البيان والتأكيد والنهي والتأديب والبشارة، فلم تقف الآية عند الإخبار عن الحق بل ذكرت أنه من عند الله، وفيه مسائل:

الأولى : بيان عظم الذنب وشدة الإثم بإخفاء الحق الذي يأتي من عند الله عز وجل.

الثانية : الوعيد للذين يخفون الحق النازل من عند الله.

الثالثة : ما ينزل من الله من الحق لا يمكن إخفاؤه وحجبه عن الناس، وهو من أسرار حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : الآية من مصاديق الحق والصدق في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن تكشف خفايا إخفاء الحق، قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

وأختتمت الآية بالنهي عن المراء والشك، وصحيح أن لغة الخطاب فيها متوجهة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن موضوعها أعم فهو

خطاب للمسلمين والمسلمات في أجيالهم المتعاقبة إلى يوم القيامة، وتدعوهم مضامين الآية إلى الالتفات لهذه الحقيقة .

ومن إعجاز القرآن أن صيغ إخفاء فريق من الناس لصفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم باقية في كل زمان، ولكن أثرها معدوم أو شبه معدوم بفضل الله وبركة هذه الآيات وتظهر هذه الصيغ بين الحين والآخر على الألسنة أو بالكتابة، وسرعان ما تزول وتختفي بذاتها، أي أنهم يخفون الحق ويحرفون صفات وعلامات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيكون من الحق الإخبار عن إخفاء ما يخفون، ودرأ أضرار ما يكتُمون، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا ذِي﴾^(١).

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : تأكيد نزول القرآن من عند الله عز وجل ، وأن كل آية منه حق وصدق .

الثانية : الآية حجة شهباء وبرهان ساطع على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن فضل الله على الناس دفع أسباب الشك والمراء فجاءت الآية لجعل موضوع الإخفاء ظاهراً مكشوفاً لا أثر له، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾.

الثالثة : التذكير بسوء عاقبة الذين يخفون الحق النازل من عند الله ، وهذا التذكير دعوة لهم للإنبابة .

الرابعة : تأكيد البشارات الواردة في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالحجج القواطع ، والأدلة اللوامع .

الخامسة : تهذيب النفوس ، وإصلاح المجتمعات بنبذ الشك والريب .

السادسة : تبين خاتمة الآية إنحسار المراء والجدال بالباطل ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فالقرآن حق وبينات نواصع ، وبراهين سواطع ، لتكون حرباً على إخفاء حقائق التنزيل ، أو تحريف البشارات.

التفسير

قوله تعالى ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾

الأولى : هل الحق الوارد في هذه الآية بدل عن الحق الوارد في قوله تعالى ﴿يَكُونُ الْحَقُّ﴾ ، او المراد غيره لذا جاء مبتدئاً ، أو أعم منه ، الظاهر هو الأخير وان الحق هنا بدل عن الحق في الآية السابقة كما يتضمن قاعدة كلية في علم الكلام.

الثانية : المراد صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكتمانها ، وتنزيل القرآن والوحي وعقائد الإسلام وديمومة أحكامه في الأرض.

الثالثة : في الآية إشارة إلى بطلان وعدم تأثير إخفاء الحقائق النبوية وأنباء الكتب السماوية لأنها من عند الله فلا يمكن للناس أن يحجبوها.

الرابعة : الآية لبيان قيام الحجة عليهم وللتحذير من محاولات كتمان الأمر الإلهي وما يعنيه من العناد والكفر.

جاء القيد بأن الحق من عند الله لأمر:

الأول : لبيان هول وجسامة المعصية إذ كيف يسعى شطر من أهل الكتاب لإخفاء الحق من عند الله تعالى.

الثاني : إن أهل الكتاب أولى من غيرهم بتعاهد موثيق النبوة وتصديق الأنبياء وإعلان الإيمان ، فما عندهم من الكتاب يجب أن يكون عوناً على إظهار الحق وليس كتماناً قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^(١).

الثالث : بشارة تثبيت أحكام الإسلام من القبلة وغيرها وإدراك الناس لصدق النبوة وأن القرآن منزل من عند الله تعالى.

الرابع : إضافة اسم الرب وهو من أمهات الأسماء الحسنى إلى ضمير المخاطب الكاف والمراد منه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه دلالة على حال القرب وحسن عبودية وإخلاص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإختصاصه بالإخبار الإلهي تشريفاً وإكراماً وإطلاعاً على أحوال الناس في عباداتهم، ولا يمنع من إطلاق وعموم النهي عن الشك والريب ليشمل موضوع الخطاب الناس جميعاً.

وهل يختص معنى الحق في الآية بالتنزيل أم يشمل أموراً :

الأول : إخبار الآية عن كتمان فريق منهم الحق .

الثاني : إخفاؤهم الآيات مع علمهم بتحقيق مصداقها الواقعي الذي ينتظرون ويتطلعون بشغف إلى أوانه.

الثالث : معرفتهم بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفاته وصدق نبوته كمعرفتهم لأبنائهم.

الرابع : تعدد مصاديق الشبه بين معرفتهم بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفتهم بأبنائهم.

الخامس : الذين يخفون الآيات والحق فريق منهم وليس الجميع.

السادس : تحويل قلة المسلمين إلى البيت الحرام.

الجواب لإرادة المعنى الأعم وأن الحق الذي ذكرته هذه الآية أعم من لفظ الحق الذي ذكرته الآية السابقة حتى على إرادة معنى البدلية بلحاظ أن الذي يكتمون من مصاديق الحق في المقام أعم، وفيه بيان لقبح إخفاء الحقائق، وتأکید لفضل الله عز وجل في إظهارها ومنع الشك فيها وفي كشفها.

قوله تعالى ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَرِينَ﴾ فيه مسائل:

الأولى : الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ظاهره والمراد الأمة والناس.

الثانية : لا تشككوا في ظهور الحق ونصرة الإسلام.

الثالثة : لابد من رفعة وعلو كلمة التوحيد وإنتشار الإسلام ومعرفة الناس للآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رغم إخفاء أهل الكتاب للحقائق التي بين أيديهم.

الرابعة : لم يجعل الله عز وجل حركة التغيير المباركة وسيادة الإسلام والتصديق بنبيه الكريم متوقفة في جوهرها على كشف أهل الكتاب للحقائق إذ أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جاء ومعه الآيات والبراهين التي تدل على صدق نبوته.

الخامسة : القرآن هو المعجزة الخالدة وآية وبرهان على صدق النبوة من غير أن يحتاج إلى تأييد أهل الكتاب وإخبارهم عن البشارات المتوارثة عندهم.

السادسة : لقد جعل الله كتمانهم الحق والبشارات مسألة لا تضر أحداً غيرهم.

السابعة : جاء النهي في الآية لتثبيت إيمان المسلمين، ودعوتهم لعدم الالتفات إلى صيغ الشك الصادرة من غيرهم.

الثامنة : يمكن أن يتعلق النهي هنا بموضوع الآيتين السابقتين وأنه حق من عند الله تعالى في توكيد وتنبيه لأهميتهما في العقيدة.

التاسعة : ورد في سورة آل عمران ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَرِينَ﴾^(١)،

هنا لما يستلزمه الجهاد والدعوة إلى الله وبيان الآيات والإحتجاج ودفع أسباب الشك والريب بالحجة والآية والبرهان.

وهل من وجوه المراء المنهي عنه جدال هؤلاء الذين يخفون الآيات الجواب المراد صيغة وكيفية هذا الجدال فالمراء جدال فيه شدة، وجدال بالباطل، ويقال: ماراه مراء ومُماراة وإلا فإن آيات القرآن جاءت بالأمر بالجدال المتقوم بالحجة والبرهان، قال تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بَاتِّبِ هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

وفي الآية حرب على المراء ، لما فيها من تأكيد القبح الذاتي للمراء وأضراره ، وفيها تأديب للمسلمين بالتنزه عنه مع إخبار بعدم الحاجة إليه والغنى عنه ، وتلك آية في علوم القرآن فحينما ينهى الله عز وجل عن فعل فانه سبحانه ضمن للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الإستغناء عنه وهو من عمومات قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٢).

ومن وجوه الكفاية في المقام أمور :

الأول : الإخبار القرآني بأن الذين أوتوا الكتاب يعرفون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بصفاته وعلاماته .

الثاني : بقاء آية البحث تتلى ويستمع لها في مشارق ومغارب الأرض إلى يوم القيامة .

الثالث : كتم فريق من الناس دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاءت للناس جميعاً جلية واضحة لا يمكن إخفاؤها ، فالبشارة حجت وأخفيت عن الناس ، فجاء موضوعها ذوات الأمر والمصداق الذي تتعلق به البشارة رافة من الله بالناس ، ودعوة لهم للإيمان .

(١) سورة النحل ١٢٥.

(٢) سورة الزمر ٣٦.

قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ مِّنْهُ مَوْلًىٰ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية ١٤٨.

القراءة

قرأ عبد الله بن عامر وأبو بكر عن عاصم (هو مولاهما)، وباقي القراء على القراءة التي في المصاحف وهي الأصل والمعتبرة في القراءة .

الإعراب واللغة

ولكل: الواو استئنافية، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، وجهة: مبتدأ مؤخر مرفوع بالضممة.

هو موليها: مبتدأ وخبر، والضمير (ها) مضاف إليه، فاستبقوا: الفاء هي الفصيحة، استبقوا: فعل امر مبني على حذف النون، الواو: فاعل. الخيرات: منصوب بنزع الخافض، والتقدير إلى الخيرات، أين ما: أين: اسم شرط جازم منصوب على الظرفية المكانية، ما: زائدة إذ أنها تزداد في خمس حالات منها عندما تأتي بعد أدوات الشرط.

تكونوا: فعل مضارع مجزوم لأنه فعل شرط، يأت: جواب الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، جميعا: حال، إن الله على كل شيء قدير: تقدم إعرابها^(١).

أختلف في (وجهة) وهل هي مصدر شاذ عن القياس، أو هو اسم، والصحيح هو الثاني فوجهة اسم للجهة التي يتوجه إليها، والجهة المصدر

(١) أنظر الجزء ١٨ ص ٨ تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

الإستباق نوع مفاعلة بين طرفين أو أكثر ، وكل طرف يبادر ويسارع إلى أمر مركب من:

الأول: ذات الفعل أو الجهة.

الثاني: السعي لسبق الآخرين فيه.

في سياق الآيات

بينما تعرضت الآيات السابقة لكتمان اهل الكتاب للأخبار والبشارة التي عندهم ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع انها حق وصدق جاءت هذه الآية لبيان فضله تعالى في استقلال كل امة بحكم القبله واحكامها من غير تعارض او اختلال ولتفتح ابواباً لإقامة الحجة.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الشعبة الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : حينما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم أخبر الملائكة بقوله ﴿إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) لتتجلى في هذه الآيات مصاديق ووجوه من خلافة الإنسان في الأرض بنظام عقائدي يتقوم بأن كل أهل ملة لهم قبله يتوجهون إليها، وأن وظيفة المؤمنين المسارعة إلى فعل الخير والصلاح .

الثانية : يتوجه الكتائبون إلى جهات هي قبله لهم ، ويتوجه الخطاب في آية السياق إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (الحق من ربك) وفيه غاية الإكرام له.

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين حقيقة وهي أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لا يكرهون أهل الكتاب على إتخاذ البيت الحرام

(١) الآية ١٤٧.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

قبلة، بل أن التعدد في القبلة مستمر، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١).

الرابعة : بعد التفقه في الدين، وإخبار الآيات السابقة بالحق من عند الله، جاءت آية البحث بالأمر للمسارعة والتسابق في فعل الصالحات ومنها المبادرة إلى استقبال البيت الحرام عند أداء الصلاة.

الخامسة : صحيح أن قوله تعالى ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الوارد في آية السياق يتعلق بما قبلها إلا أنه لا يمنع من تغشيه لمضامين الآيات التالية ، وكل أمر ونهي في القرآن هو حق وصدق، ومن الحق النازل من عند الله بلحاظ آية البحث أمور:

الأول : إتخاذ قبلة في العبادات.

الثاني : لكل أهل ملة من الموحدين قبلة يتوجهون إليها.

الثالث : لزوم الإنقياد إلى أوامر الله وإتباع الحق.

الرابع : إتخاذ الحياة الدنيا غنيمة ومزرعة للآخرة.

الخامس : حيازة فضل السبق في عمل الصالحات.

السادس : البعث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم التواني والتسويق فيه.

السابع : علم الله عز وجل بما يفعل الناس.

الثامن : بعث الناس من القبور وحضورهم بين يدي الله بذات الأجساد والأرواح التي غادروا بها الدنيا، وليكون إنفصال الروح عن الجسد بالموت غير دائم.

التاسع : إستجابة الأشياء كلها لله عز وجل.

الخامسة : أختتمت الآية السابقة بأمر من الله عز وجل للنبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم بالتنزه عن المراء والشك، لتأتي هذه الآية بمصاديق

جديدة من الحق تكون عوناً له وللمسلمين في طرد أسباب ومقدمات المراء وهو من بديع حكمة الله.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَنْ أَتَّيْتُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾^(١)، وفيه مسائل:

الأولى : إبتدأت آية البحث بقانون كلي تتعدد مصاديقه، فكل أهل ملة لهم قبله خاصة بهم، وإبتدأت آية السياق بخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووجوه الإحتجاج مع أهل الكتاب بما يفيد التخفيف عنه وعن المسلمين وعن أهل الكتاب فقوله تعالى ﴿وَلَنْ أَتَّيْتُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ رحمة عامة تتغشى المسلمين وأهل الكتاب وهي متجددة في كل يوم ليكون من إعجاز القرآن أن بضع كلمات منه تغلق باباً للخصومة والخلاف، وتمنع من حروب وإقتتال، وتحقق دماء كثيرة.

وفي قصة أصحاب الفيل موعظة وعبرة، فقد منع الله عز وجل بآية البحث والسياق تسيير الجيوش بخصوص موضوع القبلة، وأن يكون مقدمة لمقاصد أبعد في القتال وإرادة الغزو وإيجاد أسباب النفير العام وما يترشح عنه من زهوق الأرواح وخسارة الأموال الطائلة وتعطيل الأعمال.

الثانية : الإتحاد الموضوعي بين الآيتين، ومجئ كل آية منهما بخصوص القبلة ومن أسرار نظم الآيات أن كلا منهما تتعلق بقبلة المسلمين وقبله أهل الكتاب، وليس في أي منهما تعريض وضم لأهل الكتاب بخصوص القبلة، بل فيهما تأديب وتعليم للمسلمين للقبول بتعدد القبلة، وفيه بشارة سيادة الإسلام وظهور دولته في أمصار ومواضع عديدة من العالم وأن النسخ وإتحاذ البيت الحرام قبله خاصة بالمسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة.

الثالثة : أخبرت آية السياق عن مجئ العلم لرسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم وتضمنت آية البحث الأمر بالمسارعة والتسابق في الفضل وسبل الخير والصلاح، مما يدل على حصول هذا التسابق ووفق مفاهيم العلم التي أنعم الله بها على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي عند المسلمين نعمة ورحمة وثروة.

الرابعة : إتباع الأهواء برزخ دون التسابق في الخيرات، لذا جاءت آية السياق في النهي عن هذا الإتباع.

الخامسة : بيان موضوعية التقيد بأحكام القبلة يوم القيامة، وأوان الحساب حيث يتبين للناس صحة أعمالهم من عدمها، قال تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : ولكل وجهة هو موليها وكذلك جعلناكم أمة وسطاً.

الثاني : ولكل وجهة هو موليها لتكونوا شهداء على الناس.

الثالث : ولكل وجهة هو موليها ويكون الرسول عليكم شهيداً.

الرابع : ولكل وجهة هو موليها وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول.

الخامس : ولكل وجهة هو موليها وما كان الله ليضيع إيمانكم.

السادس : ولكل وجهة هو موليها إن الله بالناس رؤوف رحيم.

السابع : فاستبقوا الخيرات لتكونوا شهداء على الناس.

الثامن : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً فاستبقوا الخيرات.

التاسع : فاستبقوا الخيرات ويكون الرسول عليكم شهيداً.

العاشر : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول

(١) سورة الدخان ٤٠.

(٢) الآية ١٤٣.

فاستبقوا الخيرات.

الحادي عشر : فاستبقوا الخيرات لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

الثاني عشر : فاستبقوا الخيرات وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله.

الثالث عشر : فاستبقوا الخيرات وما كان الله ليضيع إيمانكم.

الرابع عشر : فاستبقوا الخيرات إن الله بالناس لرؤوف رحيم.

الخامس عشر : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً.

السادس عشر : أينما تكونوا يأت بكم الله لتكونوا شهداء على الناس.

السابع عشر : أينما تكونوا يأت بكم الله ويكون الرسول عليكم شهيداً.

الثامن عشر : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع

الرسول أينما تكونوا يأت بكم الله.

التاسع عشر : وما كان الله ليضيع إيمانكم أينما يتكونوا يأت بكم الله.

العشرون : أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله بالناس لرؤوف رحيم.

الحادي والعشرون : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً إن الله على كل شيء قدير.

الثاني والعشرون : لتكونوا شهداء على الناس إن الله على كل شيء قدير.

الثالث والعشرون : ويكون الرسول عليكم شهيداً إن الله على كل شيء قدير.

الرابع والعشرون : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع

الرسول إن الله على كل شيء قدير.

الخامس والعشرون : وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله على كل شيء

قدير.

السادس والعشرون : إن الله بالناس لرؤوف رحيم إن الله على كل

شيء قدير.

الثانية : تتعلق كل من الآيتين بموضوع القبلة، وتضمنت آية السياق

الإخبار عن علم أهل الكتاب بنسخ قبلة المسلمين وأن من صفات النبي

محمد صلى الله عليه وآله وسلم التحول إلى البيت الحرام في إستقباله،

وأخبرت آية البحث عن عدم التعارض والخلاف في موضوع القبلة وإن

تباينت وتعددت وإختصت كل ملة سماوية بقبلة معينة، لتكون أحكام القبلة والتعدد فيها مناسبة للتعدد والإختلاف في مناهج وأحكام المسلمين واليهود والنصارى وأن هذا الإختلاف يجب ألا يكون سبباً للخصومة والنفرة والمرء.

الثالثة : لما ذكرت آية السياق توجيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى إستقبال البيت الحرام بقوله تعالى ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾^(١)، وتضمنت آية البحث الأمر بالإستباق إلى الخيرات والتسابق فيها، ليكون من مصاديقها إستقبال البيت الحرام ولزوم المسارعة إلى إتخاذه قبلة، ومن الإعجاز في المقام أن يكون الإستباق إلى حيث يرضى الله ويرضى النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : لما ذكرت آية البحث القانون السماوي الكلي الخاص بأهل الأرض وهو ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ مُّوْمِنَةٍ﴾ تضمنت آية السياق الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بقانون وهو إتخاذ البيت الحرام قبلة.

الخامسة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن بديع قدرته بلحاظ آية السياق أمور:

الأول : إن الله يحب أن يتوجه الموحدون إلى جهة مخصوصة يستقبلونها في عبادتهم.

الثاني : شرطية القبلة في العبادات، فتنسخ الشريعة بغيرها، ولكن كل شريعة تبقى لها قبلتها كرماء وجوداً من عند الله، وتمازج الفضل للقبلة الناسخة حيث التوجه للبيت الحرام.

الشعبة الثانية : الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة التالية، وفيها

وجوه:

الأول : الصلة بين هذه الآية والآية التالية ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:
الأول : ولكل وجهة هو موليها ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام.

الثاني : ولكل وجهة هو موليها وانه للحق من ربك.
الثالث : ولكل وجهة هو موليها وما الله بغافل عما تعملون.
الرابع : فاستبقوا الخيرات ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام.

الخامس : فاستبقوا الخيرات وانه الحق من ربك.
السادس : فاستبقوا الخيرات وما الله بغافل عما تعلمون.
السابع : ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام اين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً.
الثامن : فول وجهك شطر المسجد الحرام اين ما تكونوا بأن بكم الله جميعاً.

التاسع : وانه للحق من ربك اين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً.
العاشر : أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً وأنه للحق من ربك.
الحادي عشر : اين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً وما الله بغافل عما تعلمون.

الثاني عشر : ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام إن الله على كل شيء قدير.

الثالث عشر : إن الله على كل شيء قدير وإنه للحق من ربك.
الرابع عشر : وما الله بغافل عما تعلمون إن الله على كل شيء قدير.

الثانية : لما إبتدأت آية البحث بصيغة العموم والتعدد في القبلة بلحاظ الملة والدين، إبتدأت آية السياق بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم باستقبال البيت الحرام لتعيين قبلة المسلمين وبيان فضل الله عز وجل عليهم، ولمنع الشك والريب، والإنصات لأهله، قال تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمُ عَنِ قِبَلَتِهِمْ﴾^(١).

الثالثة : لقد أمرت آية البحث المسلمين بالتسابق والمصارعة إلى فعل الخير.

وإبتدأت آية السياق بالبعث على إستقبال البيت الحرام، وهو من الخيرات لتكون مبادرة المسلمين وإستجابتهم الفورية للتوجه شطر البيت الحرام مصداقاً للإمثال لما في آية البحث من التسابق والمصارعة إلى الخيرات، وفيه شاهد على رحمة الله بالمؤمنين، ومصداق لقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، بأن يأمر الله عز وجل نبيه بأمر فيسارع للإمثال فيقتدي به المسلمون لأن الأصل هو أن المسلمين يؤدون الصلاة جماعة مع النبي فحينما يتوجه في قبلته يحاكونه ويقتدون به.

الثاني : الصلة بين هذه الآية وقوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾^(٣)، وفيها مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : ولكل وجهة هو موليها ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام.

(١) سورة البقرة ١٤٢.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) الآية ١٥٠.

الثاني : ولكل وجهة هو موليها وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره.
الثالث : ولكل وجهة هو موليها لئلا يكون للناس عليكم حجة.
الرابع : ولكل وجهة هو موليها فلا تخشوهم واخشوني.
الخامس : ولكل وجهة هو موليها ولا تم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون.
السادس : فاستبقوا الخيرات ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام.

السابع : فاستبقوا الخيرات وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره.
الثامن : اين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً لئلا يكون للناس عليكم حجة.

التاسع : اينما تكونوا يأت بكم الله ولا تم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون.
العاشر : ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام إن الله على كل شيء قدير.

الحادي عشر : وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره إن الله على كل شيء قدير .

الثاني عشر : لئلا يكون للناس عليكم حجة إن الله على كل شيء قدير.
الثالث عشر : الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني إن الله على كل شيء قدير.

الرابع عشر : ولا تم نعمتي عليكم إن الله على كل شيء قدير.
الثانية : لما بينت آية البحث بان الله أنعم على الناس بنعمة القبلة وجعلها متعددة ، لكل أهل ملة جهة يتوجهون إليها إبتدأت آية السياق بتأكيد الأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذي يتضمن تعيين جهة القبلة مع الإطلاق في موضع الإقامة بأن يتوجه في الصلاة إلى البيت الحرام سواء كان في الحضر أو السفر.

الثالثة : جاءت آية البحث بصيغة الجمع ولغة الخطاب المتوجهة إلى المسلمين والمسلمات جميعاً للمسارعة في الصالحات كي يتوجهوا للقبلة

الجديدة وعلى نحو دفعي من غير تردد لأنها أمر حتم وهي الجهة التي أراد الله عز وجل أن يتولى إليها المسلمون.

الرابعة : ذكرت آية البحث أن الله عز وجل يتم نعمته على المسلمين، ومن مصاديق النعمة بلحاظ آية البحث أمور:

الأول : إخبار المسلمين عن قانون تعدد القبلة عند الضرورة ، واختصاص كل ملة بقبلة معينة.

الثاني : الأمر الإلهي بالمسارعة في الخيرات.

الثالث : عدم إستثناء أحد من المسلمين في الأمر والدعوة والترغيب بفعل الصالحات، وهو من وجوه إكرام المسلمين وعمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابع : الإخبار عن المعاد، وتأديب المسلمين للإقرار به والتسليم به وعن عبد الله بن مسعود قال: مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا ، هَمَّ آخِرَتِهِ ، كَفَّاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا ، لَمْ يَيَّالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ^(٢).

الخامس : بيان عظيم قدرة الله وأنه ليس من حاجب دون نعمه ليتوجه المسلمون إلى الدعاء وكونه فرداً من أفراد الخيرات التي أمرت آية البحث بالمسارعة فيها.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿كَأَنَّا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾^(٣)؛

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) المسند الجامع ٧٨/١٢.

(٣) الآية ١٥١ .

الأول : ولكل وجهة هو وليهما كما أرسلنا فيكم رسولا منكم.
الثاني : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ولكل وجهة هو موليها.
الثالث : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاستبقوا الخيرات.
الرابع : كما أرسلنا فيكم رسولا يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة فاستبقوا الخيرات.

الخامس : كما أرسلنا فيكم رسولا أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً.
السادس : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم اينما تكونوا يأت بكم الله.
السابع : أينما تكونوا يأت بكم الله ان الله على كل شئ قدير.
الثانية : أخبرت آية البحث بأن كل أهل ملة لهم قبله يتوجهون إليها مغايرة وغير متحدة مع قبله غيرهم، وإبتدأت آية السياق بالخطاب للمسلمين بأن الله عز وجل أرسل فيهم رسولا منهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فالآية لم تذكره بالاسم ولكنها ذكرته بصفات النبوة التي تنطبق عليه دون غيره وهي:

الأول : صفت الرسالة وحتمية ملازمة الآيات والمعجزات لها.
الثاني : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الآيات على المسلمين، ومنها آية البحث وما فيها من الأحكام والسنن والقوانين .
الثالث : تزكية وتطهير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين بالقرآن والوحي والسنة، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

الرابع : تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الكتاب وآيات القرآن ومعاني الحكمة، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١).

الخامس : تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين ما لم يكونوا يعلمونه من قبل من الفرائض وكيفية أداء الصلاة وأوقاتها، والفرائض الأخرى ونحوها من أمور الدين والدنيا وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: خذوا عني مناسككم^(٢)، ومنه تعدد القبلة عند أهل الملل، ولزوم قبول المسلمين به.

إعجاز الآية

الأولى : في الآية طرد للفتنة ودعوة للوحدة مع تعدد القبلة للتمييز في الرتبة والموضوع بين الفرقة وبين التعدد.

الثانية : ان التعدد في التوجه في الصلاة والقبلة لا يعني العداوة والإختلاف والتباين بين الأديان السماوية الثلاثة.

الثالثة : تعطي الآية الأولوية لإتيان الفرائض وعمل الصالحات، والأخبار عن حتمية الرجوع الى الله عز وجل في المقام يعني في دلالاته الإلتزامية التحذير، والحث على اتيانها.

الرابعة : تدعو الآية المسلمين الى عدم الوقوف عند موضوع القبلة وتغييرها.

الخامسة : تحذر الآية المسلمين من الإنشغال مع اهل الكتاب جدالاً وخصومة واقناعاً لهم بخصوصها وتدعوهم للتوجه الى الوظائف الجهادية الأخرى بعد ان انتهت هذه المرحلة بتوفيق وتأيد واعانة الهية.

(١) سورة البقرة ٢٦٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٣٥٣/٢.

وجاءت الآية بصيغة الجمع في طرف المأمور والمأمور به ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فالأمر بالإستباق إنحلالي بعدد المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة مع تعدد مصاديق الخير، وأن التسابق فيها لا يجعلها تنفذ مما يدل على أنها متجددة ومتكثرة، وهو من فضل الله عز وجل أن يجعل لهم مادة وموضوعاً من اللامتناهي يتسابقون فيه ليكون طريقاً للبحث الدائم في الجنة. ويدل الأمر بالتسابق في الخيرات على قربها من المسلمين وتيسيرها وجلالتها وإمكان حصول المتعدد منها في آن واحد .

وتدل الآية في مفهومها على الزجر عن فعل السيئات، من جهات:
الأولى : الأمر بفعل الخيرات.

الثانية : الأمر بالمسارعة إلى الخيرات، وما تستلزمه المسارعة من التهيء لها والمبادرة إليه، وطي المقدمات لعمل الصالحات.

الثالثة : الإنشغال بفعل الخيرات برزخ وواقية من إرتكاب السيئات.

الرابعة : التسابق والمسارعة في الخيرات تنمية للملكة التقوى والنفرة من المعاصي ليكون من إعجاز القرآن أن الأمر بالفعل الحسن نهى عن ضده القبيح.

الخامسة : دلالة الآية على تفقه المسلمين بتمييزهم بين الحلال والحرام، والخير والشر، ومعرفتهم لسبل الصلاح.

السادسة : ترغيب المسلمين بإكتناز الصالحات وإحراز الثواب.

ومن مصاديق الخيرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو مقدمة لفعل الخيرات ومن أسرار مجيء الآية بصيغة الجمع (فاستبقوا الخيرات) التعاون والتعاقد في سبل الصلاح، قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١).

لقد جعل الله عز وجل الدنيا مزرعة للآخرة وأراد للمسلمين الإنتفاع من أيامها بالعمل الصالح، وفي الآية تذكير بالموت وإحتمال زيارته في أي وقت من الليل أو النهار ليختم المسلم عمله بفعل الصالحات سواء كانت عبادة مالية أو بدنية ومنها إستقبال البيت الحرام.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (ولكل وجهة) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية الشريفة، وكذلك لفظ (موليها).

وفيه دلالة على إختصاص مسألة القبلة بشأن عظيم في مراتب العبادة، وهي باب للصلاح والتقوى وإستحضار ذكر الله حتى خارج الصلاح بحضور جهة القبلة في الوجدان خاصة وأنها أمر حسي كجهة من الجهات الأربعة لا يغفل عنها الإنسان.

الآية سلاح

تساعد الآية المسلمين على إتباع الرسول في التوجه الى القبلة الجديدة القديمة لأن الأمر بها من عند الله تعالى وتتضمن فلسفة تعدد القبلة وشرف المؤقتة منها أيضاً، كما تؤهل الآية المسلمين لتلقي الأحكام والنسخ فيها. وتدعوا الآية المسلمين إلى تعاهد موضوع القبلة بالذات وتعيينه بجهة مخصوصة هي البيت الحرام، وبعد بيان قانون التعدد في القبلة بلحاظ تعدد الملل، تضمنت الآية الأمر للمسلمين بالمسارعة في الخيرات والتسابق فيها ذاتاً وموضوعاً ومحمولاً كما وكيفاً.

وجاءت صيغة الجمع لبيان عدم حصر التسابق في نوع واحد، فلو سارع مسلم في أداء الصلاة، وآخر في إخراج الزكاة وثالث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من التسابق ليكون من مصاديقه أن كل واحد منهم أسوة وقدوة لغيره سواء في بلده وزمانه أو في بلد وزمان لا حق له وتدعو الآية المسلمين إلى نشر الأخلاق الحميدة والتحلي بها، والتنزّه عن الأخلاق المذمومة التي هي ضد ونقيض لفعل الخير الذي تدعو إليه الآية

وتدل بالدلالة التضمنية على قيام المسلمين بفعل الخيرات والصالحات ولكنها أمرتهم بفرد إضافي وهو التسابق فيها وبما يطرد الكسل والخمول عنهم، ويمنع من التفريط والتسويق فيها.

وتعقب التذكير بالآخرة ﴿أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ﴾ للأمر بفعل الخيرات رحمة بالمسلمين وإخبار عن حضور الأعمال مع الناس يوم الحشر، وأن المسلمين ستحضر معهم الخيرات التي فعلوها، ومسابقتهم فيها. أي أن ذات التسابق خير محض وفعل مستقل له ثوابه ومن عظيم قدرة الله عز وجل هداية المسلمين لفعل الخيرات وإعانتهم للتوجه إلى البيت الحرام مع القبول والرضا

مفهوم الآية

الآية دعوة لنبذ الخلاف، ونهي عن الإنشغال بمقدمات وأفراد النزاعات والخصومات لأنها باب للوهن والضعف بما تسببه من الإنشغال وتبديد الجهود، لذا جاءت الآية بالحث على المسارعة والتسابق في أعمال البر والصلاح، والإستعداد للموت، والبعث والحساب بالخيرات وإكتناز الصالحات.

واقتران التذكير بالآخرة مع الحث على الخيرات لغة قرآنية تبعث السكينة في نفس المسلم والخوف والفرع في نفس الكافر، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وقيد (جميعاً) توضيحي جاء لتوكيد التقاء وشمول الأمم والأفراد جميعاً في الحشر حيث تبدو السرائر وتبين المنافع الأخروية العظيمة للمسلمين باختيارهم البيت الحرام قبله في صلاتهم. وتتضمن خاتمة الآية نفي الشك من النفوس ودعوة لطاعة الله تعالى ونيل الرغائب بالإيمان.

وفي الآية مسائل:

الأولى: بيان السعة في الأحكام الشرعية والسنن.

الثانية: توكيد لزوم إستقبال المسلمين للبيت الحرام.

الثالثة: دعوة المسلمين للمواظبة على الفرائض، وعمل الصالحات.

الرابعة: التذكير باليوم الآخر مناسبة لتعاهد القبلة، وفعل الصالحات.

الخامسة: بعث الناس جميعاً يوم القيامة.

السادسة: بيان عظيم قدرة الله، وسعة رحمته.

السابعة: إختيار الملل السابقة لقبلتهم عن طريق النبوة والوحي.

الثامنة: قيد الإيمان وإرادة قصد القربة في المسارعة في الخيرات بدليل توجه الخطاب وموضوع التسابق فيها للمسلمين.

الآية لطف

جاءت الآيات السابقة بتوكيد حقيقة وهي ملك الله عز وجل للسموات والأرض وقال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(١)، ومن الآيات أن الجهات مسخرة للإنسان في عبادته لله عز وجل، إذ أن سمت وموضع القبلة ثابت ولكن التوجه لها في جهته يتباين بلحاظ الجهة والموضع فتكون هيئة الذي في المشرق غير الذي يكون في المغرب.

وجعل الله عز وجل القرآن إماماً يهدي إلى فعل الصالحات، ومنه هذه الآية بالخطاب إلى المسلمين والناس جميعاً بالترغيب بالخيرات، والمبادرة إلى فعلها، وفيه نكتة وهي أن التسويف والتأخير في الصالحات قد يؤدي إلى عدم إتيانها، أو وجود موانع دونها لما تأتي به الأيام والليالي من الحوادث والأسباب.

ومن الخيرات العمل بالناسخ وإستقبال البيت الحرام، وإتيان ذات الصلاة التي يأتي الإستقبال شرطاً فيها يزيد بها، ويظهر صدق العبودية ويساعد على خلوص النية وحسن إرادة التوجه إلى الله عز وجل بذل وسكنة كأنه يراه وإستقبال القبلة التي أمر الله بها من عمومات قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾^(٢).

وفيه تحقيق وإعلان للعبودية بالجوارح والأركان وشاهد على كمال المعرفة واليقين في الوجدان، وإظهار لشوق القلب إلى القرب من حضرة القدس، وإقتران العمل بالرجاء.

(١) سورة البقرة ١١٥.

(٢) سورة البقرة ١٨٦.

إنفاضات الآية

لقد خلق الله عز وجل الناس ليجتهدوا في طاعته، ويخلصوا في عبادته قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، ولم يترك الله عز وجل الناس يختارون ما يشاءون من ضروب العبادة أو يكتفون بالمسمى وصرف الطبيعة منها، أو يواظبون عليها في الليل والنهار، بل جاء تعيينها من عند الله في كیفيتها وأوقاتها وبما فيه منع الحرج في الدين، وإجتنب التشديد على النفس .

ومن العبادات شرطية القبلة في الصلاة، فجعل الله عز وجل أول بيت وضع للناس قبلة للمسلمين ليكون عنواناً لوحدهم، وشاهداً على أخوتهم الإيمانية، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢)، ليكون من مصاديق الأخوة الإتحاد والتشابه في أداء الفعل العبادي.

ومن الآيات في المقام أن كل مسلم يستقبل القبلة خمس مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب ومضاعفة ثواب صلاة الجماعة تأكيد لمعاني الأخوة التي تترشح من إستقبال البيت الحرام (عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله صلى الله عليه واله قال: صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة)^(٣).

ولا يستطيع العقل الإنساني الإرتقاء إلى تشريع القبلة، وإدراك ما له من الغايات الحميدة، فهو شاهد على أن كیفية العبادات من عند الله عز وجل، وفيه دعوة للناس للمواظبة عليها والتفاني في مرضاة الله عز وجل، وجاء قوله تعالى (لكل وجهة) لتوكيد أن التباين في جهة القبلة بين المسلمين واليهود

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

(٣) الخصال ٤١/٢.

والنصارى من عند الله، ليكون فيه دعوة للمسلمين لعدم إكراه أهل الكتاب على ترك قبلتهم، وزجر لأهل الكتاب عن إيذاء المسلمين بإستقبالهم البيت الحرام، كما في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(١).

وجاءت الآية بلغة الخير والإحسان وصيغة الجمع (الخيرات) لإرادة عدم الحصر فيها موضوعاً وزماناً ومكاناً. ويمكن أن نسمي الدنيا دار (الخيرات) والمسارعة والتسابق فيها، وهي مسألة سيالة شاملة لميادين العبادات والمعاملات، لتكون الآية دعوة للفناء في مرضاة الله، قال المسيح للحواريين: إنما الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها^(٢)، فجاء تعيين القبلة بالبيت الحرام آلة فعلية وواسطة للعبور والنجاة في النشاطين.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بحرف اللام وسور الموجبة الكلية (كل) لإرادة شمول الناس جميعاً في أحكام القبلة، وأن الكفار مشمولون بأحكام إستقبال البيت الحرام، وإن تخلفوا وامتنعوا عنها، والإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار، ويتضمن قوله تعالى ﴿لِكُلِّ وَجْهَةٌ مَوْجِبَةٌ﴾، أموراً:

الأول: تعيين القبلة لكل أهل ملة.

الثاني: لا بد من الإمثال بالتوجه القبلة بدليل قوله تعالى (هو موليتها) فليس للناس التفريط بأمر الله عز وجل، ليدل التعدد في القبلة على عظيم ملك الله عز وجل، وجاء قوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، للحث على المبادرة

(١) سورة البقرة ١٤٢.

(٢) الخصال ٧٤/١.

على دخول الإسلام وتلقي النسخ في القبلة بالرضا والإمثال، وجاءت الآية بذكر (الخيرات) من غير تعيين لموضوعها لبيان السعة في فعل الصالحات. ترى ما هي الصلة بين قوله تعالى (لكل وجهة) وبين (فاستبقوا الخيرات) فيه وجوه منها:

الأول: دعوة المسلمين لإجتنب الإنشغال بالجدال بخصوص القبلة.
الثاني: إستقبال البيت الحرام من المسابقة في الخيرات، وقد فاز به المسلمون والمسلمات لمبادرتهم للإمثال لتحويل القبلة.
الثالث: جاء العطف بالفاء (فاستبقوا) للتعقيب وليبان أن المسابقة في الخيرات تأتي بعد التوجه للقبلة من غير مهلة أو تأخير، فتعين قبلة كل ملة باب لأداء الصلاة لأن الإستقبال شرط فيها.

الرابع: الآية شاهد على أن المسلمين ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، لتقيدهم بالعبادات وشرائطها ومسارعتهم في عمل الصالحات. وانتقلت الآية الكريمة إلى توكيد البعث والتشور، وإحضار الناس جميعاً يوم القيامة بين يدي الله للحساب ليكون إستقبال البيت الحرام شاهداً على الإمثال لأمر الله، وواقية من العذاب.

والصلة بين قوله تعالى (ولكل وجهة) وبين قوله تعالى (أينما تكونوا) توكيد الحياة الدنيا وأنها دار إمتحان وبلاء ومزرعة للآخرة، وأن الإيمان وفعل الخيرات هو السبيل إلى نيل الثواب العظيم في الآخرة، والنجاة من حر النار، وإذ يختلف الناس في موضوع القبلة فإن يوم القيامة هو أوان الفصل بينهم، قال تعالى ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٢).

وأختتمت الآية ببيان قدرة الله على إحضار الناس يوم القيامة بعد الموت والفناء، والله سبحانه لا تستعصي عليه مسألة، وفيه رد على الدهرية وأهل

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ٥٥.

الجحود الذين ورد عنهم في التنزيل لقول ﴿قَالُوا أَتَذَرُنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ﴾^(١).

التفسير الذاتي

لم يرد لفظ (وجهة) في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة وليس فيه لفظ (جهة) مما يدل على إختصاص القبلة بلفظ يدل على موضوع عبادي خاص، وورد قوله تعالى في إبراهيم ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾^(٢)، في جهاده في سبيل الله وإحتجاجة على الكفار والمشركين وجاءت الآية محل البحث تأكيداً لجهاد المسلمين بالتوجه إلى القبلة كل يوم عدة مرات، ليكون هذا التوجه على وجوه:

الأول: إنه شاهد على تعاهد المسلمين للعبادة في الأرض وهي العلة الغائية لخلق الإنسان.

الثاني: إستقبال المسلمين البيت الحرام في الصلاة إحتجاج يومي متجدد على الكفار والمشركين.

الثالث: فيه جذب للناس للإسلام.

الرابع: إنه أمانة في وراثة المسلمين للأنبياء في حسن سمتهم وتقواهم.

الخامس: لما جاءت الآيات السابقة بالإخبار عن الهدى والصالح الذي يتصف به المسلمون بقوله تعالى (ونحن له عابدون) (ونحن له مخلصون) جاء توجه المسلمين للبيت الحرام دليلاً عملياً يومياً على إخلاص المسلمين للعبادة لله عز وجل وقد ورد لفظ (الخيرات) عشر

(١) سورة المؤمنون ٨٢.

(٢) سورة الأنعام ٧٩.

مرات في القرآن منها ثمانية في فعل الخير والمسارة والمنافسة فيه،
 وورد لفظ (فاستبقوا) مرتين في القرآن، قال تعالى ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً
 وَمِنْهَا جَا وَكَوْشَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا
 الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾^(١)، ويلاحظ إتحاد موضوع الآية أعلاه
 أعلاه مع الآية محل البحث، لأن إستقبال القبلة فرع وجزء من
 الشريعة والملة ومن أهم مصاديق الخير دخول الإسلام، وإتيان
 الصالحات بقصد القربة، وأخبرت آية (سيقول السفهاء)^(٢)، بأن
 المشرق والمغرب لله عز وجل وجاءت هذه الآية لبيان مصداق من
 مصاديق ملك الله للأرض جميعاً بأن يبعث أجيالهم المتعاقبة جميعاً
 يوم القيامة .

وتتجلى لغة الإطلاق الزماني والمكاني في الآية الكريمة بقوله
 تعالى ﴿أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ﴾، أما الزماني فإن الخطاب القرآني
 متجدد ومتوجه إلى كل إنسان ذكراً وأنثى وفي كل زمان، وأما
 المكاني فتتجلى يقوله تعالى (أيئنا) الذي يدل على الإطلاق المكاني
 بلحاظ أن أين جاءت بمنزلة (حيث) .

ومن أسرار هذا الإطلاق شمول الذين سوف يسكنون الكواكب
 من بني آدم، حينما يتم إكتشاف الخيرات فيها، وعند الهرب من
 الفتن والابتلاء على الأرض وهو لا يتعارض مع قوله تعالى ﴿مِنْهَا
 خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٣).

(١) سورة المائدة ٤٨.

(٢) الآية ١٤٢.

(٣) سورة طه ٥٥.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان عظيم فضل الله عز وجل على الناس، فجاء خلق آدم رحمة منه تعالى وتفضل ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء من غير واسطة، وأمر الملائكة بالسجود له ليعمر الأرض بالعبادة، وتفضل الله بوضع البيت الحرام ليكون بيتاً له سبحانه يقصده المسلمون للحج، قال تعالى ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١).

وجاءت هذه الآية ضمن الآيات التي تعين قبلة المسلمين، وتخبر بأنه البيت الحرام مع ذكر التعدد في القبلة وأنه مناسبة للإمتحان والابتلاء بلحاظ أن الناس جميعاً مخاطبون بدخول الإسلام، ليكون المراد من الكل في قوله تعالى ﴿لِكُلِّ وَجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾، التقسيم الطولي لأجيال الناس بحسب زمان رسالة الأنبياء، ويكون من الحق وجهة لنبوة موسى عليه السلام، ووجهة لأيام عيسى، ووجهة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي ذاتها الوجهة التي إستقبلها إبراهيم عليه السلام.

الثانية: منع الفتنة بين المسلمين وأهل الكتاب في موضوع القبلة، وبيان السعة في الأحكام الشرعية، وعدم التعارض عند التعدد في جهة القبلة، وفي بدايات تحويل القبلة إلى البيت الحرام واجه المسلمون الإنكار والإستهزاء من شطر من الناس .

(١) سورة الحج ٢٦.

فجاءت هذه الآيات بنعتهم بخفة العقل ، قال تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(١) ، ولم تمر الأيام والليالي حتى سادت أحكام الإسلام ، وظهرت دولته ، وتضمنت هذه الآية بيان السعة في حكم القبلة ، وعدم إكراه أهل الكتاب على ترك قبلتهم وهي فرع أحكام الجزية وقبولها من أهل الكتاب مع إقرارهم على ملتهم وشريعتهم قال تعالى ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢) .

الثالثة: بيان أولوية أداء الفرائض وفعل الصالحات.

الرابعة: التذكير بيوم القيامة والدعوة للإستعداد له ، ومن أفراد هذا الإستعداد الإمتثال للأمر بالتوجه إلى البيت الحرام الذي يدل على لزوم أداء الصلاة لأنه جاء من باب ذكر الجزء وإرادة الكل ، وجاءت آيات القرآن بوجوب أداء الصلاة قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٣) ، ليفيد الجمع بينه وبين وجوب إستقبال البيت الحرام ، وجوب إتيان الصلاة بشرط إستقباله .

الخامسة: النسخ في الأحكام ومنها القبلة كما في هذه الآية من بديع صنع الله وعظيم قدرته ، وفيه إشارة إلى المنافع العظيمة التي يتضمنها نسخ القبلة ، وتبديلها .

الرابعة: تدل خاتمة الآية على المدد الإلهي في تثبيت قبلة المسلمين على فتح مكة الجواب نعم ، فقد جعله المسلمون هدفاً يصبون إليه ، ويتوسلون إلى الله عز وجل لتحقيقه للتسالم بأن الله عز وجل لا تستعصي عليه مسألة

(١) سورة البقرة ١٤٢ .

(٢) سورة البقرة ١١٥ .

(٣) سورة النساء ٧٧ .

وهذا التسالم من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، وقد اجتهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون في السعي لفتحها وجاء إستقبال البيت في الصلاة دعوة سماوية يومية لتنزيهاها من أدران الكفر والأصنام.

وفي السنة الثامنة للهجرة سار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون نحو مكة ليدخلوها فاتحين بفضل من الله عز وجل.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ﴾ ذكرت فيه أقوال:

الأولى : لكل ملة من الملل كاليهود والنصارى قبله، ونسب إلى مجاهد وأكثر المفسرين^(٢).

الثانية : لكل نبي وصاحب ملة وجهة أي منهاج وطريق.

الثالثة : المراد أن للمسلمين ولكل ملة من أهل الكتاب قبله لصلاتهم.

الرابعة : إن قبله المقربين العرش، وقبله الروحانيين الكرسي، ولكن القدر المتيقن هو تعلق الآية بالمليين في الأرض، وعلى فرض شمول الملائكة بالآية فإنه لا يلغي موضوعها الأول والتعدد في القبلة.

الخامسة : لكل قوم من المسلمين وجهة من كان منهم وراء الكعبة أو قدامها أو عن يمينها أو شمالها وهو إختيار الجبائي في تفسير الآية^(٣)، فالمراد المسلمون في توجههم إلى القبلة وبحسب بلدانهم فمنهم من تكون الكعبة بالنسبة له في جهة الشمال ومنهم في جهة الجنوب أو الشرق أو المغرب.

السادسة : المراد الملل الأخرى بلحاظ الزمان السابق للبعثة النبوية

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) مجمع البيان ١/٢٣٠.

(٣) مجمع البيان ١/٣٨٩.

والإسلام، وتخصيص قبلتهم قبل الإسلام وقبله المسلمين بعد البعثة التي يقتضي الأمر الإلهي أن تكون قبله للناس جميعاً في تأكيد حصول النسخ في أمر القبلة وأنها لم تكن واحدة في كل الشرائع.
وفي الآية مسائل:

الأول : إن هذا التعدد سر من أسرار التكاليف الشرعية في الأرض.
الثاني : إستقبال البيت الحرام يدخل في الخيرات الواردة في الآية الشريفة بترك التعدد والإختلاف في القبلة إلى الوحدة بحسن الإمثال.
الثالث : نسخ القبلة يكون شاملاً في موضوعه لكل ملة.
الرابع : الآية الكريمة تدعو إلى دراسات مستحدثة بخصوص نسخ القبلة وعموماتها، ولعل من أسباب ذلك أن أكثرهم بحاجة إلى معرفة موضع ومكان القبلة ومكانه وأن يكون عنده مقدساً.

الخامس : البيت الحرام بعيد عن أهل الكتاب ويقع حيث الجبال والتلال وقلة الثمار والأشجار، بالإضافة إلى إحاطته بالمشركون والأصنام والأوثان قبل البعثة النبوية المباركة وكأن بيت المقدس قبله بديلة ومؤقتة.
السادس : من الأسباب أن الله عز وجل أراد حفظ منطقة مكة والمدينة في منأى عن التنظيمات الحكومية السياسية وسلطة الدولة كي يكون بيئة مناسبة لإنتشار الإسلام في بدايات الدعوة يوم كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتطلع ويفرح بإسلام الأفراد والجماعات، ويسعى لإسلام أشخاص معينين لمنزلتهم الاجتماعية.

السابع : للارتقاء والحجة في النبوة فعيسى عليه السلام وشي به عند الحاكم، ومنطقة مكة والمدينة بعيدة عن سلطان الحكومات لما اراده الله عز وجل من بسط الإسلام ونشره.

الثامن : لعل في جعل قبله النصراني واليهودي الى المشرق وبيت المقدس مقدمة وتوطئة لظهور الإسلام، ولتصبح مانعاً من محاولات التعجيل بإجهاض الدعوة الإسلامية، تلك المحاولات التي تصبح عديمة الأثر مع

إزدياد قوة الإسلام.

التاسع : ما دام المسلمون لم يظهروا مستقلين في قبلتهم فان أهل الكتاب ودولة الروم معرضون عنهم غير ملتفتين بجد إلى ما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين قومه من العرب الذي إعتادوا أصلاً الإستقلال في المعاملة وفك الخصومة والنزاعات وإختيار البراري للسكن، ولعل من الآيات المتصلة بمقدمات البعثة ان ملك الروم وكسرى قد يصلان أطراف الجزيرة واليمن ولا يبلغان مكة والمدينة.

قوله تعالى ﴿هُوَ مَوْلَاهَا﴾

الأولى : الضمير (هو) يعود لله عز وجل أي انه سبحانه هو الذي خصص كل قبلة ووجه قوماً وملة لها.

الثانية : أما على القراءة (هو مولاهها) فان الضمير هو يعود لكل قوم او ملة أي أن إتباعهم وانقيادهم للقبلة التي خصصت لهم أمر حتمي والنزاع صفروي باعتبار ان تحديداتها جاء به الأنبياء وبأمر الله تعالى.

الثالثة : يدل على المعنى الأول وبحسب القراءة المشهورة في المصاحف قوله تعالى ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ وان كان متعلقاً باستقبال الكعبة، وان غيرها من مواضع القبلة يحتاج في إثبات سماويته وأمر الأنبياء به إلى دليل.

الرابعة : قيل أن المراد أن كل متوجه إلى الجهة والقبلة التي أمر بها، جاء بصيغة المفرد وإن كان المقصود الجمع.

الخامسة : في الآية نوع تخفيف بالتوسعة في أمر القبلة وجعل قبلة المسلمين مستقلة وإلا لإتصلت الحروب حول بيت المقدس، وحاول الظالمون الإساءة إلى الإسلام بالتعدي عليه بين الحين والآخر.

السادسة : في الآية إمضاء لقبلة أهل الكتاب قبل البعثة النبوية وان كان الأمر بالإسلام متوجهاً إليهم أيضاً، فقبلتهم تلك كانت واجباً وبأمر الله تعالى أما بعد البعثة النبوية فيكون حكم التوجه لها على وجهين أحدهما

ناسخ للآخر:

الأول: التوجه إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة بشرط الإسلام أي حينئذ كان اليهود والمسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس ولا يعني وحدة الحكم لهم معاً، فالمسلم توجهه صحيح لجزئيته من الإسلام، يقبل منه لشرط قصد القرية ولأنه مأمور بالإسلام، فالمأتي غير مأمور فيه والمأمور به لم يؤت به.

الثاني: تحويل القبلة إلى البيت الحرام فلا يجوز التوجه إلى بيت المقدس حينئذ مطلقاً.

السابعة: تدل الآية على إنحصار العبادات وشرائطها وجزئياتها بالله عز وجل وهو الذي يأمر بها وبتعينها على العباد ويجعل لها آجالاً وأوقاتاً محددة.

الثامنة: على الناس أن يمتثلوا ويستجيبوا للأمر الإلهي سواء كان ابتداءً أو نسخاً لغيره، وهو سبحانه أعلم بالمصالح والمفاسد.

التاسعة: موضوع القبلة نوع إختبار وإمتحان للناس، ويعرف من خلاله المؤمن الذي يتوجه إلى حيث أمره الله.

العاشرة: الملاك على إتباع أمر الله تعالى، وليس على موضع أو جهة معينة.

الحادية عشرة: ظاهر الإطلاق في الآية الكريمة يعني عدم إستدامة إمضاء كل قبلة توجهت لها ملة من الملل.

الثانية عشرة: الآية جملة خبرية لفظاً ومعنى وتحمل في معناها صيغة الأمر المستديم المنبسط على كل الأزمنة بدليل عموم الأمر الإلهي باستقبال البيت الحرام وأحكام النسخ، وجاء الأمر منطوقاً في قوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

الثالثة عشرة: الذي لم يتوجه للقبلة الجديدة يحرم نفسه إختياراً من

الثواب ، والإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار.
الرابعة عشرة : التوثيق السماوي لموضوعية القبلة في تاريخ وأحكام كل ملة ودين.

الخامسة عشرة : من وظائف النبوة التقييد بأمر القبلة وتحديداتها لأنها شرط الصلاة وهي عبادة ملازمة لوجود الإنسان في الأرض منذ أيام أينا آدم عليه السلام ، فكل نبي مأمور بالتوجه إلى القبلة على وجوه:
الأول: على نحو الإنفراد والدوام.
الثاني: على نحو التعدد بالنسخ.

الثالث: الإبتداء بقبلة جديدة كما هو حال بعض الرسل الذين يأتون بالشرائع .

الرابع: الإلتباع لمن سبقه من الرسل أي قد يكون النبي رسولاً ولكنه مأمور بإتباع قبلة الرسول الذي سبقه ، فلا ملازمة بين الرسالة ونسخ القبلة.
السادسة عشرة : في الآية إشارة إلى وجوب توجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى القبلة الجديدة، وإستقلاله عن قبلة اليهود والنصارى وبذا تكون هذه الآية تفسيراً محتملاً لقوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾^(١).

السابعة عشرة : ما دام النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيد الرسل وخاتم النبيين فلا بد أن ينال ما ناله بعض الرسل من الإستقلال بقبلة جديدة.
الثامنة عشرة : الأمر بإستقبال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الكعبة توكيد لأفضليته بالتوجه إلى أول قبلة وبيت وضع للناس.

التاسعة عشرة : تشريف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن الكعبة هي التي ستبقى من غير أن تتعرض للنسخ وبذا يكون تفضيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم متعدد الوجوه ولم ينله أحد من الأنبياء.

العشرون : الآية وإن جاءت بلغة الخبر إلا أنها تحت المسلمين على إتباع القبلة الجديدة للحكم الإلهي بلزوم إستقلال الدين الإسلامي بقبلته.
الحادية والعشرون : القبلة الجديدة ليست شرطاً في الصلاة فحسب بل هي شرط وجزء من الديانة الناسخة.

الثانية والعشرون : موضوعية الإنفراد والإستقلال بالقبلة بالنسبة للمسلمين يدل على عظيم شأن الإسلام من بين الملل.
الثالثة والعشرون : القبلة جزء من الإرادة التكوينية والتشريعية في الفلسفة العقائدية.

الرابعة والعشرون : جاء قوله تعالى ﴿لِكُلِّ﴾ بحذف المضاف إليه، وقد يقوم مقام المحذوف أمر يدل عليه وقد لا يكون وتدل عليه القرائن، كما هو الحال في المقام للإختصار والبلاغة وظهور المعنى، وفيه هنا نكتة عقائدية وهي إنفراد قبلة الإسلام بالذكر والاسم والتحديد دون غيره بما فيها بيت المقدس، وكما أن الثابت في الفلسفة أن الوجود أشرف من العدم، فإن الذكر بالاسم والتخصيص أفضل من الإشارة الإجمالية.

الخامسة والعشرون : للحذف أدلة يستدل بها على معرفة المحذوف منها العقل والتبادر وإنصراف المعنى كقوله تعالى ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾^(١) أي أهل القرية، ومنها التلبس بالعمل، ومنها إقتران اللفظ بالفعل، وهي مجتمعة تشترك في هذه الآية.

قوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فيه أقوال:

الأول : سارعوا إلى الخيرات، عن الربيع، والخيرات هي الطاعات.
الثاني : بادروا إلى القبول من الله عز وجل فيما يأمركم به مبادرة من

يطلب السبق إليه عن الزجاج^(١).

الثالث : تنافسوا فيما رغبتم فيه من الخير فلكل عندي ثوابه، عن ابن عباس.

وفي الآية مسائل:

الأولى : كل هذه الوجوه من مصاديق الآية الكريمة.

الثانية : يمكن النظر إلى الآية الكريمة بلحاظ المقام والقرائن.

الثالثة : من أهم موضوعاتها هو إستقبال البيت.

الرابعة : الآية دعوة لكل إنسان ، أي أن الخطاب ينحل بعدد المسلمين والمليين وغيرهم سواء على القول بأن الكفار مكلفون بالفروع كما هو المختار والمشهور عند عامة علماء المسلمين، أم أنهم غير مكلفين بها.

الخامسة : تفرع الخيرات وتشعبها من موضوع القبلة لتتصل بفريضة الحج التي هي من ضروريات الدين، وأن كان الحج لا يقبل إلا بشرط الإسلام لتقومه كعبادة بالنية وقصد القربة، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢).

السادسة : تكون هذه الآيات حاسمة وقاطعة لموضوع القبلة.

السابعة : في هذه الآيات نجاة من كل إفتراء وإيذاء من قبل غير المسلمين.

الثامنة : جاءت فريضة الصيام في نحو خمس آيات من القرآن مع أنها

فريضة مستقلة وضرورة من ضرورات الدين، بينما الأمر بتحويل القبلة اخذ نحو ضعف ذلك في عدد الآيات والكلمات مما يدل على أهميته وما يحيط به من العناية والجهاد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

التاسعة : أمر تحويل القبلة كان في تطبيقه وتنفيذه والشروع فيه آية إذ تم

العمل به حال نزول الأمر مما قطع الطريق أمام أعداء الإسلام في حثهم

(١) مجمع البيان ١/٢٣١.

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

على التسوية أو التردد فيه، وجعلهم فقط يتكلمون بلغة الإستغراب والتسليم بحال تبديل القبلة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ (١).

ليظهر التعدد في صيغ تنفيذ الأوامر الإلهية، وإن الحزم والمباغته لا تنحصر بمبادئ القتال وسوح المعارك بل تشمل أحكام العبادات والمناسك. العاشرة : الظاهر أن في الآية تأدياً وتعليماً للمسلمين وكأنها تقول لهم إتخذوا من تحويل القبلة وحسم أمرها بسرعة وفورية ركيزة وقاعدة في العمل الجهادي، وتثبيت شرائع الإسلام.

الحادية عشرة : هل يفيد إتحاد الأمر والتنفيذ خروج موضوع تحويل القبلة من مصاديق هذه الآية بالتخصص وليس بالتخصيص الجواب لا، لأن الإمتثال في موضوع القبلة وحده مسارعة في الخيرات، ومن أتم وأحسن واصدق صيغ المسارعة لكن ذلك لا يمنع من إطلاق الآية وعموماتها.

الثانية عشرة : يمكن أن تشرع قاعدة جديدة في القرآن وهي مجيء آية للدلالة على مضامين آية أخرى بقاعدة كلية لتكون الآية مناسبة للكلية وفرداً يصلح للتعميم والشمول والإطلاق، وتأدياً وتعليماً وإرشاداً في القضايا المشابهة.

وتستنبط من تلك القاعدة أحكام ودروس وتتفرع عنها مسائل وقواعد عرفية، وتنطبق على مصاديق موضوعية وحكمية عديدة.

الثالثة عشرة : تدعو الآية إلى المبادرة والإقدام، وعدم التردد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند إجتماع شرائطه وفي أداء العبادات حال التمكن منها وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

الْخَيْرَ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾.

الرابعة عشرة : أداء فريضة الحج مثلاً في حال الإستطاعة من هذه الخيرات وكذا المستحبات والصالحات.

الخامسة عشرة : لفظ الخيرات عنوان شامل للواجبات والمستحبات وما ندب إليه الشرع ورجح العقل نفعه وفائدته.

السادسة عشرة : الآية دعوة للتنافس والتسابق في الخيرات لما في أدائها وإتيانها من الثواب العظيم وهو لا يتعارض مع معاني الأخوة في الإسلام وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢)، لأن المراد من التسابق مبادرة المسلم لفعل الخير بما يدفع أخاه ويكون مناسبة للتسبيب في فعل الخير، والتحريض عليه، وترشح الثواب على فاعل الخير وسببه وواسطته والداعي إليه وفي مدح المؤمنين الذين يمثلون للأوامر الإلهية بخشية وخضوع، ومنها التوجه للبيت الحرام قبله، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾^(٣).

السابعة عشرة : التنافس في الخيرات وأداء الصالحات مدخل كريم لتثبيتها في الأرض وحث عليها ودعوة على إتيانها فقد يتم التنافس على بناء مسجد في مدينة مثلاً، فيبادر آخرون إلى بناء مسجد آخر في تلك المدينة أو غيرها وإلى القيام بمشاريع خيرية وإصلاحية أخرى لأن المنافسة في المكارم تصبغ المجتمع وسير الأعمال فيه بصبغة العمل الصالح رجاء الأجر والثواب.

الثامنة عشرة : يتغشى الناس التراحم والتوadd بينهم وفعل الخير وفيه إصلاح للنفوس، وتنقية للمجتمعات، ودعوة إلى الله عز وجل.

التاسعة عشرة : ليجعل المسلمون ضمن غاياتهم الأساسية فعل الخيرات

(١) سورة آل عمران ١٠٤.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

(٣) سورة المؤمنون ٦١.

لأنها طريق إلى الجنة بلحاظ أن الدنيا مزرعة الآخرة.

العشرون : الآية رحمة وهدى وعون وإمضاء للصالحات.

الحادية والعشرون : من إعجاز القرآن أن أمراً متكوناً من كلمتين يكون

مدرسة جامعة في ميادين العمل المختلفة وحافزاً ودليلاً وهادياً.

الثانية والعشرون : تنفي الآية الرياء في حالات المسابقة والتنافس في

الخيرات إلا مع قصده على نحو السالبة الكلية، ومن غير قصد القرية وهو

بعيد، لأن الآية تدعو إلى جني الحسنات وتنمي ملكة التقوى والتوجه

النفسي نحوها والمبادرة فيها.

الثالثة والعشرون : تمنع الآية من نعت الذين يسارعون في الخيرات

بنعوت تصدر عن الحسد والغيرة والجهل.

الرابعة والعشرون : الآية واقية وحرز ودعوة للتوكل على الله في إتيان

الخيرات فقد لا تكون مقدماتها وأسبابها تامة ومتهيئة ولكن الشروع فيها

يسهل تلك الأسباب والمقدمات، ويزيل ما متوقع من المعوقات.

الخامسة والعشرون : ورد الأمر بالخيرات مطلقاً مما يفيد العموم وعدم

حصرها في باب دون آخر أو قوم أو أمة دون أمة، فقد يكون من الخيرات

الإحسان للناس جميعاً، ومن وجوه الإحسان دعوتهم إلى الإسلام، قال

تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١).

السادسة والعشرون : أن الله عز وجل بالتسابق والمبادرة إلى الخيرات

وكفل تيسير أسبابها وتذليل الصعاب في طريقها.

السابعة والعشرون : الإستباق الوارد في الآية أعم من المنافسة، فهو

يشمل المبادرة الشخصية ومن غير أن يدخل طرف آخر للمنافسة لأن

الخطاب في الآية انحلالي والدعوة فيه مطلقة غير مقيدة بالتنافس، وتحث الآية

كل مسلم على الخير والإحسان.

الثامنة والعشرون : ورود الآية والأمر بصيغة الجمع يعني عدم انحصار المبادرة الى الخيرات بالقضية الشخصية والأفراد بل بالجماعات والجمعيات والمؤسسات الخيرية.

التاسعة والعشرون : تحت الآية الكريمة على إتيان الصالحات وان تلكاً وابطأ الغير في أدائها ممن هو أولى بإتيانها سواء كان أكثر مالأ أو نفوذاً أو منزلة أو اهلية لأنها من الواجبات أو المستحبات الكفائية، فعند عدم اتيان فرد بها على الآخرين إتيانها.

وجاء الأمر بإستباق فعل الخيرات على نحو الوجوب العزيمة والخطاب الشامل للمسلمين والمسلمات بلغة العموم الإستغراقي، فكل مكلف منهم مدعو للمسارعة في الخيرات والمسابقة مع غيره، وليس من حصر لكيفية وموضوع تلك المسابقة، نعم هي محدودة بقيد الخير وما فيه الصلاح والبر والإحسان، وبالقواعد الفقهية فمثلاً الصلاة اليومية، وصلاة الجماعة من الخيرات لكن لا يجوز أداؤها قبل وقتها.

وورد قوله تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١)، ليدل على أنه كلاً من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فعل الخيرات والمسابقة فيها، وهي أيضاً مقدمة، ونتيجة لها، وتلك آية في التوثيق والهداية من عند الله، ليكون قوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، دعوة للمتعدد والمتداخل والتوليدي من فعل الخير والصلاح.

وتدل الآية في مفهومها على النهي والتحذير من التفریط بالعبادات وترك الصالحات، والزجر عن الإبطاء في إستقبال البيت الحرام، وتمنع من الإصغاء لقول السفهاء وأعداء الإسلام الذين يرغبون في صد المسلمين عن وظائفهم

(١) أنظر الجزء الثامن والأربعين من هذا التفسير الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

العبادية، قال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ﴾^(١).

بحث أصولي

في مقابل الواجب المطلق قد يكون الواجب مشروطاً كما في الحج لاشتراطه بالاستطاعة، وتهيئة أسباب الحج، والاستطاعة من الزاد والراحلة ليس بواجب لأن تحصيل مقدمة الواجب ليس واجباً، ولكن هذا لا يمنع من السعي في الأمر أو مستلزمات الحج قبل أوانه على نحو الندب والاستحباب تعظيماً لشعائر الله.

أي أن آية الحج مركبة من الوجوب والاستحباب كل بحسب الخطاب التكليفي الموجه إليه، والأصل فيه الوجوب، وتعاهد تلك الاستطاعة مثلاً لحين أوان الحج خصوصاً وإن فعلية الوجوب قد تكون مقارنة لزمان فعلية الواجب كما في صيام شهر رمضان برؤية الهلال ويسمى الواجب المنجز لأن وجوبه فعلي، أو تكون فعلية الوجوب متقدمة زماناً على فعلية الواجب ويسمى (الواجب المطلق)، وقد اختلف في إمكان وقوعه، والنزاع صغروي بعد الاتفاق على الكبرى إذ أن الواجب مشروط بدخول وقته كالحج في موسمه والصلاة عند دخول وقتها.

وجاء الأمر بإستقبال البيت الحرام من الواجب المنجز غير المعلق، فليس ثمة شرط أو مدة ومهلة بين الأمر بإستقبال البيت وبين التوجه الفعلي له في الصلاة، وتلك آية في أحكام القرآن، وأسرار نزول آياته على نحو النجوم والتدريج.

قوله تعالى ﴿أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وفيه مسائل:

الأولى : إن الله عز وجل جعل القرآن مدرسة وعبرة وموعظة، فقد

اخبر سبحانه بحتمية البعث يوم القيامة والحساب.

الثانية : الأشياء جميعها مستجيبة لقدرة الله تعالى ومنها الإنسان حياً أو ميتاً، وبلحاظ نظم الآية فان موضوعها تذكرة وحث على الخيرات لتكون واقية من النار وآلة وعوناً في اجتياز الصراط يوم القيامة.

الثالثة : إظهار الملازمة بين موضوع القبلة ويوم الحشر فكما ان المسلمين يتوجهون جميعاً الى القبلة في الصلاة فكذا يجمعهم يوم القيامة وكأن في وحدة الإستقبال تذكيراً بيوم القيامة.

الرابعة : بما أن القبلة أمن فان الامتثال باستقبال البيت الحرام بشارة للأمن يوم القيامة وعلى نحو النوع والملة أي الأمن للمسلمين.

الخامسة : الإتحاد والإمتثال في موضوع القبلة باب للرحمة يوم القيامة فسيجتمع المسلمون يومئذ وقد اجتمعوا قبلها بموضوع القبلة وهو من اهم مصاديق الطاعة، أي ان تحقيق الاجتماع في الدنيا على أمر عبادي امتثالاً لأمره تعالى يكون جزاؤه يوم القيامة بفضل الله تعالى الاجتماع في الجنة.

السادسة : شراء الأمن من الفرع يوم القيامة بحسن الإستجابة في موضوع القبلة وتوجه المسلمين إلى البيت الحرام، وكأنه دعاء وتضرع الى الباري عز وجل، وسؤال للرحمة والعفو والمغفرة يومئذ.

السابعة : تتضمن الآية وعداً ووعداً، وعداً للمؤمنين بالثواب وحسن اللقاء، ووعداً للكفار بسوء العاقبة وحتمية الحساب.

الثامنة : إن فضل الله تعالى يجعل البيت الحرام آمناً وملاذاً وملجأ أعم من أن ينحصر بالبيت وموضعه وأداء فريضة الحج، بل يشمل أيضاً إتخاذه قبلة في الصلاة ويتوجه له المسلمون والمسلمات من جميع أصقاع الأرض وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾^(١).

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفيه مسائل:

الأولى : والله سبحانه هو القادر على أن يجعل الناس جميعاً يستجيبون ويمتثلون لأمر القبلة الناسخة فيتوجه الكل إلى البيت الحرام ويؤدون الصلاة جماعة وفردى.

الثانية : لقد جعل الله سبحانه الدنيا دار إبتلاء وإمتحان فهؤلاء الذين أصروا على قبلتهم من أهل الكتاب، أو الوثنيون وهم الأسوء حالاً الذين لم يتوجهوا إلى قبلة أصلاً لو شاء الله لإجتمعوا في موضوع القبلة ولهداهم أجمعين.

الثالثة : الآية سكية وتطمين للمسلمين، ودعوة للتوجه إلى الله في الحوائج.

الرابعة : تتضمن الآية الكريمة قواعد كلية في إطلاق قدرة الله تعالى التي تنبسط على كل الميادين الكونية والتكوينية والتشريعية وتظهر جليلة بخواتيم الآيات وما لها من صفة العموم وإمكان التفرع والتشعب.

الخامسة : بعث روح الأمل والبشارات في نفوس المسلمين ما دامت قدرة الله تعالى مطلقة، فلا بد من إنتصار الإسلام وليس من قوة أو سبب يستطيع أن يقف حاجزاً أو مانعاً دون النصر وقد نصر الله عز وجل المسلمين في معركة بدر، وهم قلة قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١).

السادسة : التذكير بعظيم قدرة الله تعالى وأنها مطلقة أي بالنسبة للأشياء جميعاً ومجردة عن الزمان والمكان والجهة.

السابعة : في الآية إخبار بان أحياء الموتى من الممكن غير الممتنع لوجود المقتضي وفقد المانع، فهو تعالى لا يوصف بالعجز ولأن النشور من المقدور وجب التعلق العام.

الثامنة : بيان حقيقة وهي حصول الحشر بقدرة الله تعالى وفيه رد على طرح الشكوك والشبهات التي لا زالت تظهر بين الحين

والآخر إلى يومنا هذا، وتعلق بخصوص كيفية جمع العظام البالية ونحوها.

التاسعة : التخلص من الكدورات النفسانية بالإيمان بأن كل شيء مستجيب لقدرته تعالى، وحاضر عنده.

شبهة الأكل والمأكول

ترد هذه الشبهة على القول بالمعاد الجسماني ومضمونها أن الإنسان إذا صار غذاءً لإنسان آخر فإن الجزء المأكول منه أما أن يكون يوم النشور في جسم الأكل أو في بدن المأكول، مما ينفي تمام العينية أي عينية البدن الأخرى لبدن الإنسان ذاته في الحياة الدنيا. وكذلك كيف تكون أوجه الجزء إذا كان الأكل وثنيًا أو كافرًا والمأكول منه مؤمنًا فقد يكون في الجزء عذاب لهذا المؤمن أو يكون فيه ثواب للكافر أو تتداخل أوجه الجزء المختلفة على ذات البدن.

وهذه الشبهة مدفوعة وتم تفنيد ما فيها من قول إذ أن الصورة جوهر ثابت لا ينقلب وتحفظ باستقلالها، وانتقال الأجزاء إلى ماهية أخرى يغير الموضوع، والصورة هي الجوهر عند حلوله بالمحل وتقويمه له، ولعل إعتبارها عند العرف الخارجي، الوصف للشيء وتخطيطه نوع تخفيف وإرادة المعنى الظاهري، فصيورة الماء بخاراً وهواء مثلاً لا يعني تغير صورة المائية، بل أن المادة لا تزال باقية موجودة غير معدومة، ولكنها إنخلعت من شكلها الأول وصارت ذات شكل آخر.

وفي الفقه في باب المطهرات (الاستحالة) وهي تبدل حقيقة الشيء وصورته النوعية، وتعتبر قاعدة مستقرة فليس في النصوص لفظ (الاستحالة) كالخشبة المتنجسة تصبح رماداً فإنها تطهر، والطعام النجس إذا صار جزء من الحيوان، وهذه الإستحالة قد تجعل أجزاء بدن الميت غير داخلية إنطباعاً ووصفاً في بدن الأكل.

وأنت ترى البيان والتشديد في أحكام الدفن وأن القبر يحضر إلى الترقية من طول الإنسان الواقف، وتحول بدن الميت إلى تراب ودخوله في عناصر غذاء الحيوان أعم من انتقال بدن الميت بالواسطة إلى بدن الحي، مع ندرة إلتقاء تلك الأجزاء، لذا فإن بدن المؤمن في علم الله محدد ومعروف، وليس من العسير فرز بدن إنسان عن آخر أو عن حيوان أو عن تراب، وكل شيء مستجيب لله عز وجل ويعرف وظيفته ومقامه، وأن الصورة الخاصة ليست شرطاً في مادية البدن، هذا بالإضافة إلى إعتداد الحيشية في البعث والنشور على النفس التي فيها يكون تشخص الإنسان خاصة وأن أجساد الموتى تبلى وتتفاعل جزئياتها مع التراب والنباتات وقد تدخل أبداناً أخرى.

والبدن الذي يحشر في الآخرة هو عين بدن الإنسان لا مثله وإن رآه في الآخرة يقول هذا فلان الذي عهدناه في الحياة الدنيا وهو أمر ثابت في الشريعة وممكن عقلاً، وهو بحد ذاته رد على هذه الشبهة وإبطال لها وأن تلبست الروح في عالم البرزخ ببدن مثالي مشابه له.

ومع الإرتقاء العلمي في هذا الزمان وصعود الإنسان ورحلاته إلى الكواكب الأخرى قد يرد سؤال هو: ما حال من يموت في الكواكب الأخرى خاصة عند إستقرار الحياة فيها، والله عز وجل يقول ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾^(١).

إن تلك الإعادة لا تدل على الفورية بل أنها تسبق النشور وهي من مصاديق إطلاق قدرة الله تعالى، وإحتمال خروج نفر عن القاعدة لا يمنع من جريانها وذكرها، ووحدة الموضوع الشاملة لذلك النفر الذي قد يقطن الكواكب فتشمله أحكام الدفن ومن ثم النشور، وإتحاد سنخية التربة يؤكد إطلاق الحكم ومناسبتها للموضوع.

وفي حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "وقد سُئل عن الميت

يلى جسده؟ قال: نعم، حتى لا يبقى له لحم ولا عظم إلا الطينة التي خلق منها فانها لا تبلى بل تبقى في القبر مستديرة حتى يُخلق منها كما خلق أول مرة^(١).

وظاهر والأخبار أن البعث والنشور على الخلقة الأولى، وأن شبهة الأكل والمأكول أجنبية عن موضوع البعث، لأن النوبة لا تصل إليها موضوعاً ومحمولاً.

وجاءت آية البحث بسيطة في مضمونها إذ أن الخطاب فيها ﴿أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾^(٢)، إنحلالي بعدد الناس من أيام أبينا آدم عليه السلام، فكل إنسان يحضره الله بروحه وجسده من غير تداخل بين الأفراد، وعدم التداخل هذا من مصاديق قوله تعالى في خاتمة الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إن إستحضار الإطلاق في قدرة الله مع الوعد والعهد منه تعالى بإحضار الناس جميعاً كاف لدفع شبهة الأكل والمأكول، ودعوة للإستعداد لهذا الإحضار بالمسارعة في الخيرات، قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

(١) البحار ٤٣/٧.

(٢) الآية ١٤٨.

(٣) سورة آل عمران ١٣٣.

قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الآية ١٤٩.

الإعراب واللغة

ومن حيث: الواو حرف عطف، من: حرف جر، حيث: اسم مبني على الضم في محل جر متعلق ب(ولّ)، خرجت: فعل ماض والتاء ضمير في محل رفع فاعل، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف فبعد أن جاء في الآية السابقة ﴿وَكُلِّ وَجْهٌ هُوَ مَوْبِقٌ﴾، جاءت هذه الآية لتبين وجهة النبي والمسلمين خاصة.

فول: الفاء زائدة لربط ما بعدها بما قبلها، ولّ: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، شطر: ظرف مكان وهو مضاف، المسجد مضاف إليه مجرور، الحرام: صفة للمسجد مجرور مثله.

وإنه: الواو: حالية، إن: حرف مشبه بالفعل، الهاء: اسم إن.
للحق: اللام هي المرحلة وتأتي للتوكيد، الحق: خبر إن مرفوع.
من ربك: جار ومجرور، والكاف ضمير في محل مضاف إليه.
وما الله بغافل: الواو: حرف إستئناف، ما: نافية تعمل عمل ليس، اسم الجلالة: اسم (ما) مرفوع .

بغافل: الباء حرف زائد، غافل: اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً، خبر ما، عما: عن: حرف جر، ما: اسم موصول في محل جر متعلق بغافل.
تعملون: فعل مضارع مرفوع، والواو: فاعل.

قد تأتي التولية بمعنى الإقبال والإستقبال كما في هذه الآية وتدل عليه القرائن ولتعديها باللام، بخلاف ما إذا تعدى بعن(وولّى عنه: أي أعرض عنه

في سياق الآيات

تتناول هذه الآيات مسألة تحويل القبلة وهو تشريع ذو أهمية ويواجه بعض الشبهات التي يثيرها أهل الشك والحسد ، فاستلزم الأمر البيان والوضوح وإنتفاء اللبس وما يفيد القطع والبت وعدم التأجيل معزراً بالإخبار عن صدوره من عند الله تعالى.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (سيقول السفهاء)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها

مسائل:

الأولى: بيان بطلان قول السفهاء وإستهزائهم بالمسلمين لأن التحول إلى

القبلة جاء بأمر من عند الله.

الثانية: دعوة الناس للإقتداء بالمسلمين، والنهل مما عندهم من العلوم

التي تتجلى بالإمتثال للأوامر، بتقريب أن طاعة الله والإستجابة له علم

وفعل حسن، وإرتقاء من سلم الكمالات.

الثالثة: يلوم السفهاء المسلمين على إستقبالهم البيت الحرام، وإنما جاء

تحويل القبلة بأمر من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة: كان المسلمون يستقبلون بيت المقدس بأمر من الله إلى نبيه محمد

صلى الله عليه وآله وسلم وكذا بالنسبة في نسخها وتحويلها إلى البيت الحرام.

الخامسة: جاءت الآية أعلاه بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم (قل لله المشرق والمغرب) وجاءت هذه الآية بالأمر له بإستقبال البيت

الحرام، المقرون بالخطاب الذي يتضمن الحجة والبرهان.

(١) لسان العرب ١٥/٤١٤.

(٢) الآية ١٤٢.

السادسة: جاءت هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ﴾، وبلحاظ الجمع بين الآيتين يكون من الحق أمور:

الأول: ترك المسلمين لإستقبال بيت المقدس.

الثاني: توجه المسلمين والمسلمات كافة في صلاتهم إلى البيت الحرام.

الثالث: لله المشرق والمغرب.

الرابع: يهدي الله من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني: الصلة بين آية (أمة وسطاً)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تتخذ الأمة الوسط البيت الحرام قبلة لأنه قبلة الأنبياء السابقين.

الثانية: جاء الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإستقبال البيت الحرام ليكون المسلمون شهداء على الناس.

الثالثة: من شهادة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين إمتثالهم لتحويل القبلة.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين أن من مصاديق الحق أمور:

الأول: نسخ القبلة وتحويل المسلمين صوب البيت الحرام.

الثاني: شهادة المسلمين على الناس.

الثالث: شهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين.

الرابع: تأكيد ونسخ إستقبال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبيت المقدس لقوله تعالى ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾.

الخامس: بيان علة وسبب من أسباب نسخ القبلة كإمتحان وإختبار ليعلم الله من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

السادس: نسخ القبلة ليس كبيراً على المسلمين الذين هداهم الله.

السابع: إن الله عز وجل لا يضيع إيمان وجهاد وصبر المسلمين وإمتثالهم لأمر الله بتحويل القبلة.

الثامن: إن تحويل القبلة رحمة ورأفة بالناس وفي إختتام الآية أعلاه بقوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، دعوة للناس للإقتداء بالمسلمين في تحويل القبلة والتدبر في منفعه.

الثالث: الصلة بين آية (قد نرى) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: تضمن الآيتين للأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يصرف وجهه صوب البيت الحرام.

الثانية: مجيء الإطلاق والتقييد في الآيتين، فقد ذكرت هذه الآية أن تحويل القبلة حق من عند الله، وجاءت الآية أعلاه بالإخبار بأن أهل الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم، وفيه بيان لموضوعية أهل الكتاب في مسألة وتحويل القبلة إلى البيت الحرام.

الثالثة: إتحاد ألفاظ خاتمتي الآيتين بأن الله عز وجل يعلم بما يفعل العباد، مع التباين في صيغة الخطاب، وإرادة صيغة الغائب في خاتمة الآية أعلاه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

أما هذه الآية فجاءت الخاتمة بصيغة الخطاب ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، للثناء على المسلمين في إمتثالهم في تحويل القبلة.

الرابع: الصلة بين آية (ولئن أتيت) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيه مسائل:
الأولى: جاءت الآية أعلاه بالإخبار عن تخلف أهل الكتاب عن إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في موضوع القبلة، والآية محل البحث من الآيات والحجج في المقام.

الثانية: عدم إتباع أهل الكتاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مسألة القبلة ليس مانعاً دون إتباع المسلمين له وإتقيادهم لأمر الله عز وجل

(١) الآية ١٤٤.

(٢) الآية ١٤٥.

في وجوب تحويلها إلى البيت الحرام.

الثالثة: يأتي الأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من غير واسطة بشر، ولن يضر في الإمتثال له إمتناع غير المسلمين من الإمتثال له والتقيّد بأحكامه.

الرابعة: ترغيب أهل الكتاب بإستقبال البيت وزجرهم عن الإنكار على المسلمين في إستقبالهم البيت الحرام لقوله تعالى ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

الخامسة: توكيد قانون ثابت وهو أن الأوامر الإلهية تأتي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيمثل المسلمون.

السادسة: التباين بين التوجه للبيت الحرام وبين الأهواء.

السابعة: الأمر بالتحويل إلى البيت الحرام علم تفضل الله عز وجل به على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لقوله تعالى في الآية أعلاه ﴿مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

الخامس: الصلة بين آية (الذين آتيناهم) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: لقد أراد الله عز وجل عودة المؤمنين إلى قبلة الأنبياء السابقين، وهي الكعبة، فبعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إماماً في تحويل القبلة إلى الكعبة.

الثانية: يعرف أهل الكتاب أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مأمور بالتحويل إلى البيت الحرام.

الثالثة: يعلم أهل الكتاب ما يتصف به نبي آخر الزمان بإستقبال البيت الحرام.

الرابعة: يكتّم فريق من أهل الكتاب الحق، وتأتي هذه الآية لتخبر عن ظهوره بتوجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للبيت الحرام.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين أن إخفاء الناس للحق والبشارات السماوية لم يمنع من كشفها وبيانها.

السادس: الصلة بين آية (الحق من ربك) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تكرار قوله تعالى (الحق من ربك) في الآيتين.

الثانية: أكدت الآية أعلاه معرفة أهل الكتاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإخفاء فريق الحق الذي جاء من عند الله لن يضر بحقيقة هذه المعرفة.

وجاءت هذه الآية بكشف الحق، والإخبار عن علامات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي جاءت بها الكتب السماوية السابقة.

الثالثة: دعوة المسلمين للتقيد بأحكام القبلة.

السادس: الصلة بين الآية السابقة (ولكل وجهة) ^(٢)، وهذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إبتدأت الآية أعلاه بأن لكل أهل ملة طريقة وقبلية يتوجهون إليها، وجاءت هذه الآية لتعين قبلة المسلمين وهي البيت الحرام.

الثانية: دعوة المسلمين للمبادرة إلى التحول إلى البيت الحرام لأنه من الخيرات التي يجب المسارعة إليها.

الثالثة: أكدت الآية أعلاه حتمية المعاد، وبعث الناس للحساب، وهو من عمومات قوله تعالى في هذه الآية (وإنه الحق من ربك) سواء لأنه قرآن أو لعمومات الضمير الهاء في (إنه) الوارد في الآية أعلاه بلحاظ أن المراد منه ليس التوجه للبيت الحرام وإتخاذ قبلة بل هو أعم ويشمل مضامين الآية أعلاه.

(١) الآية ١٤٧.

(٢) الآية ١٤٨.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:
الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (وحيث ما كنتم)^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: إبتداء الآيتين بذات الأمر موضوعاً وحكماً ولفظاً ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ولم تأت في القرآن آيتان متتاليتان يكون أولهما سبع كلمات متشابهات مثلهما خطاباً وأمراً.

الثانية: جاءت الآية أعلاه بالخطاب للمسلمين وإخبارهم بأن الله أرسل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً لهم، وجاءت الآية محل البحث خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه دعوة للمسلمين بإتباعه في التوجه للبيت الحرام في الصلاة.

الثالثة: من آيات الله التي يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين الآية محل البحث وأن إستقبال البيت الحرام حق من عند الله.

الرابعة: من صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومصاديق تفضيله على الأنبياء السابقين أنه يعلم المسلمين الكتاب والحكمة، والآية محل البحث من الكتاب والحكمة لأنها تتضمن الأمر والعلة والوعد بالثواب للإمتثال للأوامر الإلهية .

وتجتمع هذه الوجوه في ترغيب المسلمين بالعمل الصالح، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى ، وأملأ يديك رزقاً . يا ابن آدم لا تباعد مني فأملأ قلبك فقراً ، وأملأ يديك شغلاً^(٢).

الخامسة: نسخ وتحويل القبلة من الأمور والأحكام التي علمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين، ولم يكونوا يعلمون بها من قبل.

(١) الآية ١٥٠.

(٢) الدر المنثور ٣٩٨/٢ .

إعجاز الآية

الأول : تظهر الآية إستدامة الفورية في التطبيق والإمثال الزماني والمكاني.

الثاني : الآية تؤكد لعدم إمكان الرجوع إلى النسخ في إستقبال البيت الحرام بعد أن أفادت الآية السابقة الفورية.

الثالث : إستقبال الكعبة حق وفرض من الله تعالى.

الرابع : من الإعجاز في الآية الإلتفات البلاغي، وإنتقالها من لغة خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى لغة الجماعة، ومن صيغة الأمر إلى الإخبار عن الثواب وحسن الجزاء بتحقيق الامثال.

الخامس : تمنع الآية من الرجوع والإختلاف إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسؤاله الإبقاء على إستقبال بيت المقدس لأن التبديل بأمر الله تعالى.

السادس : تبين الآية عظيم مسؤولية تحويل القبلة، ولزوم تعاهده والثبات عليه ومن حق المسلمين الإفتخار بالتوجه الفوري إلى البيت الحرام كقبلة لهم.

السابع : تعطي الآية تحويل القبلة صبغة الجهاد المستديم.

وجاء أول ووسط الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أما خاتمتها فهي خطاب للمسلمين والمسلمات جميعاً، وهو بلحاظ نظم الآية ترغيب بإتخاذ البيت الحرام قبلة ، وتلك آية في لطف الله عز وجل بالإخبار عن الثواب العظيم الذي ينتظرهم بطاعتهم وحسن إمتثالهم للأوامر الإلهية بالتوجه إلى البيت الحرام قبلة.

وتمنع الآية من التردد والتفريط في موضوع القبلة، وتزجر عن دعوة جواز التعدد فيها بالنسبة للمسلمين، فليس لهم إلا قبلة واحدة وهي البيت الحرام ومن أسرار الخصوص والعموم بين بداية وخاتمة الآية مسائل :

الأولى : بيان حسن سمت المسلمين، بأن يأتي الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويمثل المسلمون جميعاً له. وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الثانية : التوجه إلى البيت الحرام كقبلة في الواجبات والمستحبات العبادية عمل يثاب عليه المسلمون، فهو وإن كان شرطاً في الصلاة إلا أن الشرط غير المشروط، والصلاة فعل مركب، كل فرد منه له أجر وثواب وفي الوضوء وورد عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ^(٢).

الثالثة : إقتداء المسلمين بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعماله العبادية وعدم تخلفهم عنه، فيأتي الأمر والخطاب والإخبار للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن إستقبال البيت الحرام حق وصدق من عند الله، ويتلقاه المسلمون بالقبول وإدراك حقيقة وهي أن نسخ القبلة والتوجه إلى البيت الحرام إنما هو أمر وحق من عند الله، والحق في موضوعه على وجهين:

الأول : إرادة نسخ القبلة.

الثاني : أوان النسخ وبداية تحول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قبلته إلى البيت الحرام.

إن إقتران الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتحويل القبلة بالإخبار بأنه حق وصدق من عند الله عز وجل نعمة وفضل، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٣)، ليكون موضوع

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) مسند أحمد ٤٥١/١.

(٣) سورة البقرة ١٠٥.

وحكم القبلة طريقاً لوحدة المسلمين، وسيلاً للهداية وجذب الناس للإيمان. وجاءت الآية السابقة بذكر قانون كلي وهو إستقلال كل أهل ملة بقبلة مخصوصة.

وجاءت هذه الآية بتعيين قبلة المسلمين، مما يدل على أن الإسلام ملة مستقلة بذاتها، وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين يلتقون في أداء العبادات بعرض واحد.

وأختلف في علم الأصول هل الأمر يدل على الوجوب أو الإستجاب والمشهور والمختار هو الأول، إلا مع القرينة الصارفة وقد تدل عليه هذه الآية بلحاظ الملازمة بين الأمر وصبغة الحق.

ويمكن تسمية هذه الآية آية (ومن حيث خرجت) ولم يرد هذا اللفظ إلا في هذه

الآية والآية التالية، ومنه لفظ (خرجت) فإنه لم يرد إلا في هاتين الآيتين .

ولم يرد لفظ (اخشون) إلا في هذه الآية وفيه دلالة على الشأن العظيم لجهة القبلة

ولزوم التقيد بأحكامها .

الآية سلاح

في الآية تخفيف عن المسلمين وإعانة لهم على التوجه إلى القبلة الجديدة بحصر التكليف بها والإخبار بأنها حق من عند الله تعالى .

وبعد أن أختتمت الآية السابقة بالإطلاق والعموم بقدرة الله وشمولها

للموجود والمعدوم بقوله تعالى ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إبتدأت

هذه الآية بحرف العطف الواو مما يدل على إتصالها موضوعاً وحكماً بالآية السابقة، فمن قدرة الله عز وجل أن جعل قبلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى البيت الحرام فلا بد أن تتم وتتحقق، وفيه زجر للناس عن نهى أو منع المسلمين من إستقبال البيت ودعوة إلى تعاهده ليكون من

مصاديق أمر الله عز وجل إلى إبراهيم واسماعيل بقوله تعالى ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١) لإصلاح البيت الحرام لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووفد الحاج والمعتمرين كل عام. وهل فيه إشارة للقبلة الجواب نعم، من وجوه:

الأول : تسمية الله عز وجل له (ببتي) من بين مساجد الأرض.
الثاني : تطهير البيت الحرام للركع السجود أعم من أن يختص بالذين يؤدون الصلاة في البيت الحرام فيشمل الذين يستقبلون البيت من مشارق ومغارب الأرض الزمان فكلما يتطهر المسلمون للصلاة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾^(٢) فكذا البيت الذي يستقبلونه فإن الأنبياء من قبل قاموا بتطهيره وإصلاحهم لإتحاذهم له قبلة.

الثالث : يلزم شرط القبلة كل واجبات الصلاة ومنها الركوع والسجود ومنه التسليم وإنقياد لله عز وجل بصيغ الطاعة .

الرابع : إخبار آية البحث بأن الأمر الإلهي باستقبال البيت الحرام من عند الله ، وما يدل هذا المعنى من إنبساطه على أفراد الزمان بما هو سابق لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومتأخر عنها.

(١) الآية ١٢٥.

(٢) سورة المائدة ٦.

مفهوم الآية

صيغة القطع والحثم في الآية تؤكد ثبوت النسخ وحصر قبلة المسلمين بالبيت الحرام إلى يوم القيامة خصوصاً وأن الخطاب للأمة جميعها بواسطة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وصفة قبلة المسلمين بأنها (الحق) وبالتعريف بالألف واللام تأكيد سماوي على أنها رحمة وقضاء حتم وأنها جزء من رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمر كريم لا بد من تبليغه، قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

فإستقبال البيت الحرام بشارة للمسلمين بالنفع والثواب العظيم ومادة لوحدة المسلمين وإنفرادهم بشرائط عباداتهم وكيفياتها فلا يتأثرون بترك الآخرين لعباداتهم أو تحريفهم لها، بمعنى أنه لو كان المسلمون وغيرهم من أهل الكتاب متحدين في قبلة واحدة، ثم قام أهل الكتاب بالتقصير في العبادة والقبلة فقد يؤثر هذا سلباً على المسلمين خصوصاً في هذا الزمان زمان العولمة وتداخل الحضارات.

ولو شاهد الآخرون المسلمين يتعاهدون القبلة كل يوم خمس مرات وهم معرضون عنها لأغاضهم ذلك وربما قابلوه بالكيد والحسد، فجاء نسخ القبلة وإنفراد المسلمين بإستقبال البيت الحرام تخفيفاً عنهم وعوناً لهم على تعاهد القبلة والعبادات وعدم إلتفاتهم لكيفية تصرف الآخرين أزاء قبلتهم قال تعالى ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٢).

والآية فضل على اليهود والنصارى لأنها تدعوهم إلى محاكاة المسلمين بإكرام القبلة والتوجه لها وجعل إعتبار لها في حياتهم اليومية إذ أن القبلة

(١) سورة البقرة ١١٩.

(٢) سورة المؤمنون ٥٣.

تذكر بالله عز وجل، والإستقبال عنوان التوجه إليه وأنه قريب، مما يبعث السكينة في النفس.

وفي وصف نسخ القبلة بالحق منع للشقاق والشك عند المسلمين مع إجماع المسلمين على أن الله تعالى ليس في جهة ونحوها من مفاهيم المحل والإشارة الحسية ولا عبرة بالقول الشاذ الذي لم يبق إلا في بطون الكتب، فكل ذي جهة يشار إليه ويكون محلاً للحوادث ومفتقراً للمكان، وواجب الوجود منزّه عن الجسمية وما يتفرع عنها من المكان والحلول والجهة ولكن القبلة نوع تعبد وتشريف مكاني وإبتلاء وإمتحان.

ويدل في مفهومه على حصول التكذيب من شطر من الناس، قال تعالى ﴿فَقَدْ كَذَبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾^(١).

في الآية مسائل:

الأولى: جاءت الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: ذكرت الآية الخروج والمراد الإستقبال في الصلاة والمناسك التي يشترط أو يستحب فيها الإستقبال.

الثالثة: إرادة الإطلاق في النسخ، وأن إستقبال البيت ليس تخييرياً بل هو أمر تعيني.

الرابعة: من مفاهيم الآية الدلالة على حسن سمت المسلمين، وإمثالهم للأمر الإلهي الذي يأتي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإدراكهم لقانون وهو أن المسلمين جميعاً مشمولون بالخطاب والأمر بإستقبال البيت الحرام، وهذا الإدراك من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)،

(١) سورة الأنعام ٥.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

وجاءت الآية التالية بالأمر للمسلمين بالتوجه إلى البيت الحرام لتوكيد عموم الحكم، وبيان منزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتلقي الحكم على نحو مستقل وإرادة الأمة بواسطة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما يوحى إليه.

الخامسة: جاء قوله تعالى (وأنه الحق من ربك) لطرد الشك والوهم بخصوص نسخ القبلة.

السادسة: حث المسلمين للتقيد بأحكام إستقبال البيت الحرام لما فيه من المنافع العظيمة في النشاطين.

الآية لطف

لقد أراد الله عز وجل للإسلام أن يكون الشريعة الباقية إلى يوم القيامة، فتفضل بأحكام نسخ القبلة ليكون شاهداً على التعدد في القبلة وكيفية أداء الملىين لعباداتهم، ودعوة الناس جميعاً لإستقبال البيت الحرام لأنه حق كما أخبرت هذه الآية (وأنه الحق من ربك).

وفيه دلالة على أن إستقبال البيت الحرام من الهداية والرشاد قال تعالى ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، ومن مصاديق الحق في المقام أن البيت الحرام القبلة التي يتوجه لها الناس إقتداء بالأنبياء السابقين، من غير أن يتعارض مع سلامة وصحة العبادة بالقبلة المنسوخة في زمانها وحكمها.

إن الله عز وجل يهدي الناس إلى الحق والهدى، ويشيهم على ما هداهم له، وتلك آية من اللطف الإلهي، فلولا هذه الآيات لم يهتد المسلمون إلى إستقبال البيت الحرام، فتفضل سبحانه وأنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وآله وسلم هذه الآية لتكون أمراً يتصف بالوجوب ويشمل المسلمين والمسلمات وأجيالهم المتعاقبة على نحو العموم الإستغراقي لجذبهم إلى سبل الصلاح، وإعانتهم في أداء الفرائض على الوجه الأكمل، ولينهلوها من خزائن الأجر والثواب.

لقد إستعبد الله عز وجل الناس بالبيت الحرام، وجعل حجة واجباً على المستطيع قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١)، ولكن ولكن الإستطاعة غير متيسرة لشطر من المسلمين في مشارق ومغارب الأرض، فجاء الحكم بإستقبال البيت الحرام في الصلاة ليكون سياحة في رحابه، وطوافاً للروح حوله، ومن الآيات في إستقباله أنه تعاقد لحج البيت لما يبعثه من الشوق في النفس كل يوم لزيادة البيت الذي يتوجه إليه بخشوع وخضوع.

تنمي هذه الآيات حب القبلة وجهة القبلة، والإستقبال في المجالس، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خير المجالس ما أستقبل به القبلة^(٢). ولتكون مدرسة إستقبال القبلة في الصلاة وغيرها من مقدمات إستقبال المسلم للأخرة وإستعداده لها لذا ورد في الآية السابقة ﴿أَنْبِئْ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ﴾^(٣).

ومن اللطف الإلهي في الآية إقتران الأمر بإستقبال البيت الحرام بالإخبار من عند الله بأنه حق وفضل من عند الله فلا يقبل النسخ والتبديل، فقد توجه المسلمون في بداية الدعوة إلى البيت الحرام ثم إلى بيت المقدس عندما

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) مفاتيح الغيب ٤١١/٢.

(٣) الآية ١٤٨.

أقاموا في المدينة، فأخبرت آية البحث بأن نسخ القبلة وجعلها إلى البيت الحرام حق من عند الله ولا يقبل النسخ مرة أخرى، وفيه دلالة على صحة إستقبال المسلمين الأوائل للبيت الحرام قبل الهجرة.

وأختتم الآية بقوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو قانون كلي يأتي بلغة الخطاب تارة والغائب تارة أخرى، ويأتي مرة للثناء والبشارة بالجزاء الحسن وأخرى بالإنذار والوعيد.

وجاء في الآية بالبشارة للمسلمين بعظيم الثواب على إستقبالهم البيت الحرام وصبرهم على قول السفهاء وأهل الإنكار والجدال بخصوص مبادرتهم للفعل الناسخ لأنه حق، وتركهم للمنسوخ وهو أيضاً حق، فإستقبال النبي والمسلمين لبيت المقدس حق أيضاً ولكن بقدره من حين وصول النبي إلى المدينة وإلى أوان نزول آيات القبلة بعد إنقضاء نحو ثمانية عشر شهراً، ليثاب المسلمون على إستقبالهم لبيت المقدس وإستقبالهم للبيت الحرام الذي فيه الأجر والثواب والسلامة من أهل الريب والجدال لقوله تعالى في الآية التالية ﴿لَنَلَايَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

وإستقبال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لبيت المقدس قم بالسنة ونسخ بالقرآن وتدعو الآية الناس جميعاً للإقتداء بالمسلمين، وعدم التفريط بالأوامر العبادية النازلة من عند الله.

وتتضمن الترغيب بكتابة الملائكة للعبد الحسنات، قال تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ

مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١).

إفاضات الآية

لقد جعل الله عز وجل الأرض واسعة يسيح الإنسان حيث يشاء فيها حضراً وسفراً، ويتنقل في السكن من بلدة إلى أخرى، ومن بيت إلى غيره، ولكنه يحافظ على صلة يومية ثابتة مع البيت الحرام، يسأل عن جهته في السفر، لتكون صاحباً إيمانياً، وواقية من المهالك وإغواء الشيطان، والحرص على التقيد باستقبال البيت عروج بالروح في عالم الملكوت، وسياحة في الأرض نحو غاية مكانية مخصوصة تتصف بالإشراق الذاتي، وصلة مع الآباء والمؤمنين من الأمم السالفة، وتركة كريمة للأبناء والأجيال اللاحقة من المسلمين مقترنة بالدعوة لتعاهد هذه الأمانة وهي مصداق من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(١)،

فإستقبال البيت عبادة من وجوه:

الأول: إنه شرط في الصلاة التي هي عمود الدين، فلا تصح الصلاة من دون إستقبال البيت الحرام.

الثاني: الإستقبال بذاته عبادة لأنه طاعة لله عز وجل، وإمثال لما في هذه الآية الكريمة.

الثالث: إنه مقدمة لعمارة الأرض بالعبادة، وطريق للصالح، وتوقير بتوجه مقادير البدن للبيت الذي خص الله عز وجل به نفسه وسماء بيته. ويلاحظ في هذه الآية تكرار الأمر إلى النبي بالتوجه إلى البيت الحرام، وتوكيد أنه حق من عند الله، ليكون التكرار توكيداً للنسخ، ودعوة للمسلمين للتقيد به، وزجراً للسفهاء من الإستهزاء بالمسلمين في تحويل القبلة، وليبقى هذا التكرار شاهداً على ما لاقاه النبي محمد صلى الله عليه

وآله وسلم وأصحابه من العناء والأذى في تثبيت مناسك العبادة، والفيض الإلهي المتصل على المسلمين في العبادات والمناسك والمعاملات وما فيه من تهذيب الأخلاق، وترسيخ مفاهيم الإيمان في النفوس.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بحرف الجر (من) الذي يأتي للتبويض، ولإبتداء الغاية وبمعنى الباء، وليبان صفة ونعت مخصوص كما في قوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾^(١)، وجاءت هذه الآية لبيان العموم وإتحاد وما بعدها معها في الحكم، ففي أي مكان كان المسلم يجب أن يتوجه صوب البيت الحرام في صلاته، وفيه ترغيب بالحج، وقصد إتيانه، ومن الإعجاز أن لفظ الخروج في الآية يدل على إبتداء الغاية في ظاهرة لدلالة لفظ (حيث خرجت) عليه، وفيه مسائل:

الأولى: إستحضار المسلم للبيت الحرام في الوجود الذهني.

الثانية: التذكير بالحج، والخروج إلى البيت الحرام، بإعتبار أن الخروج مقدمة عقلية.

الثالثة: إطلاق الحكم مع تعدد المكان والزمان، إذ أن تعدد الأمكنة يدل على إرادة أفراد الزمان الطولية، لإستحالة إتحاد الحال مع تعدد المحل. وذكرت الآية وجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لصرفه إلى جهة القبلة، وفيه إكرام إضافي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبيان الصلة بين الوجه وبين القبلة ومنافع هذه الصلة في تهذيب النفوس، وحسن عاقبة الأعمال والجزاء الحسن عليها.

إن صرف المسلمين وجوههم إلى البيت الحرام لإنصراف عن زينة الدنيا وزخرفها دعوة لهم للجهد في سبيل الله بالعبادة، بلحاظ أن الجهد أعم من

السيف وميادين القتال، بالإضافة إلى أن الجهاد بإستقبال القبلة دعوة للناس للإسلام وبيان للإعجاز في الشريعة الإسلامية، وواقية من شر وكيد الأعداء. وورد ذكر المسجد الحرام في القرآن باسم البيت، قال تعالى ﴿إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾^(١)، ومن مصاديق اللجوء إلى البيت الحرام وإكتساب الأمان به إستقباله في الصلاة، والتوجه إليه مطلقاً، لأن توجه المسلمين للبيت الحرام أمن لهم وللناس لما فيه من الدعوة إلى الله، والإنقطاع عن الدنيا، ومن وجوه ورود الأمر بالتوجه إلى القبلة بالخروج (ومن حيث خرجت) إرادة موضوعية الإستقبال في أفعال عبادية واجبة ومستحبة عديدة، إذ يستقبل المسلمون البيت الحرام في الصلاة اليومية أداء وقضاء، وتوابع الصلاة والصلوات الواجبة والمستحبة كصلاة الآيات وصلاة الإستسقاء وصلاة النافلة حال الإستقرار دون أدائها في المشي والركوب ولا بد من إستقبال البيت الحرام في الذبح والنحر بمقادير بدن الحيوان إلى القبلة، ويستحب الإستقبال في أفعال عديدة منها قراءة القرآن، والدعاء والتعقيب والمرافعة عند الحاكم، وسجدة الشكر، وسجدة التلاوة.

ومن الأحكام الشرعية الثابتة في الشريعة الإسلامية أن الإخلال بالإستقبال عن علم وعمل مبطل للصلاة، وجاءت الآية بوصف البيت بأنه (الحرام) وهي صفة ينفرد بها، فليس في الأرض موضع للعبادة أو لغيرها يتصف بهذا الإسم، بالإضافة إلى ملازمة هذه الصفة له إلى يوم القيامة، وهي خصوصية إمتاز بها، وشاهد على أهليته لإستقبال المسلمين له، ودعوة لهم لتعاهد هذا الواجب إلى يوم القيامة، وهو من الدلائل على قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

(١) سورة البقر ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

وجاء ذكر البيت الحرام، على نحو التعيين الموضوعي والحكمي، إذ يدل على وجود وظيفة عبادية عامة للمسلمين وهي الإستقبال وصرف الوجوه نحو جهة مخصوصة تتصف بأنها مباركة وذات حرمة، وأحاطها الله عز وجل بعناية ولطف خاص، لتكون عوناً للمسلمين في عباداتهم، وبرزخاً دون طغيان الكفر والجحود.

وبعد أنه إبتدأت الآية بالأمر بالتوجه إلى البيت الحرام، وصفت الأمر بأنه حق وأمر ثابت من الله عز وجل لا يزول بنسخ، وفيه توكيد بأن الشريعة الإسلامية هي آخر الشرائع وهي النسخة غير المنسوخة، وفيه تشريف إضافي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، ودعوة لتعاهده النعمة المركبة من وجوه:

الأول: الإستقبال في العبادات، وتعيين جهة مخصوصة للإستقبال.
الثاني: مجيء الأمر الإلهي بالإستقبال للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: بيان جواز ووقوع النسخ في القرآن.
الرابع: حرمة وقدسية البيت الحرام.
الخامس: التوجه للبيت الحرام حق وواجب لا يجوز تركه.
السادس: الثواب العظيم بالإمتثال لأمر إستقبال البيت الحرام والذي يدل عليه ذات الأمر وخاتمة الآية.

وإذ إبتدأت الآية بلغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فانها أختتمت بالخطاب للمسلمين جميعاً بدعوتهم إلى التقيد بأحكام القبلة، والمبادرة للإمتثال، وما فيه من الأجر، وبلوغ المراتب السامية يوم القيامة، لذا ورد قوله تعالى قبل ست آيات ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(١).

التفسير الذاتي

ورد لفظ (من حيث) في القرآن خمس عشرة مرة، لم يتعلق منها بخصوص القبلية إلا ما ورد في هذه الآية والآية التالية، وكلاهما خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمراد الأمة أيضاً، ترى لماذا لم تكتف الآيات بالخطاب الخاص للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ومن حيث خرجت) أو الخطاب العام للمسلمين ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَكُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(١)، وكل واحدة منها تدل على ذات المعنى بالإضافة إلى السنة النبوية، التي هي تفسير للقرآن، وسيرة المسلمين في التوجه للقبلة، والجواب من وجوه:

الأول: يدل تعدد الخطاب على موضوعية نسخ القبلة.

الثاني: إعانة المسلمين في التحول إلى القبلة الجديدة، ومنع التردد وأسباب الشك.

الثالث: في تكرار وتعدد صيغة الخطاب رد سماوي على السفهاء وأهل الجدل الذين قالوا ﴿مَا وَلَاهُمُ عَنِ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(٢).

الرابع: تعدد لغة الخطاب إعادة للأمر وفيه نفع عام للمسلمين.

الخامس: بيان جهاد النبي في سبيل الله، إذ يتصدى بنفسه للأمور العبادية والنسخ ثم يأتي الأمر للمسلمين للإقتداء به، وفيه مصداق بأن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمة في الخير.

وورد لفظ (خرجت) مرتين في القرآن، في هذه الآية والآية التالية، وكل واحدة منهما خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبخصوص القبلة، وهو آية إعجازية في نظم آيات القرآن، ويتضمن أسراراً تبين أن تقيد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقبلة أعم من أن ينحصر بالصلاة،

(١) الآية ١٤٤.

(٢) سورة البقرة ١٤٢.

بل هو مصاحب له في حله وترحاله، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر ما يجلس تجاه القبلة^(١).

وجاء لفظ (المسجد) إثنين وعشرين مرة، منها خمس عشرة مرة في المسجد الحرام، وتلك آية في بيان موضوعية البيت الحرام في العبادات، وتوكيد لما له من القدسية، ولكل مرة يذكر فيها موضوع وترشح عنه مسائل، كما يشارك المسجد الحرام المساجد الأخرى في الأحكام في قوله تعالى ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٢)، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٣).

وورد اسم المسجد الحرام بلفظ (البيت) خمس عشرة مرة أيضاً منها مرتان بلفظ (بيتي) وهذا الاتحاد في العدد آية من عند الله في إكرام البيت الحرام.

وورد وصفه (بالبيت الحرام) مرتين في القرآن، وجاء على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾^(٤)، وفيه شاهد بأن حرمة البيت الحرام مصاحبة له قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعدها، وبين الحرم والمسجد الحرام عموم وخصوص مطلق، فالمسجد جزء من الحرم الذي بين حدوده وضرب عليها بالمنار إبراهيم عليه السلام.

وكانت قريش تعرفها في الجاهلية لأنهم سكان الحرم، ولتجدد حج القبائل كل سنة، وهو من تركة إبراهيم عليه السلام وكنز تعبدي من أيام آدم عليه السلام وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

(١) البحار ٢٤٠/١٦.

(٢) سورة الأعراف ٣١.

(٣) سورة الأعراف ٢٩.

(٤) سورة إبراهيم ٣٧.

لِيَعْبُدُونَهُ^(١)، وحفظه موضعاً وبناءً ومناسكا آية من عند الله وقد كتب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع ابن مَرِيع الأنصاري إلى قريش: أن قروا على مشاعركم فانكم على إرث من إرث إبراهيم^(٢)، وقيل: المحرم هو الحرم، وسمي بيت الله بالمسجد الحرام لأنه آمن فلا يصح فيه إخافة الناس والتعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. وورد لفظ (الشرط) في القرآن خمس مرات في القرآن، كلها في البيت الحرام ووجوب إستقباله، ثلاثة منها خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإثنتان لإرادة المسلمين والمسلمات في الآية التالية ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(٣).

وفيه بشارة إتساع الإسلام وتعدد الأمصار والأماكن التي يتوجه منها المسلمون في إستقبالهم.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: تشريع توجه المسلمين إلى البيت الحرام.

الثانية: مجيء إستقبال البيت الحرام بوجوه منها:

الأول: نسخ القبلة السابقة، وتوجه المسلمين إلى بيت المقدس.

الثاني: الأمر الخاص للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإستقبال

البيت الحرام، كما في هذه الآية.

الثالث: الأمر الإلهي للمسلمين والمسلمات بإستقبال البيت الحرام كما

في الآية التالية.

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) لسان العرب ١٢/١٢٢.

(٣) سورة البقرة ١٤٤.

الثالثة: دعوة المسلمين للإقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في العبادات.

الرابعة: جعل المسلمين على يقين في موضوع نسخ القبلة، بتكرار الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام، والإخبار بأنه حق من عند الله.

الخامسة: إمضاء وتصديق الوحي وآيات القرآن الأخرى، فكل آية وحكم قرآني تثبت لأحكام القرآن الأخرى.

السادسة: إتحاد حكم الإستقبال في حال الحضر والسفر، فمن كان عند بيت المقدس ذاته يجب أن يتوجه إلى البيت الحرام لقوله تعالى في الآية التالية ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(١).

السابعة: نسخ القبلة حق وصدق، وأمر نازل من عند الله، وفيه تهئية لأذهان المسلمين لأحكام النسخ القرآني في العبادات والأحكام، وهل تنسخ السنة القرآن الجواب لا، وإن قال به بعض الأصوليين.

الثامنة: دعوة المسلمين للمبادرة إلى إستقبال البيت الحرام، وقبول نسخ القبلة بالرضا والغبطة والإمثال.

التاسعة: الرجاء لنيل المسلمين الثواب العظيم.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

الأولى: من أسرار وكنوز القرآن ما فيه من الأوامر ولغة البيان ومعاني الحكمة التي تتصف بها.

الثانية: تدل هذه الآية على تفضل الله سبحانه بتوجيه عبادات المسلمين على نحو التفصيل وبيان الأجزاء والشرائط موضوعاً وزماناً وفعلاً.

الثالثة: لا تجعل الآية ثمة سبيل إلى التردد، وتخبر المسلمين والناس جميعاً

أن نسخ القبلة بأمره وإرادته ومشيتته تعالى مما يعني إفادته النفع العظيم.

الرابعة : ظاهر الآية أعم من الإستقبال في الصلاة والمناسك الأخرى.

الخامسة : زيادة الإهتمام والعناية بالإستقبال في الصلاة.

السادسة : الآية دعوة للتوجه إلى البيت الحرام في المقاصد العبادية

وأغراض السفر.

السابعة : حمل الآية على إطلاقها ولو بتحقيق مسمى الإستقبال في أي

حال من أحوال العمل والسعي.

الثامنة : إعتبار الإستقبال في موارد الحياة العملية والعبادية وإتحاذه سنة،

لذا يستحب الإستقبال في كل شيء.

التاسعة : ترغيب المسلمين بالتوجه إلى القبلة وتكفي إطاعة الأوامر

الإلهية بروح الإنصياح والإمثال الأمثل قال تعالى ﴿لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ

الْحُسْنَى﴾^(١).

العاشرة : إعتيادهم على العمل بصيغة مخاطبة القرآن للنبي صلى الله

عليه وآله وسلم وإستقراء قاعدة كلية عقلية بأن الخطاب الموجه للنبي صلى

الله عليه وآله وسلم يعني مخاطبة الأمة مما يدل على الإجتماع والإلتقاء

بشخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو محور الأفعال والأسوة الحسنة

والواسطة المباركة بين السماء والأرض.

الحادية عشرة : في الآية إكرام خاص وتشريف مركب للنبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم بنزول القرآن بالأمر الشخصي، وبإكرام الأمة بحسن

تبعيتها له في الأفعال والعبادات.

الثانية عشرة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على أن النبي صلى الله عليه

وآله وسلم لا يفعل إلا ما أمره الله عز وجل، وهذا الأمر متجدد وباق إلى

يوم القيامة.

الثالثة عشرة : صيغة الإطلاق المكاني بقوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ

خَرَجْتَ﴾ أي أن أمر القبلة ثابت ودائم ويشمل كل بقعة من بقاع الأرض ويدل في مفهومه على نسخ القبلة سواء كانت صلاة المسلمين في المدينة أو مكة أو في بيت المقدس نفسه أو أي مكان آخر.

الرابعة عشرة : تأسيس قاعدة جديدة مستقراة من هذه الآية، وهي أن الذي يؤمر بإتيانه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم طيلة حياته يعني بالضرورة إلزام المسلمين بالعمل به إلى يوم القيامة.

الخامسة عشرة : جاءت الآية بمخاطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتظهر عظيم مسؤوليات النبوة وشدة أعبائها، إذ يمكن ترجمة صيغة الخطاب هذه إلى الأمر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتوجهه وأتمه وإلى يوم القيامة إلى البيت الحرام وأن مسؤوليته لم تكن شخصية فقط، فلا غرابة أن تكون له الشفاعة والمنزلة الرفيعة.

السادسة عشرة : في الآية إخبار عن إفاضات وبركات التوجه إلى البيت الحرام لقانون كلي وهو الملازمة بين الأمر الإلهي والنفع العام في الدارين، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ لِلْحَقِّ مِنَ رَبِّكَ﴾

قد تقدم قبل آيتين قوله تعالى ﴿الْحَقُّ مِنَ رَبِّكَ﴾ وتعلق بالوحي

والتنزيل وهو هنا يتعلق بالقبلة والتوجه إلى الكعبة، وفيه مسائل:

الأول : إفراد القبلة وإستقلالها بالوصف بأنها حق من عند الله تعالى وأمر ثابت لا يقبل التردد أو النسخ أو التغيير.

الثاني : بيان حقيقة عقائدية لم يلتفت إليها وهي موضوعية وعظيم منزلة القبلة في الشريعة الإسلامية.

الثالث : إنها شرف وعز ورفعة للمسلمين، وفيها دلالات ودروس لم تستنب بعد.

الرابع : تقطع الآية الطريق على كل محاولة للنظر في تغيير القبلة.

الخامس : تؤكد سماوي بأن أحكام الإسلام من عند الله وبأمره.

السادس : تخفيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن توجهه إلى القبلة ليس من عنده.

السابع : درس للمسلمين بطاعة الله تعالى في الأوامر المولوية وأحكام الشريعة.

الثامن : الإخبار بأن أمر القبلة وإن كان تغييراً مستحدثاً إلا أنه ثابت في أصل الشريعة وهذا أوان إظهاره والشروع بالعمل به، وكأن أصل الوجوب ثابت وهذا زمان الواجب وتحقيق مقدماته ووجود القابل.

التاسع : لا موضوعية أو أثر في تغيير القبلة لمخالفة أهل الكتاب، فتبديل القبلة لم يأت بسبب تغيير بعضهم في إتحاد قبلة المسلمين معهم، بل هو حق وأمر ثابت من عند الله تعالى.

العاشر : الإقبال بإندفاع من عامة المسلمين على التوجه إلى البيت الحرام فهذه الآية سلاح وعون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في تبديل القبلة.

الحادي عشر : الحيلولة دون الإفتتان والتردد وسماع أقوال أهل الحسد والبغضاء فحالما نزل الأمر بتبديل القبلة كان الشروع والعمل فليس ثمة وقت للتردد أو مناسبة لبث الجاحدين للسموم.

الثاني عشر : في تحويل القبلة وعموماتها وفوريته إعجاز مستحدث آخر يظهر هذه الأيام بإستيلاء غير المسلمين على بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، فلو ظلت القبلة بالتوجه إليه مع تعديهم هذا فقد يحدث أمر آخر ويتكرر الإقتتال ويحصل التسابق في صناعة وحياسة أسلحة الدمار الشامل، ويريد الله للمسلمين والناس المسارعة في الصالحات، كما ورد قبل

آيتين ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(١). أي أن نسخ قبلة المسلمين وتوجههم للبيت الحرام الحرام واقية من الحروب بينهم وبين أهل الكتاب، ومناسبة للإنشغال بطاعة الله والمشاركة في الخيرات، وهو من أسرار وصف الذين إنكروا تحويل قبلة المسلمين بالسفه بقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(٢).

لذا يمكن القول أن في الآية تخفيفاً وسعة لم تعرف أبعاد فلسفتها والحكمة منها والآيات الإعجازية فيها بدرء الفتنة ومنع الحروب، وهي مصدر قوة وأمن للمسلمين خصوصاً مع لحاظ إمتلاك العدو للسلاح الأكثر بطشاً في بعض الأزمنة.

الثالث عشر : تظهر الآية فناء إرادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بإرادته وأمره تعالى والاستجابة المنجزة غير المقيدة ومبادرتهم بالتوجه إلى البيت الحرام دليل على إستعدادهم للتضحية ومواصلة الجهاد.

قوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

الأولى : الآية خطاب للمسلمين فتكون الآية وعداً وثناء ورضا لما يفعلون من الإستجابة الفورية لتبديل القبلة والقبول بامتنان وفخر بنسخ القبلة، واجتياز أيام تشريعها من غير فتنة أو صعاب أو معوقات.

الثانية : وقيل: "معناه هنا التهديد كما يقول الملك لعبدة ليس يخفى علي ما أنتم عليه فيه و مثله قوله إن ربك لبالمرصاد"^(٣).

وليس في الآية تهديد للمسلمين ونص الآية له وجوه مختلفة تعرف بالقرائن المقالية والحالية وإن كان اللفظ واحداً خاصة وإنها ترد أحياناً بلغة

(١) سورة البقرة ١٤٧.

(٢) سورة البقرة ١٤٢.

(٣) مجمع البيان ٢٣١/١.

الخطاب وأحياناً أخرى بلغة الغائب.

الثالثة : خاتمة هذه الآية وثيقة شرف وعز للمسلمين وتتضمن الوعد الإلهي الكريم لهم رجالاً ونساءً بالثواب والأجر في حال التقيد التام بهذا التحول.

الرابعة : الآية تنبيه وإخبار عن إحاطة الله تعالى علماً بما يفعل المسلمون في حياتهم اليومية العبادية والدنيوية.

الخامسة : صحيح أن الآية في موضوع القبلة إلا أنها قاعدة كلية تستوعب الأفراد والأفعال وإلى يوم القيامة وقد ثبت في علم الكلام أن علمه تعالى حضور جميع الأشياء عنده من غير أن يغيب منها شيء.

بحث بلاغي

في الآية نكتة بلاغية وهي الالتفات والتحول من لغة الخطاب الشخصي إلى لغة الجمع المخاطب، وفيه تنبيه للسامع مع حث على المتابعة بشوق وإصغاء بتيقظ وعدم إبقاء الكلام على أسلوب ووتيرة واحدة لأنها تتعلق بالفعل العبادي المستغرق لجميع المسلمين، وبما إنهم إلتمزوا به جميعاً جاء الإخبار عن الثواب والأجر على نحو العموم، فكما أن الأمر بتحويل القبلة من الله تعالى فانه يتولى إكرام المسلمين بالأجر ونزول الفضل والبركة.

ومن أسرار الالتفات في المقام دعوة المسلمين للمسارعة للإمتهال لأمر الله إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتوجه إلى القبلة بلحاظ أنه خطاب إنحلافي موجه للمسلمين والمسلمات كما أكدته الآية التالية، وليكون الثواب على إستقبال البيت الحرام متعدداً من وجوه:

الأول : تلقي الخطاب القرآني الموجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على أنه خطاب وأمر للمسلمين.

الثاني : عدم إنحصار إستقبال البيت في حال الحضر وبالمدينة المنورة، بل يشمل السفر وبقاع الأرض كلها ، وهل تدل الآية في ظاهرها على الأمر

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٢٤	الآية لطف
٧	قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾	٢٥	إفاضات الآية
٧	الإعراب واللغة والقراءة	٢٧	الصلة بين أول وآخر الآية
١٠	في سياق الآيات	٢٩	من غايات الآية
١٨	إعجاز الآية	٣١	التفسير
١٩	الآية سلاح	٣٦	تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾
٢٠	مفهوم الآية	٣٩	تفسير قوله تعالى ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٨	تفسير ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِهِ﴾	٦٤	بحث بلاغي
٥٥	بحث لغوي	٦٥	تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾
٥٧	تفسير قوله تعالى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾	٦٨	﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾
٥٨	تفسير قوله تعالى ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِهِ﴾	٦٨	القراءة
٥٩	تفسير ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾	٦٨	الإعراب واللغة
٦٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾	٧١	في سياق الآيات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٠	إعجاز الآية	١٠٩	فيما يستقبل له
٨٢	الآية سلاح	١٠٩	كيفية الإستقبال
٨٣	مفهوم الآية	١١٠	أحكام الخلل في القبلة
٨٤	إفاضات الآية	١١١	بحث روائي
٨٥	الآية لطف	١١٢	بحث تاريخي
٨٨	الصلة بين أول وآخر الآية	١١٤	تفسير قوله تعالى ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾
٩٢	من غايات الآية	١١٨	قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ
٩٣	تفسير قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾	١٢٠	تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾
١٠٠	تفسير قوله تعالى ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾	١٢٢	﴿وَلْتَن أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلْتَن أَتَبِعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾
١٠٤	قوله تعالى ﴿قَوْلُ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	١٢٢	الإعراب واللغة
١٠٧	مسائل فقهية	١٢٣	في سياق الآيات

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ ﴾	١٥٩	
١٣٤	إعجاز الآية	160	تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾
١٣٥	الآية سلاح	١٦٥	قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾
١٣٧	أسباب النزول	١٦٥	الإعراب واللغة
١٣٨	مفهوم الآية	١٦٦	في سياق الآيات
١٤٢	الآية لطف	١٧٨	إعجاز الآية
١٤٣	إفاضات الآية	١٨٠	الآية سلاح
١٤٥	الصلة بين أول وآخر الآية	١٨١	مفهوم الآية
١٥٣	تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾	١٨٢	الآية لطف
١٥٦	تفسير ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ﴾	١٨٤	الصلة بين أول وآخر الآية

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٥	إفاضات الآية	٢١١	إعجاز الآية
١٨٧	من غايات الآية	٢١٣	الآية سلاح
١٨٨	تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾	٢١٤	مفهوم الآية
١٩٧	تفسير ﴿وَإِنْ فَرِقْنَا مِنْهُمْ لَيَكُونَنَّ الْحَقُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾	٢١٦	الآية لطف
٢٠٠	تفسير ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾	٢١٨	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٠٢	قوله تعالى ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾	٢١٩	من غايات الآية
٢٠٢	القراءة	٢٢٠	تفسير قوله تعالى ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
٢٠٢	الإعراب واللغة	٢٢٢	تفسير قوله تعالى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾
٢٠٣	في سياق الآيات	٢٢٤	قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٢٤	القراءة	٢٥٤	تفسير قوله تعالى ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ
٢٢٤	الإعراب واللغة	٢٦٠	بحث أصولي
٢٢٥	في سياق الآيات	٢٦٠	تفسير قوله تعالى ﴿ أَيْنَمَا
			تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ﴿
٢٣٦	إعجاز الآية	٢٦١	تفسير قوله تعالى ﴿ إِنْ
			عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿
٢٣٨	الآية سلاح	٢٦٣	شبهة الأكل والمأكل
٢٣٩	مفهوم الآية	٢٦٦	قوله تعالى ﴿ وَمِنْ
			فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ
			مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
			تَعْمَلُونَ ﴿
٢٤١	الآية لطف	٢٦٦	الإعراب واللغة
٢٤٢	إفاضات الآية	٢٦٧	في سياق الآيات
٢٤٣	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٧٣	إعجاز الآية
٢٤٥	التفسير الذاتي	٢٧٥	الآية سلاح
٢٤٧	من غايات الآية	٢٧٧	مفهوم الآية
٢٤٩	التفسير ﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ	٢٧٩	الآية لطف
٢٥١	تفسير قوله تعالى ﴿ هُوَ	٢٨٢	إفاضات الآية

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٨٣	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٩١	تفسير قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾
٢٨٦	التفسير الذاتي	٢٩٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾
٢٨٨	من غايات الآية	٢٩٤	بحث بلاغي
٢٨٩	قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	٢٩٥	بحث أصولي